

البحث عن الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية من أواخر الثمانينات إلى غاية 2003م

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم
تخصص: الأدب العربي

إشراف الأستاذ الدكتور:

عباس بن يحيى

إعداد الطالبة:

قصابي صليحة

تاريخ المناقشة:

أمام لجنة المناقشة:

الرقم	الاسم واللقب	الرتبة العلمية	المؤسسة	الصفة
01	عبد المالك ضيف	أستاذ التعليم العالي	جامعة المسيلة	رئيسا
02	عباس بن يحيى	أستاذ التعليم العالي	جامعة المسيلة	مشرفا ومقررا
03	فاتح حنبلي	أستاذ محاضر - أ-	جامعة أم البواقي	ممتحنا
04	رابح طبجون	أستاذ محاضر - أ-	المدرسية العليا للأساتذة قسنطينة	ممتحنا
05	عبد القادر لباشي	أستاذ محاضر - أ-	جامعة البويرة	ممتحنا
06	سعدية بن ستيتي	أستاذ محاضر - أ-	جامعة المسيلة	ممتحنا
07	فوزية عمروش	أستاذ محاضر - أ-	جامعة المسيلة	مدعوة

السنة الجامعية: 2017 / 2018م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة شكر وعرfan

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«مَرَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَذْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ» [سورة النمل، الآية: 19]

نحمد الله عز وجل الذي وفقنا لإتمام هذا العمل المتواضع، كما لا أنسى بين يدي هذا العمل أن أبادر بتسجيل خالص شكري وثنائي لأستاذي **"عباس بن يحيى"**، الذي كان قنديلًا هدايني في عتمة الطريق، وسراجًا أنار لي ملامح السبيل بنصائحه وإرشاداته.

ولذا أستاذي الفاضل **"سيليني نور الدين"** الذي شملني برعايته وعمرني بحسن استقباله وأضاء دربي بتوجيهاته.

فبارك الله لها في علمها وصحتها وجزاها عني كل خير

كما أشكر كل من مد لي يد العون من قريب أو بعيد.

قصابي صليحة

مقدمة

مقدمة:

لقد شكلت الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية المنبر الذي اعتلاه نخبة من الكتاب بهدف إيصال إبداعاتهم الفكرية فكانت هذه الإبداعات وعًا لغويا مختلفا تمام الاختلاف عما سبق للتأكيد على جزائريتهم، ولوحة فنية لعرض أذواقهم، فقد حمل أصحابها لواء التجديد والحداثة متبنين نهجا مغايرا لما سبق، معلنين القطيعة التامة مع أنساق السرد التقليدي في نمطها الواقعي، ليمعنوا في مغامرة مفتحة على أكثر من أفق كتابية، يتجدد نسقها من سيرورة بحثها الدائم عن المغايرة والاختلاف، وهذا كله من أجل بلورة الذات في علاقاتها بالعالم وصناعة الموقف النقدي من الراهن الاجتماعي والسياسي في تحولاته المتأزمة التي وسمت مرحلة الجزائر المستقلة، وهو ما استدعى تحولات في جماليات النص حتى يتمكن من استيعاب الإشكاليات المستجدة الناجمة عنها، كما أنها شكلت رحلة بحث عن الأنا وعن الآخر.

فالرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية تعد رحلة بحث ومساءلة بدأت بماضي محتكر لتخلق آخر ممنوحا ومتاحا للتبدل والتطور، رحلة شكلت فيها الذات محور الاهتمام، حيث باتت هاجس الروائيين الجزائريين الذين راحوا ينقلون معاناتها وتفاعلها مع وجدانها وهي تعالج القضايا التي تؤرقها، مروين علاقتها ومع الآخر ومع المحيط الخارجي بكل مكوناته. إن الكتابة بلغة الآخر أزمة المبدع الجزائري الذي راح يبحث عن كافة المبررات المقنعة لذلك الإحساس المتأزم المتولد لدى الذات التي عايشة مأساة التمزق، فراحت تبحث في لغة عدوها عن لغتها الذاتية بمعنى أنها قامت بالبحث عن خصوصية فيها تدل عليها وتكشف عالمها الخاصة بها، بمعنى أنها قامت بالبحث عن خصوصية فيها تدل عليه وتكشف عالمها الخاص وانتمائها وهويتها، معتمدة في ذلك معتمدة على لغة البوح والاعتراف بما يعتل داخل الذات من هواجيس وتصورات بانوية بذلك أفقها الجمالي على أساس كتابة

روائية تترجم همس الشارع الجزائري بفوضاه وقله، وصراعه الذي يبرز معاناة الذات الجزائرية.

واللافت للنظر في التجربة الروائية في هذه الفترة هو اندماجها في الذات ليس باعتبارها موضوعا محكيا فحسب وإنما باعتبارها ذات حكاية ومحكية، فأهمية الموضوع تتبع من الرؤية المتكاملة التي يخرج بها القارئ لهذه النصوص الروائية المكتوبة بالفرنسية لأدباء كبار من حجم محمد ديب، كاتب ياسين، مالك حداد، رشيد بوجدر، آسيا جبار، مليكة مقدم... وغيرهم كثير والتي لا بد أن يلاحظ فيها ذلك الاضطراب الحاصل داخل الذات المبدعة على أكثر من صعيد سواء أكان ذلك على صعيد اللغة في بحثها الدائم عن جزائر كأحد معالم هويتها كشخص وكأديب، وعلى صعيد دلالي برسمها لصورة الهوية شديدة التحول والتغير، في بحثها الدائم عن هوية منسجمة موصلة إلى معالم ثابتة محدودة في علاقتها مع انتماءاتها الفردية والاجتماعية والثقافية والوطنية والإنسانية.

فالرغبة الجامحة لدى هؤلاء الكتاب في تجاوز الدلالة النمطية العميقة للغة الوافدة أعقد تحد واجههم، فقد وجدوا أنفسهم لظروف تاريخية يعبرون بلغة الآخر (مستعمرة بلدهم) عن انتمائهم الجزائري، تعبيرا يحمل في طياته شيئا مناقضا لجزائريتهم، فكان لزاما عليهم والحال هذه البحث عن كل ما يجعلهم على صلة وثيقة بهويتهم الضائعة، وكذا البحث عن ما يربطهم بالوطن الأم والجذور الأصلية، وهو ما دفعني إلى طرح الإشكالية التالية:

- هل تمكنت الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية من نقل صراعات الذات في بحثها الدائم عن أنها وعن هويتها وعن وجودها وكذا عن العلاقة الجدلية التي تربطها بالبعد الحضاري للمجتمع الجزائري؟

- هل تمكن المبدع بلغة الآخر من نقل واقع الذات من خلال تصوير آلامها وانكساراتها وانتصاراتها خلال رحلة بحثها عن أنها وإثبات فعاليتها؟

- إلى أي مدى وفق الروائي الجزائري الذي يكتب لغة الفرنسية في التعبير عن تجارب الذات وتصدعات الذاكرة وأزمات الواقع والهوية؟
- كيف تشكل الكتابة بلغة الآخر أزمة هوية في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، وهل ستظل هذه الرواية وفيه لمقومات الثقافة والهوية الوطنية؟
- هل تمكنت الذات المبدعة بلغة الآخر من الحفاظ على أصالتها وهويتها الجزائرية وما هي القضايا التي عالجتها هذه الإبداعات؟
- وحتى يتسنى لي معالجة هذه الأسئلة المتفرعة التي تفرعت عن الإشكالية الأساسية المتعلقة بعنوان بحثي هذا الموسوم بـ: «البحث عن الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية من أواخر الثمانينات حتى سنة الألفين وثلاثة».
- وقد دفعتني أسباب عدة للبحث في هذا الموضوع منها الذاتية والمتمثلة في حبي لهذا النوع من الكتابات أما الموضوعية فهي متعلقة برغبتني الملحة في استجلاء طبيعة هذا النوع من الكتابات.
- إمطة اللثام عن الغامض وإضاءة الجوانب الباهتة العالقة بهذه الذات.
- محدودية الدراسات النقدية الجادة في مجال الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية.
- التوغل في آليات استيعاب الذات وطرائق اشتغالها داخل النصوص الروائية وكيفيات البحث عنها في ظل استثمار معطيات النصوص الأدبية.
- لفت الانتباه إلى بعض الأسماء المغمورة في الأدب الجزائري والتي شكلت بحضورها وتراكم نصوصها إضافة لهذا الأدب بشكل عام.
- ولقد وقع اختياري على مجموعة من الروايات المكتوبة بالفرنسية لتكون مجالا للبحث عن هذه الذات وأرضية لدراستها وتحليلها بناء على توفر هذه النصوص واحتواؤها على ثيمات موضوعنا بكل تنوعاته وأبعاده الذاتية والموضوعية، أضف إلى ذلك انتماءها للفترة الزمنية المحددة من أواخر الثمانينات حتى الألفين وثلاثة.

ولقد اخترت الفن الروائي ليكون أرضية لدراستي هذه، كونه بطبيعته من أقدر الأجناس الأدبية على احتواء واستيعاب الذات في حركاتها وتنوعات ظهورها لطول نفسه الزمني واختلاف أمكنته، وتنوع شخصياته وكذا باعتباره أكثر الأجناس الأدبية انفتاحا على هذه الذات.

كما أنني قيدت بحثي هذا بفترة زمنية محددة تمتد من أواخر الثمانينات إلى سنة ألفين وثلاثة مروراً بفترة التسعينات والتي سجلت حضوراً لافتاً للنصوص الروائية المكتوبة باللغة الفرنسية من أجل: التحكم في المادة العلمية، ضبط النصوص بشكل منهجي فعال من جهة، ومن جهة أخرى لأن هذه الفترة تعد فترة حاسمة في تاريخ الأدب الجزائري عموماً والرواية منه على وجه الخصوص، لأنها شهدت ظهور الكثير من الروايات الضائعة في يم البحث عن الذات وعن الوطن وعن الهوية.

ومما لاشك فيه أن أي موضوع له أهميته في موضعه ومجاله وتزداد تلك الأهمية إذا ما دعت إليه الضرورة، وأهمية موضوعنا تكمن في تلك الرؤية المتكاملة التي تسعى إلى بلورتها في ذهن قارئ الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، والذي سيلاحظ لا محالة ذلك الاضطراب الحاصل داخل ذات الكاتب من جهة وذات الشخصية الممثلة له من جهة أخرى، وهذا التفكير ينعكس على أكثر من صعيد، وتتجلى ملامحه في أكثر من صورة على مستوى الزمان والمكان والشخصيات واللغة... .

وكان الهدف من وراء هذا البحث رصد أهم القضايا التي أثارتها الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، التي على الرغم من اختلاف مواضيعها وتنوع السياقات التي ظهرت فيها، إلا أنها تشترك في كيفية عرضها لصورة الإنسان الجزائري وتعريفها لذاته وبيان حدود تواجدها الإنساني وعلاقتها بالآخر وكيفية تعاملها معه ومع العالم الخارجي في حركيته التاريخية والاجتماعية وتطوره الفكري وصراعه الثقافي والحضاري.

وقد سرت في عملي هذا معتمدة على المنهج السيوتقافي وهذا لم يمنعني من الاستفادة من باقي المناهج الأخرى كالمناهج الوصفية التحليلية وكذا المنهج التاريخي والمنهج النفسي كل بحسب حاجتي إليه.

ولقد اقتضت طبيعة الموضوع تقسيمه إلى أربعة فصول ومقدمة وخاتمة.

لقد جاء الفصل الأول تحت عنوان إضاءات حول الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية وتناولت فيه نشأتها وتطورها، وكذا تطرقت للحديث عن إشكالية الأدب المكتوب بالفرنسية بين مؤيد ومعارض، وتحدثت أيضا عن تيمة الثورة وحضورها المكثف في هذه الإبداعات.

كما تحدثت عن الرواية الجزائرية وإشكالية اللغة الموظفة في هذه الروايات.

أما الفصل الثاني فقد حمل عنوان الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية وتناولت فيه علاقة الذات بالآخر بعد التعريف بالمصطلحين الذات والآخر عرجت إلى بيان هذه العلاقة ورصدها من خلال الآخر الأجنبي وكذا الآخر الأهلي، هذا الأخير الذي قسمته إلى أهلي انتهازي وأهلي متطرف، بعدها أبحرت مع الذات في رحلة بحثها عن أنا من خلال الآخر وانتقلت في المبحث الرابع للحديث عن الأنتى وأزمتها بين سيطرة الآخر ومحاولتها لإثبات ذاتها.

في حين جاء الفصل الثالث تحت عنوان محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية والذي تمحور مبحثه الأول حول المثقف الغائب المغيب كونه عزل فضايق ذعرا بما يحدث فاختر الانسحاب ليغيب عن ميدان الإبداع، أما في المبحث الثاني فقد تمركز الحديث عن الوطن كقيمة مفقودة نظرا لما يحدث فيه وما آلت إليه حاله، مما جعل الذات ترثيه، بينما خصصت المبحث الثالث للحديث عن الهوية باعتبارها أزمة الذات المبدعة بلغة الآخر، أزمة تجلت في عملية البحث عن الهوية الضائعة وعن السبل الكفيلة بإيجادها ثم الحفاظ عليها وعلى ثوابتها.

وتحدثت في المبحث الرابع عن الإرهاب بوصفه عملية سحق للذات لما ارتكبه في حق هذه الذات من جرائم، وأنهيت الفصل بمبحث خامس ركزت فيه على العولمة التي عملت على تفتيت الذات وجعلها تتشظى وتتقسم فيضطرب تواجدتها الفعلي.

أما الفصل الرابع والذي جاء موسوما بغربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، تحدثت في مبحثه الأول عن مفهوم المصطلحين وأجريت مقارنة بينهما، في حين تحدثت في المبحث الثاني عن الاغتراب الزماني وذلك من خلال رصد الالتواءات الزمنية الاغترابية بين هروب من الحاضر وعودة إلى الماضي، أما المبحث الثالث فقد خصصته للحديث عن الاغتراب المكاني حيث تناولت فيه إحياءات المكان الاغترابية وذلك من خلال الأمكنة المفتوحة "كالشارع، المدينة...والأمكنة المغلقة التي كان البيت أحسن من يمثلها.

وتناولت في المبحث الرابع اغتراب اللغة مبرزة أزمة الذات في تعاملها مع لغة المستعمر وما خلفته من إحساس بالمرارة وكذا عملها على توسيع الهوية بين المبدع ولغته الأم، وعالجت في المبحث الخامس الاغتراب الاجتماعي بما ينطوي عليه من تعقيدات جلعت الفرد يغترب عن أسرته أولاً، ثم عن مجتمعه بعد أن اختلت موازين القوى فيه، وبعدها تحدثت عن اغترابه عن القيم النبيلة لهذا المجتمع مما فرض على الفرد عزلة وغربة قهرية اختيارية لصعوبة التأقلم مع هذا كله.

أما الخاتمة فقد وقفت فيها على أهم النتائج التي توصلت إليها بخصوص البحث عن الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية وطبيعة الصور التي تجلت في أثوابها داخل النصوص الروائية المدروسة.

وقد اعتمدت خلال رحلتي المنهجية على ست نصوص روائية صدرت في الفترة الممتدة من أواخر الثمانينات حتى ألفين وثلاثة، تأتي في مقدمتها "السيمرغ" لـ "محمد ديب"

و"تيميمون" لـ"رشيد بوجدره" ورواية "بما تحلم الذئاب؟" لياسمينه خضرة" ورواية "شرف القبيلة" لرشيد ميموني" ورواية "بعيدا عن المدينة لآسيا جبار"، و "الممنوعة" لمليكة مقدم.

كما أنني اعتمدت على مراجع متنوعة، اختلفت اتجاهاتها وتعددت مشاربها وأهدافها فكانت عربية أحيانا وأجنبية أحيانا أخرى، ومترجمة وغير مترجمة، أكاديمية وحرّة، وقد كنت حريصة على أن تتوزع مادتي العلمية بين الكتب والرسائل الجامعية، والمجلات والدوريات إيمانا مني بأن كل شيء يفرض مادة علمية تغاير المادة التي يفرضها الشكل الآخر فكانت محطاتي المرجعية متنوعة فجلست مع الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية -دراسة سسيونقدية لجبور أم الخير وكتاب الأدب الجزائري المكتوب باللسان الفرنسي لأحمد منور، وكتاب البحث عن الذات لحكيم مقران، الذات في السرد الروائي قراءة في 40 رواية لمحمد برادة رواية ما بعد الحداثة -دراسة في نص سيمورغ-لمحمد ديب لعزير نعمان.

ولقد اعترضتني في مسيرة بحثي هذا مجموعة من الصعوبات والعوائق التي لم تعترض سبيلي بقدر ما زادت في عزمي لإنجازه تأتي في مقدمتها إشكالية ترجمة النص الأصلي باللغة الفرنسية إلى اللغة العربية، وهذا ما جعلني أستعين بترجمات مختلفة لهذه المتون الروائية، إضافة إلى قلة المراجع العربية التي تناولت الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية وصعوبة الحصول عليها.

ومع هذه الصعوبات لم يكن أمامي سوى المضي قدما فأسفر جهدي المتواضع على هذا العمل الذي لا يدعي الكمال في نفسه وإنما حسبه أنه يبحث عن طريقه. وفي الختام لا يسعني إلا أن أتقدم بموفور الشكر والامتنان إلى أستاذي المشرف عباس بن يحي الذي تعهد هذا العمل بالرعاية منذ كان فكرة وشمله بالتوجيه وغمرني بحسن استقباله واهتمامه.

وفي الأخير أسأل الله التوفيق والسداد فإن أخطأت فمن نفسي وما قصدي ذلك وإن أصبت فمن الله وحده لا شريك له.

الفصل الأول

إضاءات حول الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

المبحث الأول: الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية

1-النشأة والتطور

2-الأدب الكولونيالي

المبحث الثاني: هوية الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية

1-القائلون بقومية الأدب

2-القائلون بأنه أدب فرنسي

3-القائلون بأنه أدب بلا هوية

المبحث الثالث: الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية وإشكالية اللغة

المبحث الرابع: الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية والثورة التحريرية

المبحث الأول: الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية

1-النشأة والتطور:

الأدب الجزائري باللغة الفرنسية وليد عدة عوامل، يأتي في مقدمتها الاستعمار الفرنسي الذي اتخذ من سياسة التجنيد دعامة أساسية لطمس معالم الهوية الجزائرية الإسلامية العربية، فقد جند كافة الوسائل وتوسل مختلف الطرق الكفيلة بتحقيق ذلك من بينها:

- منع تعليم اللغة العربية ومحاربة المدارس القرآنية والزوايا التي كانت تقوم بمهمة تعليم الجزائريين لغتهم ودينهم.
- تشجيع الحملات التبشيرية.
- إنشاء المدارس الفرنسية المختلطة في المدن، هذه الأخيرة ضمت الغالبية العظمى من الفرنسيين والأقلية من الجزائريين، وكان الهدف من وراء كل هذا تكريس اللغة الفرنسية باعتبارها لغة حضارة وثقافة، وكذا تكوين جيل جديد يتطلع إلى القيم المثالية، ويعتق الأفكار التي تشيد بفرنسية الجزائري، وحق فرنسا في حكم الشعب وامتلاك الأرض، وهو حق منحه لنفسها على اعتبار أنها الوريث الشرعي لخلافة الإمبراطوريات الرومانية التي طال مكوثها في شمال إفريقيا عامة والجزائر خاصة.
- إن الحديث عن الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، وعن الرواية بصفة خاصة كونها الجنس الأدبي الذي اتخذته الجزائريون أداة للتعبير عن آرائهم ومشاعرهم، يفضي إلى الإشارة إلى الإشكالية التي عانى منها هذا الأدب والمتعلقة بهويته وأصله.
- فاللغة التي كتب بها هذا الأدب هي التي جعلت البعض يعتقد أنه أدب فرنسي وهو الأمر الذي أوقع الخلط بين الروائيين الجزائريين ونظرائهم الأوروبيين ممن وولدوا في الجزائر، والذين جعلوا الجزائر موضوعا لإبداعاتهم من أمثال "ألبير كامو"، و"جون سيناك" و"إيمانويل روبلس" وغيرهم، حتى أن بعضهم «تناولوا مواضيع جزائرية أبدوا من خلالها

الفصل الأول ——— إضاءات حول الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

اهتماما أصيلا بمشاكل الجزائريين»¹، فالفرق بين الفئتين ظل واضحا، والمسافة الفاصلة بينهما بقيت شاسعة «فاستعمال لغة مشتركة وهي الفرنسية لم يوجد وحدة وتماثلا بين الكتاب الجزائريين والكتاب الفرنسيين، ولا يكمن هذا الاختلاف في الأساس أو الخلفية التعليمية التي تعتبر متماثلة غالبا بالنسبة لكلا الفئتين، بل يرجع لعوامل جغرافية واجتماعية وتاريخية تخضع لها كل منها، فالجزائريون هم الثمرة المباشرة لأرضهم (...) في حين أن الفئة الأخرى متعلقة بالأرض فقط»²، ولذلك كان لزاما علينا أن نحصر عبارة "الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية" في ذلك الأدب الذي كتب من طرف أدباء جزائريين يحملون في أعماقهم هموم الأمة الجزائرية، أما ما تكتبه الفئة الأخرى فهو أدب فرنسي كتب في الجزائر يعبر في أغلبه عن العقلية الاستعمارية الاستيطانية، ومن هنا فإن «الفرق يتمثل في الرؤية، فرؤية الكتاب الفرنسيين تختلف تماما عن رؤية الكتاب الجزائريين ذوي اللسان الفرنسي»³، ويمكن عد هذا نقطة اختلاف وفرق بين الفئتين.

كما يجب الإشارة إلى أن الثقافة الفرنسية للأغلبية الساحقة من الروائيين الذين يكتبون بالفرنسية لا تعني أبدا أن توجههم فرنسي، وخاصة إذا علمنا أن تلك الثقافة كانت مفروضة عليهم فرضا، لإتقانهم لها ويصدق هذا الطرح على الرعيل الأول من الروائيين الجزائريين خاصة، الذين عاشوا في ظل الاستعمار وتعلموا في مدارسهم، وكان إتقانهم للغة العربية شبه منعدم، ما حرمهم فرصة الاطلاع على الكتب التي ترسخ الطابع العربي الإسلامي للأمة الجزائرية، وهذا لا يعني جهلهم التام لهذين الطابعين.

أما الجيل الثاني والثالث، فعلى الرغم من استعمالهم للغة نفسها التي استعملها الجيل الأول، إلا أن الوضع مختلف، وذلك بدليل أن بعض الأدباء من الجيلين اللاحقين يكتب

¹ - عيادة بامية أديب: تطور الأدب القصصي في الجزائر (1925-1967م)، تر: محمد صقر، الديوان الوطني للطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط، 1962م، ص53.

² - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

³ - عبد الله ركيبي: القصة الجزائرية القصيرة، دار الكتاب العربي، الجزائر، د.ط، 2009م، ص211.

الفصل الأول ——— إضاءات حول الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

باللغتين نظرا لازدواج المورد؛ «أي أن الترسخ الأولي للبنية الثقافية كان تشخيصا مزدوجا»¹، فاستقرار بعضهم في فرنسا بعيدا عن الوطن شكل أيضا سببا هاما من أسباب اكتسابهم للثقافة الفرنسية، بينما ظلت روحهم جزائرية، وقد أشاد بعضهم بهذه الازدواجية «فعندما تندمج الروح الشرقية للجزائر بالثقافة الفرنسية التي يستخدمها الكتاب الجزائريون تكون النتيجة أدبا أصيلا؛ فالأدب الجزائري مع ماله من خصائص عربية عديدة تميزه يختلف عن الأقطار العربية، بحيث لم يكن للاستعمار تأثير مشابه على التعليم والثقافة...»²، بل ويميز الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية عن نظيره المكتوب بالعربية.

فنشوء الرواية عند الغرب يعود إلى عدة قرون سابقة، وهي في تطور مستمر، واكتمل نضجها الفني في القرن العشرين خاصة في فرنسا، وهذا ما يجعلنا نجزم بأن الفرنسيين كانوا يتقنون هذا الفن وقت احتلالهم للجزائر، لذا يمكن اعتبار بعض الجزائريين خاصة أولئك المتصلين بالفرنسيين كانوا على دراية بهذا الفن، غير أن السياسة الاستعمارية آنذاك لم تسمح لهم بالتعبير عن آرائهم أضف إلى ذلك الظروف الاجتماعية والاقتصادية القاهرة التي عاني منها الجزائريون مع ما رافقها من انحطاط ثقافي بفعل الانتشار الواسع للجهل والامية في أوساط الشعب، كل هذه الأسباب أخرت ظهور أي إنتاج روائي جزائري سنوات عديدة إلى غاية عشرينيات القرن العشرين لتشهد بعض الحراك الأدبي، وقد مر الأدب الجزائري في نشأته بمراحل نذكرها:

¹ - بوبكر بوسكين: حوار مع واسيني الأعرج، مجلة الموقف الأدبي (شهرية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب)، السنة الخامسة والثلاثون، العدد 434، دمشق، سوريا، حزيران 2007م، ص 160.

² - حفناوي بعلي: أثر الأدب الأمريكي في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، د.ط، 2004م، ص 156.

2- الأدب الكولونيالي:

كان وليد المدارس المختلطة في الجزائر مجموعة من المثقفين الجزائريين الذين امتلكوا نظرة واسعة للعالم فأدركوا حقيقة ما يحدث في بلادهم، فاتخذوا من اللغة الفرنسية - التي أجبروا على تعلمها لتكون بديلا عن لغتهم الأم وتعزز انتمائهم لفرنسا - وسيلة للدفاع عن حقوق شعبهم وتحصيل حريتهم، من خلال كتابات قصصية تحاكي الواقع وتفضح زيف الإدارة الفرنسية، حيث تعود الجذور الأولى له إلى سنة 1891م، بمحاولة كتبها القاص محمد بن رحال (1856-1928م)¹ تحت عنوان «انتقام الشيخ La vengeance du cheik»²، وقد كانت هذه الأقصوصة عبارة عن محاولة متواضعة جزائري حاول الاهتمام بوضعية شعبه، في ظل الاستعمار، وهي «مستقاة - حسب ما يذكر "ديجو" - من التقاليد الاجتماعية الجزائرية»³ غير أنه ونظرا «لأهميتها نشرت هذه القصة في المجلة الجزائرية التونسية الأدبية والفنية في العدد الثالث يوم 26 سبتمبر - 03 أكتوبر 1981م»⁴.

وظل الوضع على حاله وظلت الجزائر تعيش حالة من الركود والخمول الثقافي المبرر، إلى أن جاءت سنة 1912م مع أحمد بوري، الذي كانت له محاولة جديرة بالاهتمام مجموعة قصصية جمعت في كتاب بعنوان "مسلمون ومسيحيون"، غير أن هذه المحاولات تبقى متواضعة.

أ- الأدب الكولونيالي الاندماجي:

كانت البدايات الأولى للأدب الجزائري باللسان الفرنسي عبارة عن محاولات لمجموعة من الأدباء أطلق عليهم اسم المتطورين أو النخبة "les évolués" والذين «اقتنعوا أيما اقتناع

1 - أحمد منور: الأدب الجزائري باللسان الفرنسي نشأته وتطوره وقضاياه، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط، 2007م، ص 87.

2 - أم الخير جبور: الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية دراسة سيبيونقدية، دار ميم، الجزائر، ط1، 2013م، ص 36.

3 - أحمد منور: الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، ص 37.

4 - أم الخير جبور: الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، ص 36.

الفصل الأول ——— إضاءات حول الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

بأن فرنسا قد نجحت في مهمتها الحضارية في الجزائر، إذ كان لابد من إظهار شيء ما أمام الرأي العام العالمي والفرنسي، يبرر استمرار احتلال البلاد»¹ وكأنهم يريدون من وراء ذلك أن يثبتوا بأن فرنسا أرادت أن تخلص الجزائريين من الجهل والتخلف، لذا جاءت جل أعمالهم داعية إلى المزوجة بين الجزائريين والفرنسيين، وتصوير العلاقة بينهما على أنها علاقة حميمية تبعث على التآلف والانسجام، وقد كانت هذه الأعمال في مجملها تمجيد لفرنسا لا تنظر لها على أنها دولة استعمارية بقدر ما تعتبرها دولة لها الفضل في تحضر الجزائريين، لهذا «فإنهم كانوا يشيدون صراحة وبلا تحفظ بفضل الاستعمار على البلد ويظهرون إعجابهم بالثقافة والحضارة الفرنسيتين»²، كلما أتيحت لهم الفرصة.

وقد امتد هذا التوجه في الكتابة إلى غاية سنة 1948م وهذه المرحلة يطلق عليها مرحلة المثاقفة والتقليد، حيث كان الكتاب الجزائريون يظهرون نوعا من التسامح والتآخي مع نظرائهم الفرنسيين، كما «كان المؤلفون الجزائريون يريدون أن يبرهنوا للمستعمر أنهم تلاميذ نجباء ومقتدرون»³، يتمكنهم من لغة المستعمر.

وما تجدر الإشارة إليه أن كتابات تلك الفترة لم تكن أغلبها مناهضة للاستعمار، وهذا ما ذهب إليه "يوسف الأطرش"، حيث يقول في هذه القضية: «لقد كان كتاب مرحلة ما قبل الخمسينيات يكتبون بالفرنسية إرضاء لفرنسا، وللفرنسية، وليس للتعبير عن واقعهم وواقع شعبيهم المضطهد»⁴، بل هناك من ذهب أبعد من ذلك، حيث أن فرحات عباس راح ينفي وجود أمة جزائرية قال في أحد تصريحاته «لقد سألت الأحياء والأموات، وبحثت في المقابر،

¹ - سامية إدريس: الرواية الجزائرية الحديثة بين الهوية الثقافية والهوية السردية، المجلس الأعلى للغة العربية، أعمال اليوم الدراسي (الرواية بين ضفي المتوسط)، الجزائر، 2011م، ص15.

² - أحمد منور: الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، ص95.

³ - Jean Déjeux: *Situation de la littérature Maghrébine de langue française, éd office des publication Universitaires, Alger, 1982, p29.*

⁴ - يوسف الأطرش: المنظور الروائي عند محمد ديب، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، الجزائر، د.ط، 2004م، ص41.

الفصل الأول ——— إضاءات حول الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

وتصفحت التاريخ وراجعت القرآن، ولم أر هناك مانعا يمنع مسلما من الاندماج في أمة غير أمة مسلمة... ولن أموت من أجل الأمة الجزائرية، لأنها غير موجودة»¹.
ومع حلول سنة 1948م بدأت التساؤلات تطرح حول إمكانية اندماج الجزائريين مع الفرنسيين، هذه الفكرة التي نادى بها عدد قليل من الجزائريين، لذلك سميت المرحلة بمرحلة التحول في الكتابة بالنسبة للنخبة الجزائرية.

يعتبر مؤرخ الأدب الجزائري باللغة الفرنسية "جون ديجو Jean Déjeux" «سنة 1920م البداية الفعلية لهذا الأدب، وذلك تزامنا مع صدور أول رواية بعنوان "أحمد بن مصطفى القومي" لصاحبها القايد بن الشريف»²، وتلتها روايات أخرى منها "زهرة زوجة المنجي التي كتبها "عبد القادر الحاج حمو" سنة 1925م، ولعل السؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا احتاج الأدب الجزائري كل هذا الوقت للظهور والتموضع على الساحة الأدبية، والجواب موجود بالرجوع إلى السنة التي سبقت صدور أول رواية، وهو انتهاء الحرب العالمية الأولى وإعلان مبادئ "ولسن" التي أعقبها انفراج نسبي في تعاملات الإدارة الفرنسية مع الجزائريين وذلك تطبيقا لقوانين 04 فيفري 1919م والتي ألغت معظم مواد قانون الأنديجانا العنصري.

وقد اعتبرت الإدارة الفرنسية ذلك مكسبا مستحقا للجزائريين الذين حاربوا إلى جانبها إبان الحرب العالمية الأولى وكذا الذين ساهموا في تشغيل المصانع الفرنسية خلال فترة الحرب، فنتج عن كل هذا حصول الجزائريين ولأول مرة منذ تاريخ الاحتلال على حق إنشاء الأحزاب السياسية والمشاركة في الانتخابات، وإصدار الصحف، مكاسب اختارت فرنسا زمن منحها للجزائريين بعناية وذلك استعدادا لاحتفالها بالذكرى المئوية لاحتلال الجزائر التي تصادف سنة 1930م، وهي الذكرى التي كانت ترمي من خلالها إلى رسم صورة الجزائر الفرنسية المتحضرة موهمة الشعب بأنه يجني الثمار الطيبة لاحتلال فرنسا لبلاده، والتي

¹ - عبد الوهاب بن خليف: تاريخ الحركة الوطنية من الاحتلال إلى الاستقلال، دار طليطلة، الجزائر، ط1، 2009م، ص147.

² - ينظر أحمد منور: الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، ص74.

الفصل الأول ————— إضاءات حول الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

كانت في حقيقتها مكاسب رمزية وحرّيات واهية الهدف منها تبرير عمليات الاغتصاب المستمر لكل ما هو جزائري، غير أن انتعاش الحركة الأدبية كانت من أبرز نتائجها وهي الحسنة الوحيدة لها.

فبالإضافة إلى روايتي "القايد بن الشريف" و"عبد القادر حمو" المذكورتين سابقا، نذكر رواية "مأمون بدايات مثل أعلى Mamoun l'ébauche d'un idéal لـ"شكري خوجة" الصادرة سنة 1928م ورواية "العلاج أسير بربروسيا" "El Euldj, Captif des Barbaresques" سنة 1929م للمؤلف نفسه.

يضيف الباحثون والنقاد صفة الخضوع على كتابات هذه الفترة، بمعنى أنهم كانوا ضحية للإدارة الفرنسية وذلك بدا جليا من خلال كتاباتهم وذلك راجع إلى تشبعهم بالثقافة الفرنسية وشعورهم بالامتنان الكبير تجاه فرنسا، فراحوا يكتبون لجزائر فرنسية تنعم بالسلام ومثالنا في ذلك رواية "بولنوار، الجزائري الشاب "Bou-El-nouar, le jeune Algérienne" لصاحبها "رابح زناتي" الذي كتب أن: «من حظ كل الجزائريين أن تكون الدولة الأكبر والأكثر حضارة هي المعلمة فمعها تمكن الجزائري من أن يخطوا خطوات عملاقة»¹، ويحذو حذوه شكري خوجة عندما يتساءل مأمون البطل قائلا: «تملك فرنسا حقوقا علي، وأنا أشعر برغبة غامضة أن أقدم شيئا يفيدها...وأنا العربي لي هدف، وهذا رائع أن أجده، هي فكرة الوطن التي بدأت تتفتح بداخلي»²، وهو مقطع يوضح اقتناع بعض الجزائريين بفكرة الاندماج .

على الرغم من كون هذه الروايات لم تتصد للواقع المرير الذي عايشه الجزائريون، إلا أنها تمكنت من تسليط الضوء على «بعض الآثار السلبية التي انتشرت في المجتمع نتيجة الاحتكاك بالثقافة الدخيلة منها الإدمان على الخمر، لعب القمار، الظاهرتان اللتان

¹ - أم الخير جبور: الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، ص37.

² - المرجع نفسه، ص38.

الفصل الأول ——— إضاءات حول الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

عاجتتهما تبعا روايتي "زهرة امرأة المنجمي Zahra, la femme du mineur" ورواية "مأمون بدايات مثل أعلى Maamoun l'ébauche d'un idéal".¹

أما الروايات التي صدرت لاحقا فقد اهتمت بتصوير انتماء الجزائريين الذي شتتهم الاستعمار بين قيم الوطن (العروبة، الإسلام، الأمازيغية) من جهة، والقيم الفرنسية الدخيلة التي فرضتها عليهم من جهة أخرى، ومن بين هذه الروايات نذكر «مريم بين النخيل Myriem dans les palmes سنة 1934م لمؤلفها محمد ولد الشيخ، "بولنوار"، الجزائري الشاب leila jeune fille "Bou-EI nour, le jeune algérien" لرابح زناتي وكذا رواية "ليلي فتاة جزائرية d'Algérie" لجميلة دباش»²، كلها روايات تدور في فلك البحث عن الذات، وتتأرجح شخصياتها بين كون المرء جزائريا وما يوازيه من انتماء، وكونه تابعا للإدارة الفرنسية وما ينجر عنه من التزامات.

وقد تمظهر البحث عن الذات في الرواية من خلال ما دعت إليه القوى السياسية التي واكبت تلك الفترة ونذكر منها شخصية "فرحات عباس" السياسي الذي مثل الاتجاه الاندماجي ونادى بالمساواة في الحقوق والواجبات بين الجزائريين والفرنسيين الذين طالما اصطدموا بالهوة العميقة التي فصلت بين الثقافتين، والنظرة المتبادلة التي لم تتغير، فقد نظر الجزائري للفرنسي نظرة الغربي الأجنبي، ونظر الفرنسي بدوره له نظرة احتقار ودونية، ومن الأدباء الذين ساندوا فكرة الاندماج والتعايش بين الأهالي والأوربيين، مولود فرعون من خلال روايته "ابن الفقير" التي كانت إلى السيرة الذاتية أقرب منها إلى الرواية وذلك من خلال تصويره لواقع الإنسان في بلاد القبائل، وكيف يمكن للاحتكاك بالأوروبي أن يغير حياته سواء كان الاحتكاك عن طريق الهجرة إلى فرنسا أو الاختلاط بهم في المعاهد ودور التعليم.

1 - أحمد منور: الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، ص98.

2 - المرجع نفسه، الصفة نفسها.

الفصل الأول ——— إضاءات حول الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

تلك هي السمات الغالبة على الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية منذ البدايات والتي ما لبث أن اعتراها التغيير تماشياً مع ما فرضته الأحداث العالمية كانهاء الحرب العالمية ومجازر 08 ماي 1945م التي تمكنت من تغيير قناعات صناع الرواية وتوجيه دفتها نحو كتابة ذات شكل مغاير.

ب-الأدب الكولونيالي الثوري:

تأثرت الجزائر بما تمخضت عنه مجريات الحرب العالمية الثانية باعتبارها مستعمرة لإحدى الدول التي دارت رحى الحرب على جزء من أراضيها وشاركت فيها بقواتها حتى خارج حدود أراضيها، وقياساً على كون الأدب مرآة الحس النفسي والشعور بالحاجة إلى الانعتاق وإمكانية تحقيق ذلك فيقول: «خلال الحرب العالمية الثانية حدثت أشياء شاركنا فيها نحن الجزائريين فشعرنا على إثرها بتهيب وإبتهاج أي خروجنا من المأزق ممكن، وخرجنا من ذلك المأزق بالكتابة قبل أن نخرج منه في الواقع»¹، أي الكتابة ساهمت في عملية التحرير. لقد زرع التوجه الروائي الجديد الذي قاده "محمد ديب" الدهشة في الأوساط الفرنسية التي اعتبرت أن التلميذ تعلم الدرس جيداً وفهمه وهو الآن ينتفض ضد معلمه، فقد اتخذ ديب من الفرنسية التي أرادها أن تكون بديلاً له عن لغته سلاحاً، يميّط به اللثام عن حقيقة فرنسا كاشفاً «به عن زيف ادعاءاتها أمام العالم، مجسداً حقيقة الظلم والعدوان الذي يتعرض له الشعب الجزائري، وبهذا سمي هذا التيار بأدب المقاومة»²، مما جلب له استنكار اليمينيين واحتفاء اليساريين واعتبروه تأصيلاً واضحاً للغة الفرنسية، حتى أضحت صوت الشعب ومنقذه.

وقد تجلّى ذلك من خلال قيام دور النشر الفرنسية بإصدار هذه الروايات وتبنيها أدبياً وثقافياً، حتى حصلت على أعلى نسبة قراءة من قبل المثقفين الفرنسيين في تلك الحقبة

1 - عائدة أديب بامية: تطور الأدب القصصي الجزائري، ص25.

2 - ينظر: عبد المجيد حنون: صورة الفرنسي في الرواية المغاربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ط، 1986م، ص99.

الفصل الأول ——— إضاءات حول الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

لتحذو العديد من الروايات حذوها نذكر منها رواية "نوم العادل" "La Sommeil du Juste" لمؤلفها "مولود معمري" الصادرة سنة 1955م والتي ينقل لنا فيها حالة البؤس والحرمان التي عاشتها القرى والمداشر القبائلية، ورواية "نجمة Nedjma" لمؤلفها "كاتب ياسين" الصادرة سنة 1956م والتي تناول فيها الروائي كافة مظاهر الاستغلال والظلم الذي مارسه المعمرون على أبناء الأرض الجزائرية، أضف إلى ذلك تصويره لمذابح الثامن ماي 1945م التي قمع فيها المستعمر المتظاهرين من أجل نيل الحرية والعدالة بوحشية واعتبرت نوعا من الكتابة التي تسبق الثورات وتخطط لها.

قدمت هذه الروايات صورة واضحة للوضع الذي آلت إليه الجزائر في تلك الحقبة وأعطت مفهوما جديدا للدفاع عن الحرية المنتزعة، والذي جرى في ساحات المعارك التي شملت كل مناطق الوطن، ولم يتوان الكتاب عن مواكبة الحدث من خلال تصوير وقائع الثورة المسلحة مع تقديم نماذج من صور المقاومة الشعبية التي كان أبطالها من أبناء الجزائر وكذا خلدت تضحيات الشعب وكشفت عن أبشع صور التعذيب والاعتقال والقتل والتهجير التي تعرض لها، من «ذلك رواية "الانطباع الأخير" "La Dernière Impression" الصادرة سنة 1958م وكذا "التلميذ والدرس" "L'élève et le cor" الصادر عام 1960م و"رصيف الأزهار لا يجيب" "Le Quai aux Fleurs ne Réponds Plus" الصادرة سنة 1961م وكلها لمؤلفها مالك حداد، ورواية "صيف إفريقي" "Un été Africain" لمحمد ديب الصادرة عام 1959م»¹.

ج-رواية ما بعد الاستقلال (رواية ما بعد الكولونيالية):

لم يكن الاستقلال نهاية للأدب النضالي، فالأدب يتلون بحسب حالات السلم والحرب فلم تتمكن الأعمال الأدبية المنتجة في هذه الفترة من التخلص من الحديث عن الثورة، فقد ظلت الروايات تعالج الثورة وقضاياها وتصور مآسيها وتؤرخ لفترة زمنية حرجة غيرت ملامح الشعب الجزائري للأبد، وقد وصف هذا الاتجاه بانحيازه للثورة وتأثره بها، ونذكر من هذه

¹ - سامية إدريس: الرواية الجزائرية الحديثة بين الهوية الثقافية والهوية السردية، ص 117.

الفصل الأول ——— إضاءات حول الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

الروايات التي صدرت في «فترة الستينيات رواية "أطفال العالم الجديد Les Enfants du Nouveau Monde" الصادرة عام 1962م للروائية آسيا جبار ورواية "الأفيون العصا L'Opium et le Bâton" 1965م لمولد معمري»¹ ورواية «"أصابع النهار Les Cinq Doigts du jour" 1967م لـ"حسين بوزاهر" وأيضا رواية "أسلاك الحياة الشائكة Les Barbelés de L'existence"»² 1962م لصالح فلاح وقد ساهمت هذه الروايات في تعميق الشعور بالوعي الوطني والإشادة بأمجاد الثورة وتضحيات الشعب.

ولعل أهم ما ميز فترة بداية الستينيات غياب مالك حداد عن الساحة الأدبية غيابا أراد به أن ينأى بنفسه عن تيار الكتابة باللغة الفرنسية التي استعان بها لمحاربة المستعمر ولم يعد هذا السبب قائما بعد أن نالت الجزائر استقلالها وكان اختيار الكتاب الجزائريين العيش خارج الجزائر بعد سنة 1965م التي شهدت الانقلاب العسكري الذي قاده "هواري بومدين" على نظام الرئيس "بن بلة"، بحجة عدم توفر المناخ الديمقراطي للتعبير بحرية عن آرائهم. وقد عرف أدب هذه الفترة المنشور في فرنسا "بأدب النزعة الاحتجاجية والسياسية" حيث نددوا بتحول الحكم على يد العسكر عن أهداف الثورة ومسارها النضالي «وانتقدوا الأوضاع الاجتماعية السيئة التي يعيشها الشعب ونذكر من بين هذه الروايات روايتي "رقصة الملك La danse du Roi" 1968م و"إله أرض البربر Dieu en Barbarie" 1970م لمحمد ديب وروايتي "التطليق La Répudiation" 1969م و"ضربة حظ L'insolation" 1970م لـ"رشيد بوجدره" وقد سعى هذا الأدب إلى توجيه الجماهير إلى واقع أدبي أفضل لمسايرة الثورة الاشتراكية»³ من أجل إنقاذ الأمة من كل ما ورثته عن الاستعمار من تخلف وجهل وبؤس.

وقد استمر هذا التوجه طيلة فترة نهاية الستينيات والسبعينيات حمل فيه الأدباء مسؤولية رصد مخلفات الحقبة الاستعمارية التي انعكست سلبا على المجتمع، «وانتقاد

¹ - سامية إدريس: الرواية الجزائرية الحديثة بين الهوية الثقافية والهوية السردية، ص 117.

² - ينظر: أحمد منور: الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، ص 111.

³ - المرجع نفسه، ص 121.

الفصل الأول ——— إضاءات حول الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

الأوضاع الاجتماعية القاسية التي يتخبط فيها الفرد الجزائري، لتظهر موضوعات أخرى تجسدت من خلالها شخصيات روائية تعاني أزمة الانتماء من خلال روايات "ذاكرة الغائب" *Mémoire de L'absent* 1974 م ورواية "المنفى والحيرة" *LEXIL et le Désarroi* لنبيل فارس أو لمعالجة قضية الهوية الأمازيغية من خلال رواية الطاهر جاووت "الباحثون عن العظام" *Les chercheurs d'os* 1984 م ورواية "العبور" *la traversée* 1982 م لـ "مولود معمري"¹.

ويجب عدم إغفال تلك الروايات التي ظلت على نسقها الأول، فقد شهدت سنة 1948 م صدور روايتين الأولى بعنوان: "إدريس" *Idriss* لعللي الحمامي والثانية بعنوان "لبيك اللهم ما لبيك حج الفقراء" *Le bbeik* لمالك بن نبي، وعند الرجوع إلى الخلفية الفكرية لكل منهما، نجد أن "الحمامي" كان أحد الكتاب الذين عرفوا بنضالهم الطويل ضد الاستعمار، أما "مالك بن نبي" فهو مفكر إسلامي أخذ على عاتقه مهمة الإصلاح والإرشاد ونقد الآفات التي انتشرت داخل المجتمع الجزائري مع تقديم الحلول لها، ولعل أبرز ما دعا إليه بن نبي هي العودة إلى القيم الأخلاقية الأصيلة والتشبث بالعقيدة الإسلامية السمحاء من أجل التحرر.

شكلت هذه الروايات الدعامية الأساسية لاتجاه جديد شق طريقه داخل الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، فقد لوحظ تطور في نوعية المضامين التي حملتها الروايات، هذه الأخيرة التي حملت مسؤولية تصوير الواقع البائس والحرمان الذي يعيشه الجزائري وتسلط الضوء على الوجه الحقيقي للاستعمار الفرنسي، ولعل من بين أهم الروايات التي شكلت منعطفًا حاسمًا في تاريخ الرواية الجزائرية التي تجاوزت الصورة النمطية المقدمة سابقًا عن العلاقة المثالية بين الإدارة الاستعمارية والأهالي لتغوص في واقع الشعب الذي كابد القهر لفترة طويلة منها «رواية "الدار الكبيرة" *La Grande Maison* لمحمد ديب سنة 1952 م التي قام فيها بوصف ما يعيشه الشعب تحت وطأة الاستعمار من بؤس وجوع، وكشف النقاب عن فئة جديدة تعرف بالمناضلين الذين يعيشون بين أفراد الطبقات الدنيا من الشعب وينشطون في

¹ - ينظر: أحمد منور: الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، ص 121 - 123.

الفصل الأول ——— إضاءات حول الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

الخفاء، والحال ذاته بالنسبة لما جاء بعدها من روايات لنفس الكاتب خاصة روايتي "الحريق L'incendie" الصادرة سنة 1954م و"النول" le métier à tisser التي صدرت عام 1957م¹ وهما امتداد للأولى في كونهما يعبران عن معاناة فئات أخرى من الشعب مثل العمال الحرفيين داخل المدن والفلاحين المستعبدين من طرف المعمرين في الأرياف، إذن مهما اختلفت المهن والأماكن إلا أن الوضع المزري طال الكل دون استثناء.

أما الروايات التي صدرت في فترة السبعينات والثمانينات فمنها من لم تبرح موضوع الثورة والتحرر، ومنها من حملت على عاتقها تسليط الضوء على الأوضاع السياسية والاجتماعية بغرض تحسين الواقع المعيشي ورصد نبض الشارع، بالإضافة إلى موضوع السيرة الذاتية الذي ظل حاضرا على الدوام في الروايات الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية.

د- الأدب الاستعجالي: رواية الأزمة المكتوبة باللغة الفرنسية

الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية الصادرة أواخر السبعينات والثمانينات من القرن الماضي تحملت مسؤولية محاربة الظواهر التي شوهت المجتمع حينها مثل الانتهازية الرشوة، الجهوية وغيرها وطغت عليها مسحة أيديولوجية دافع فيها كل روائي عن توجهاته ومبادئه وآرائه، أما في فترة التسعينات فقد طغى الخطاب السياسي على أغلب الإبداعات الروائية، لتتحول الرواية إلى ساحة تتصارع فيها مختلف التيارات التي ظهر تأثيرها جليا على فئات المجتمع وقد جسدت الأوضاع التي آلت إليها الجزائر.

ففي الخامس من شهر أكتوبر من سنة 1988م تظاهر الجزائريون تنديدا بظروف العيش المتدنية والبطالة واللامساواة التي رسختها سياسة الحزب الواحد وتسببت في الأزمة المالية العالمية التي أضرت باقتصاد دول العالم في تلك الحقبة، حيث طالب المتظاهرون بتحسين الأوضاع المعيشية ودفع عجلة التنمية إلى الأمام ورفعوا شعارات تطالب بالتغيير وهو الأمر الذي تحقق مع صدور دستور 23 فيفري 1988م الذي فتح المجال للتعددية

¹ - ينظر: سامية إدريس: الرواية الجزائرية بين الهوية الثقافية والهوية السردية، ص117.

الفصل الأول ——— إضاءات حول الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

الحزبية السياسية بعدما اهتزت المشروعية التاريخية للحزب الحاكم نتيجة اتساع الهوة بين السلطة والمجتمع وعجزها عن تلبية متطلباته، فنظمت على إثرها انتخابات المجالس الشعبية التي اكتسحتها الأحزاب المحسوبة على التيار الإسلامي وواصلت هذه الأخيرة صعودها إلى أن حصدت أعلى نسبة في الانتخابات التشريعية، انتخابات فازت بها تلك الأحزاب غير أنه تم إلغائها، ليتصاعد المد الإسلامي محاولا استعادة مكانته المسلوقة مدفوعا برغبة جامحة في الانتقام من السلطات التي كبحت زحفه نحو الحكم.

فساد جو من العصيان المدني وعمت الاضطرابات كامل أرجاء الوطن وفي صيف 1991م أعلنت على إثرها الدولة حالة الطوارئ التي أخضعت البلاد للحكم العسكري وسقطت الحكومة الثانية التي تأسست سنة 1988م ليستقيل بعدها الرئيس في شهر جانفي 1992م ويغتال من ناب عنه وهو رئيس المجلس الأعلى للدولة "محمد بوضياف" في جوان 1992م، أحداث حولت العنف السياسي إلى عنف دموي استمر عشرية كاملة.

ويأتي في مقدمة الأعمال الإبداعية الروائية التي واكبت الأحداث وصورت الواقع روايات "رشيد ميموني" الذي توفي إثر إصابته بمرض السرطان، والذي نبش قبره وأخرجت رفاته "شرف القبيلة" L'honneur de la tribu " 1989م ورواية "حزام السفلة la ceinture de l'oagrese" 1990م ورواية "حزن العيش" une Périssol à vivre " سنة 1993م التي صورت اعتصام الإسلاميين في ساحة أول ماي سنة 1991م واستلائهم على قسم الاستعجالات في "مصطفى باشا" بعد مواجهات مع قوات الأمن، ولعل هذا هو السبب الذي جعل هذه الروايات وأخرى تحمل اسم رواية الأزمة أو رواية المحنة أو الأدب الاستعجالي بشكل عام.

ولعل السبب الرئيسي في هذه التسمية للروايات التي عالجت محنة الوطن وصورت العراك السياسي والقتال الدموي الذي عرفته مرحلة التسعينات هو أن الكثير من الروائيين سقط في نوع من التسرع والتسجيلية وانساقوا وراء الأحداث الموهلة والمتسارعة، فجاءت أعمالهم أقرب إلى التصوير الفوتوغرافي والتحقيقات الصحفية منها إلى الكتابة الفنية الراقية

الفصل الأول ——— إضاءات حول الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

وسميت برواية الأزمة لأنها عكست الواقع المتأزم وعاشت الأزمة التي مرت بها البلاد على مدى عشرية كاملة، كما أنها شخصت منابع الداء ووصفت الأهوال التي عصفت بالشعب وزعزعت أمن الدولة واستقرارها، فكان هذا الأدب صوت الشارع الذي غرق في برك الدماء كتبته المثقف لينقل معاناة من لا تسمع أصواتهم، ليستهدف هو من طرف الجماعات المسلحة التي أثبت إلا أن تحصد أرواح الجزائريين.

غير أنه لا يمكن أن ننكر أنه كان ثمة العديد من الروائيين الذين تمكنوا من إنتاج نصوص روائية تحمل تجربة عميقة ولصيقة بالفاجعة التي ألمت بالوطن، وعالجت موضوعات مهمة ومعقدة مثل الحياة والموت والانتماء والوطنية، وقد اختلفت معالجتهم لتلك القضايا بحسب قناعاتهم، كما أنهم أرخوا لإنسان جديد يختلف عن الناصر المناضل خلال ثورة التحرير أو العامل المقهور لدى المستعمر أو الفلاح الجزائري أيام الثورة الزراعية أو حتى المناضل الحزبي أيام الحراك الاشتراكي، إنه إنسان جديد يقف في مواجهة تناقضاته ذا وعي متنامي تمكنه من الإجابة على الأسئلة المرتبطة بالوجود والحياة قياسا بحجم الزمن زمن المحنة المعاشة.

تمتد الرواية عبر الزمن لتستوفي قصصها، محولة التجارب الواقعية إلى تجارب إبداعية يمتزج فيها الخيال والفنية، غير أن ما حدث في الجزائر خلال العشرية السوداء لم يكن ليغري الكتاب بالكتابة بقدر ما كان يجبرهم عليها، لأنها أصبحت الملاذ الآمن والوحيد لهم ليعبروا عن آلامهم وآلام مجتمعاتهم، محاولين البحث عن الحقيقة وفهم الواقع وفق رؤى متعددة وصلت في بعض الأحيان حد التناقض، واهتمام الرواية التسعينية إن جاز القول بهوموم المجتمع والأهوال التي تنهكه دليل قاطع على وحدة التجربة.

الرواية السوداء أو الرواية الصحفية «هذه التسمية التي وردت من فرنسا، أين كان الاهتمام برواية المحنة الجزائرية المكتوبة بالفرنسية خاصة سلسلة روايات "ياسمينه

الفصل الأول ——— إضاءات حول الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

خضرة"¹، فقد جاءت معبرة عن الأزمة بكل أبعادها من خلال فعل المواكبة للأحداث الذي اتصفت به أعمال الروائية.

¹ - زهرة ديك: ياسمينة خضرة "هكذا تكلم"، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ط1، 2013م، ص111.

المبحث الثاني: هوية الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية

إن موطن الخلاف الذي بقي قائماً إلى اليوم هو حول نسبة هذا الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، وهويته، هل ننسبه إلى الأدب الجزائري؟ أم نعتبره من الأدب الفرنسي؟ أم هو بين هذا وذاك؟ أم هو لا من هذا ولا من ذاك؟ تلك هي أسئلة موضوعية حاولت الإجابة عليها في هذا المبحث.

1- القائلون بقومية الأدب:

إن أصحاب هذا الرأي يرون أن عامل اللغة لا يمكن أن يعتمد كمعيار لتحديد هوية النص، فما دام النص الروائي يعبر بصدق عن واقع المجتمع الجزائري، ويصور بإخلاص حالة هذا المجتمع في ظل الاستعمار الفرنسي، كما فعل محمد ديب في ثلاثيته؛ حيث صور حالة البؤس والحرمان التي يعيشها سكان دار سبيطار، وسكان جبل "بني بويلان"، كما صور حالة العمال المناضلين الذين يقودهم حميد سراج لتحقيق المطالب المشروعة للشعب الجزائري، وكما يصور ثقافة هذا البلد وتقاليده التي تختلف تماماً عن ثقافة فرنسا الاستعمارية وعادات شعبها وتقاليده، مثلما فعل مولود فرعون في "ابن الفقير"، ومولود معمري في "الريوة المنسية"، وغيرهما. ما دام الأمر كذلك فهو أدب جزائري.

إذن فالأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية إذا نظرنا إليه من زاوية المضمون فإننا نجده مرتبطاً ارتباطاً كلياً بتاريخ الجزائر، وبالذات بالمقاومة الوطنية، وبكفاح الشعب الجزائري ضد العدو الأجنبي، فهو أدب تشكل لمناهضة الاستعمار وللدفاع عن الثوابت الوطنية، وعن المقومات الشخصية للأمة الجزائرية، حفاظاً على الهوية من الانسلاخ والضياع؛ فليس من المنطق ولا من العدل أن نعتبر الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية أدباً فرنسياً، كون «أدباء الجزائر استخدموا الفرنسية كسلاح لمواجهة الاستعمار»¹، لأن هذا

¹ - عبد العزيز شرف: المقاومة في الأدب الجزائري المعاصر، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1991م، ص157.

الفصل الأول ——— إضاءات حول الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

الاستعمار لا يفهم سوى اللغة الفرنسية من جهة، ومن جهة أخرى ليوصلوا انشغالاتهم إلى كل العالم.

ولعل هذا ما عبر عنه "كاتب ياسين"، حيث يقول: «...من يقاتل لا يسأل نفسه ليعرف إن كانت البندقية التي يستعملها فرنسية أو ألمانية أو تشيكية، إنها بندقية وهي سلاحه وهي لا تخدم إلى معركته (...) إن الفرنسية ليست سوى أداة لتوصيل أفكارنا إلى المثقفين في العالم لنجذب به المفكرين الأحرار لنصرة قضية جزائرها العربية...»¹، لذلك فأصحاب هذا الرأي يرون بأن هذا الأدب يجب أن ينظر إليه على أساس «الروح الجزائرية التي كتب بها»² لا على أساس اللغة.

فاللغة «ليست هي المكون الثقافي الوحيد وربما ليست حتى الأهم»³ مقارنة بالمكونات الأخرى التي يتشكل منها النص الروائي كالفضاء الزماني والمكاني والأجواء والأشخاص... وغيرها لأن هذه العناصر تعد بمثابة مكونات ثقافية؛ فيوم الثامن من مايو عام 1945م في "رصيف الأزهار لا يجيب" لـ"مالك حداد"، ذا بعد ثقافي جزائري خاص، وكذلك "وريدة" و "قسنطينة"... الخ، وبالتالي فهذه العناصر مجتمعة (المكان، الزمان، الشخص... لا أعتقد أنها أقل ارتباطا بهوية النص من اللغة، واللغة في هذه الحالة ليست سوى أداة استعيرت للتعبير الأكثر إفهاما للآخر.

كما أنها تعد الأحسن ترجمة للأنا، وهذا ما عبر عنه "مولود فرعون" حين قال: «يجب أن لا نبكي ونشعر بالضيق لأننا نكتب باللغة الفرنسية، فأنا شخصا إذا كتبت باللغة الفرنسية فإني لا أشعر بأية عقدة نقص فالكاتب مهما كانت اللغة التي يكتب بها إنما يقوم

¹ - عبد العزيز شرف، المقاومة في الأدب الجزائري المعاصر، ص157.

² - أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، ص162.

³ - إبراهيم سعدي: الرواية الفرنكوفونية بوصفها نصا متعدد الثقافات، المجلس الأعلى للغة العربية، أعمال اليوم الدراسي (الرواية بين ضفتي المتوسط)، الجزائر، 2011م، ص68.

الفصل الأول ——— إضاءات حول الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

بعملية ترجمة لعواطفه وأفكاره هو»¹ فلا داعي للقلق إذن، فما اللغة إلا وسيلة تعبير كما يرى "كاتب ياسين" الذي يعتبر «الثقافة الفرنسية لا يمكن لها إلا أن توجب فينا الظماً إلى الحرية والأصالة»²، فهي عنده أداة للتحرر والانعتاق من سلطة الآخر.

وعليه فاستعمال اللغة الفرنسية لا ينقص من قيمة هذا الأدب، ومن جزائريته، فهو يظل جزائرياً ما دام يحمل روحاً عربية، وهماً جزائرياً ونزعة ثورية، لأن جزائرياً كما يقول كاتب ياسين «ليست فرداً بعينه أو شخصاً بالذات، إنما هي فكرة ومعنى، أو هي قيمة ومثال، وهي أولاً وأخيراً عربية»³، فالمتمعن في كلام "كاتب ياسين" يدرك بأن الأدباء الجزائريين الذين كتبوا باللغة الفرنسية لم يختاروها وإنما أجبروا على الكتابة بها، لأن فرنسا أرادت أن «تتزعزع منهم أداة التعبير باللغة الأم، وأن تضع بين أيديهم أداة أخرى هي اللغة الفرنسية، لا حيلة لهم في الإعراض عنها إذا أرادوا أن تدور ألسنتهم بكلام، أو أن تجري أقلامهم بكتابة»⁴، وعليه فلا داعي للتشكيك في هوية هذا الأدب الجزائري وفي ارتباط أصحابه بالهوية الأصلية.

2- القائلون بأنه أدب فرنسي:

هناك من الباحثين من يقف في الصف المعارض؛ حيث ينفون انتماء الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية إلى الهوية الجزائرية، كون اللغة التي كتبت بها ليست بلغة وطنية فهو ليس من الجزائري في شيء، ولن يكون جزائرياً، فهذا الاتجاه يدعو إلى عدم إغفال العامل اللغوي في تحقيق فعل الانتماء، لذلك «يرى أنه ليس ممكناً اعتبار رواياتهم (أي الكتاب) باللغة الفرنسية جزءاً من التراث الثقافي العربي (...) ويستند أصحابه في ذلك

1 - أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، ص ص 163، 164.

2 - المرجع نفسه، ص 164.

3 - عبد العزيز شرف، المقاومة في الأدب الجزائري المعاصر، ص 157.

4 - نوال بن صالح: الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية وثورة التحرير، صراع اللغة والهوية، مجلة المخبر، جامعة محمد خيضر، بسكرة، العدد السابع، 2011م، ص ص 220-221.

الفصل الأول ——— إضاءات حول الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

إلى وجهة نظر مدرسة الأدب المقارن الفرنسية نفسها التي تلحق الأدب -مهما كانت جنسية كاتبه- بالأمة التي تتكلم اللغة التي كتب بها ذلك الأدب، وتعدّه من أدبها القومي»¹. وإذا تفحصنا هذا الأدب الذي كتبه أدباء جزائريون بلغة المستعمر، وخاصة الذي سبق سنة 1950م نجده في مجمله يعبر عن الأفكار التي كان يروج لها المستعمر الفرنسي ويعمل على ترسيخها داخل المجتمع الجزائري، وخاصة ما تعلق منها بالجانب الثقافي فالكتابات الأولى التي ظهرت من سنة 1920م من قبل "عبد القادر حاج حمو"، و"رابح زناتي" و"محمد ولد الشيخ" وغيرهم كانت تمجد الاستعمار، وتدعو إلى سياسة الإدماج، لأن هؤلاء الأدباء في الحقيقة هم نتاج المدرسة الفرنسية، ولهذا لا نستغرب حين نجدهم يشيدون بفضل الاستعمار عليهم، ويبدون إعجابهم بالثقافة الفرنسية، وبالحضارة الغربية، وما تتميز به من تشجيعها على نشر الرذائل الفاحشة، وشرب الخمر، ولعب الميسر وما إلى ذلك مما يتنافى والثقافة العربية الإسلامية.

هذا ما أدى بأحد الدارسين الجزائريين ليصرّح قائلاً: «إن هذا الأدب غريب في نفسه ومنفي عن موطنه الذي كتب فيه، ولم يستطع أن يلعب دوراً كبيراً في نهضة الأدب المعاصر بالجزائر، فضلاً عن أن يلعب دوراً خطيراً في إذكاء نار الثورة التي قيصت للشعب الجزائري أن يكسر قيود الاستعمار الثقيلة»²، وهو رأي ينفي جزائرية هذا الأدب.

فلو نظرنا إلى المستوى الثقافي للجزائريين في ذلك الوقت فإننا نجد أكثر من ثمانين بالمائة منهم أميين لا يعرفون القراءة والكتابة فما بالك بمعرفتهم بلغة أجنبية عليهم (الفرنسية)، وهنا يطرح السؤال بقوة: لمن يكتب هؤلاء يا ترى؟ طبعاً ستكون الإجابة إنهم يكتبون لمخاطبة الفرنسيين لا الجزائريين، وليتهم كانوا يخاطبونهم للمطالبة بحق الجزائريين في العيش الكريم، وفي الحرية والعدالة، وإن كان خطابهم منصبا على البحث عن الرضا

1 - أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، ص177.

2 - عبد المالك مرتاض: نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر (1925-1945م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1983م، ص06.

الفصل الأول ——— إضاءات حول الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

وعن كسب الإعجاب من طرف الفرنسيين، لهذا كانوا يكتبون فيبدعون! وبذلك «لم يتمكن الكتاب الجزائريون - بسبب حاجز اللغة- من الوصول إلى مخاطبة مختلف فئات المجتمع باستثناء مجموعة محدودة، وقد أسماهم "مالك حداد": الأيتام المحرومون من القراء الأصلاء»¹، على اعتبار أن المجتمع الجزائري تسوده الأمية.

ولعل ما يزيد تدعيمهم لنفي فكرة جزائرية هذا الأدب، أن لغة الكتابة بالفرنسية من طرف الأدباء الجزائريين استمرت إلى ما بعد الاستعمار، بل إلى يومنا هذا، ولم تتوقف رغم فقدان شرعيتها في نظر الكثيرين، وعلى رأسهم مالك حداد، الذي دعا إلى وجوب التوقف عن الكتابة بالفرنسية، طالما أنه لم يبق هناك مبرراً للكتاب الجزائريين ليكتبوا بالفرنسية بعد الاستقلال، «ولذلك كانت نظرة الجزائريين للموجة الجديدة من الكتاب نظرة احتقار حيث رأى بعضهم أن هؤلاء لا يمثلون المجتمع الجزائري، لأن لغتهم المستخدمة بعيدة عن لغة المجتمع، أو لأن أعمالهم تنشر في فرنسا، أو لأنهم تلقوا جوائز وتكريمات من الخارج»² بل منهم من صار يحلم اليوم بجائزة نوبل للآداب في ظل مكسب الرضا الذي ناله من فرنسا الأم!

3- القائلون بأنه أدب بلا هوية:

رأي يقف بين الرأيين المتعارضين: الرأي القائل بجزائرية الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية، والرأي القائل بفرنسيته يقف اتجاه ثالث بينهما؛ حيث يرى بأن الكتاب الجزائريون بالفرنسية لم يتمكنوا «من إرضاء جمهورهم الفرنسي ولا حتى الجزائري (...) مما جعل هؤلاء الكتاب يشعرون أنهم يقفون على الهامش في الضفة الأخرى بين المجتمع الفرنسي وكذا الجزائري»³ ولذلك فهو أدب بلا هوية، حيث أنه لا يملك من الفرنسية سوى اللغة التي كتب بها؛ فكيف للأديب في هذه الحالة أن ينقل مشاعره وأفكاره للمواطن الفرنسي

1 - أم الخير جبور، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، ص 47.

2 - المرجع نفسه، ص 46.

3 - المرجع نفسه، ص 45.

الفصل الأول ——— إضاءات حول الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

الذي يملك ثقافة مغايرة تماما لثقافة الكاتب الجزائري، كما أن الأديب لا يستطيع إيصال أفكاره التي يعبر عنها بلغة الغير إلى أهل بلده؛ الذين لا يتقنون هذه اللغة بحكم الجهل والامية التي عانى منها المجتمع الجزائري في تلك الفترة، بدليل أن نسبة المثقفين حينذاك لم تتعد الثمانية بالمائة (8%)، وفي هذا المجال ترى "أم الخير جبور" أن الرواية المكتوبة بالفرنسية في المغرب العربي «لا تمثل التصورات الفرنسية أو المفاهيم الجزائرية فهي أشبه بكائن مميز يجمع بين الشكل الفرنسي والمضمون الجزائري، كما أشار إلى ذلك الناقد "عبد المجيد حنون" الذي يشبه هذا الكائن بالمولود الاستثنائي، يولد ويكبر ويساهم في الحياة لكنه لا يمتلك شبيها ولا يمكن التخلي عنه».¹

واستنادا على الآراء المتضاربة حول هوية هذا الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية، والتي أسالت الكثير من الحبر من طرف النقاد في ميدان الأدب، يمكن أن نشير إلى نقطة تثير الانتباه، ويمكن أن نعتبرها بيت القصيد في كل هذه الآراء المتضاربة، هذه النقطة هي التي جاءت بها الدكتور "أم الخير جبور" حيث تقول عن الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية: «... كائن مميز يجمع بين الشكل الفرنسي والمضمون الجزائري، إذ لا يمكن أن ننفي عن هذا الأدب جزائريته، بالنظر إلى «التصاقه بالواقع الجزائري وبالثورة الوطنية العظمى»² فكتابات "مالك حداد" و"مولود فرعون" و"مولود معمري"، و"محمد ديب" وغيرهم، كانت أداة من أدوات المقاومة استخدمها هؤلاء الأدباء للتعبير عن مأساة الشعب الجزائري، والدعوة إلى الثورة والتطلع إلى الحرية والاستقلال.

وخير مثال على ذلك ما فعله "محمد ديب" في ثلاثيته حيث يعتبرها الكثيرون وعلى رأسهم "واسيني الأعرج" بمثابة «نبوءة صادقة عن الثورة حتى قبل اندلاعها»³، وهذا من

1 - أم الخير جبور، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، ص46.

2 - واسيني الأعرج: اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، بحث في الأصول التاريخية والجمالية للرواية الجزائرية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م، ص68.

3 - المرجع نفسه، ص69.

الفصل الأول ——— إضاءات حول الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

خلال رسم حالة البؤس التي يعيشها سكان "بني بوبلان"، "ودار سبيطار"، وكذلك النضال والكفاح الذي قاده حميد سراج بغرض توعية الجماهير، وإيقاظ الوعي في نفوسهم، لخوض المعركة ضد الغزاة.

وهو الأمر نفسه الذي قام به "مولود فرعون"، و"مولود معمري"، حيث قدما صورة حية عن الحياة اليومية وعن العادات والتقاليد في بلاد القبائل، وهذا ما يؤكد ارتباطهما الشديد بأصالتها وبوطنيتها، هذا دون أن نسى "مالك حداد" الذي عبر عن الجحيم الذي عاشته باريس من خلال روايته "رصيف الأزهار لا يجيب" كما عبر عن تمسكه بالوطن وبوردية وبالجزائر وبقسنطينة.

وكذلك فعل كاتب ياسين الذي استطاع أن يسمع صوت الجزائر إلى العالم من خلال رائعته "نجمة" التي هي الجزائر في أسمى صور البطولة والتحدي والمقاومة «إذن فمن السابق لأوانه اتهام الكتاب الجزائريين ذوي التعبير الفرنسي بالتقصير والانبهار بالحضارة الفرنسية»¹، ومن العيب أيضا إنكار الدور الذي لعبوه في خدمة القضية الوطنية وفي تطور الأدب الجزائري عموما، كما أنه من غير المجدي اعتبار ثلاثية "محمد ديب" مجرد رواية لا تساوي شيئا، فالمشكلة إذن لا تتعلق بحبهم وانبهارهم بالحضارة الفرنسية بقدر ما هم مضطرون للخضوع لهذا المنطق الذي فرض عليهم الكتابة بالفرنسية.

أما من حيث الشكل فإن هذا الأدب قد كتب بلسان فرنسي، وبلغة لم يكن يفهمها وقت ذاك إلا قلة قليلة من النخبة الجزائرية المثقفة، التي تمكنت من اللغة الفرنسية نظرا لاعتبارات أشرنا إليها سابقا، في الوقت الذي كان فيه الجزائريون يعانون من الجهل والامية وبالتالي فالأدباء الجزائريون إنما كانوا يكتبون للفرنسيين لا للجزائريين، كما أنهم كانوا يجيدون الكتابة إلى درجة أن تفوقوا فيها على نظرائهم الفرنسيين.

¹ - واسيني الأعرج: اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، ص 72.

وعليه فإننا مبالغون في الاعتقاد إذا نحن سلمنا أن هذا الأدب جزائري خالص، فهو فرنسي الشكل لا محالة، وقد أكد ذلك أحمد منور في حوار أجرته معه جريدة الاتحاد حول هوية هذا الأدب، حيث قال: «هو إضافة للأدبين العربي الجزائري والفرنسي على السواء (...) أما هويته فهي عربية بروح كتابها ومشاعرهم، وبالموضوعات التي تدور حول أعمالهم، بل حتى بأسلوب تعبيرهم الذي يستمدونه من لغتهم وثقافتهم الأصلية، وهي من جهة أخرى هوية فرنسية بحكم اللغة التي كتب بها»¹، أي أنه يجمع بين الأدبين.

هذا إذا نظرنا إلى الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية من حيث الشكل والمضمون أما إذا نظرنا إليه من حيث الحقبة الزمنية التي كتب بها، فإنه يمكن أن نلاحظ أن هويته يمكن أن يحددها الزمن الذي كتب فيه، بحيث أنه كلما عندنا إلى الوراء وبالتحديد إلى سنوات العشرينات والثلاثينات كلما لمسنا فيه الروح الفرنسية فكتابات الجيل الأول من الأدباء الجزائريين كانت تمجد فرنسا، وتتوه بدورها الحضاري التي تدعو إلى اندماج الجزائريين مع الفرنسيين، وكلما اقتربنا من سنوات الخمسينات والستينات كلما غابت عنه الفرنسية ولم يبق فيه منها سوى الهيكل وحلت محلها الروح الجزائرية.

وتبقى سنة 1948م أو 1950م تحديدا نقطة الفصل بين الهويتين الجزائرية والفرنسية وفاصلا تاريخيا هاما في مضامين الكتابة في الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية.

¹ - أحمد منور: جريدة الاتحاد، 29 يونيو 2013 Alitthad.Ae/details.php

المبحث الثالث: الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية وإشكالية اللغة

إن الكاتب الجزائري باللغة الفرنسية تمكن من جعل هذه الأخيرة أداة طيعة في يده وهاجس يذكي فيه جذوة الإبداع من أجل توثيق وعي وطنه في لحظة تاريخية كلها يقظة وتمرد وثورة من أجل الوجود والبقاء، وتحقيق تجربة كتابية ذات أفق فني خاص، ووعي إبداعي مغاير عن التجربة الفرنسية، ومستقلة عنها، لذا كان لزاما علينا التأكيد على الخصوصية الإبداعية الجزائرية، لاختراق الحاجز الاستعماري المتربص لكيونيتها والقامع لتطلعاتها.

هذه الخصوصية التي أكد عليها وأقر بها الكثير من «النقاد الغربيين، وبصفة خاصة الروس كما هو الشأن عند "إيرينا نيكيفوروا" و "سفيطلانا بواجوغينا، وغالينا جوغاشفيكي" وهم ممن اشتهروا في مجال التأسيس للدراسة الشاملة للأدب الجزائري»¹ التي استهدفوها واستهدفوا اليأس الفني كما عبر عن ذلك "مالك حداد"، و«مأساة اللغة التي عبر عنها البعض من الكتاب الجزائريين، واعترفوا بأنهم منفيون في لغة أجنبية»²، وذلك من خلال عملية محاورة هذه الأعمال من منظور خصوصيتها واختلافها، بغية تبين قوامها الخاص وكذا الكيفية التي يتفاعل بها الشكل اللغوي المستعار مع ما تحكيه من مضامين فكرية أيديولوجية واجتماعية ومرجعيات دلالية تتصل جميعها بالواقع الجزائري المحتل وتساؤلاته التي من أجلها أبدع الكتاب الجزائريين هذه النصوص، وما يخفيه هذا التفاعل من تنافذ ثقافي فني مزدوج المصدر كما هو واضح.

وفي هذا السياق تمكن عدد لا بأس به من النقاد من إظهار تفرد هذه التجربة الروائية وتميزها عما أنتجه الأدب الفرنسي، فعلى الرغم من اشتراكهما في اللغة الفرنسية إلا أنها بالنسبة للكتاب الجزائريين شيء آخر، فقد حملتهم على الارتباط بوطنهم الأم حسب الناقدة

¹ - لعموري زاوي: ازدواجية اللغة في أدب رشيد بوجدر، وقائع الملتقى الدولي رشيد بوجدر وإنتاجية النص، وهران، 09-2005/10م، منشورات CRASC، ص28.

² - عبد الله ركيبي: القصة القصيرة الجزائرية، ص242.

الفصل الأول ——— إضاءات حول الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

إيرينا: «لأن كتاباتهم كانت تتوء بالهموم الوطنية»¹، وتحمل في ثناياها تجربة الجزائر المحنتلة وعمق مأساتها ووجدانها الثقافي، فثمة «فرقا ملحوظا بين الأدب الذي كتبه جزائريون وبين ما كتبه فرنسيون وإن كان بلغة واحدة في بيئة واحدة»²، كما يوضحه الناقد "عبد الله الركيبي" وهو الفارق الذي سعى النقاد جاهدين لإبرازه من خلال الرصد والتحليل لاستجلاء أسبابه ومصادره، وكذا الكيفية التي يتمظهر بها وأبعاده الدلالية.

وسنعرض جملة من الآراء التي حاولت تعيينه والإمساك به للاقترب أكثر من مزايا هذه التجربة الفريدة، من ذلك ما أورده الباحث "فرانس فانون" في ملاحظته حول أهمية هذا النتاج في مقالاته المشهورة "في الثقافة القومية" وخاصيته التي يقول عنها: «أنها تكمن في الإرادة الخاصة التي يملكها الإنتاج الأدبي القومي، والتي تميزه عن الإنتاج الأدبي الغربي»³، في حين يرى البعض أنه يكمن في «الرؤية فرؤية الكتاب الفرنسيين تختلف تماما عن رؤية الكتاب الجزائريين ذوي اللسان الفرنسي»⁴، فالرؤية «التي يصدر عنها كلا الفريقين مختلفة، وقد نجمت عن أمر واحد هو أن الكتاب الجزائريين ارتبطوا بمفهوم الأمة والوطن الجزائري، أما الكتاب الفرنسيون فلم يرتبطوا بوطن جزائري»⁵، وإنما كان ارتباطهم الوثيق بفرنسا الوطن الأم .

وأضاف آخرون بأن الفارق يكمن في "الروح" السارية في مكونات النصوص الجزائرية، التي أمدتها «أصالتها وتميزها والتي استمدتها الأقلام الجزائرية من عمق البيئة التقليدية والأم الجزائرية»⁶، فهو أدب ينبض بالانتماء الجزائري.

1 - لعموري زاوي: ازدواجية اللغة في أدب رشيد بوجدر، ص28.

2 - عبد الله ركيبي: القصة القصيرة الجزائرية، ص243.

3 - فرانس فانون: معذبو الأرض، موفم للنشر، الجزائر، د.ط، 2006م، ص207.

4 - عبد الله ركيبي: القصة القصيرة الجزائرية، ص211.

5 - المرجع نفسه، ص244.

6 - أحمد منور: الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، ص179.

الفصل الأول ——— إضاءات حول الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

والمأمل في هذه الآراء يلاحظ أنها تعزى جميعها إلى طبيعة العلاقة الرابطة بين الكتاب الجزائريين والفرنسيين، فطبيعة هذه العلاقة هي العامل الأساس الذي أحدث الفارق «بين نبرتي الأدبين الجزائري والفرنسي ولغتيهما، وانسيابهما الإبداعي، فهذه الآراء تبني فرضيتها على فكرة تناسبية ترى أن كل نتاج أدبي مقترن بالسياق الثقافي، إذ لا وجود لأدبية معيارية تتعالى عن الشروط المكانية والزمانية»¹، وأنها لا تكتب «إلا في إطار بنيات ثقافية اجتماعية محددة»² والوقوف عند هذا الفارق والخطوط الفاصلة بينهما، والبحث عن أسبابها يستدعي بالضرورة -حسب هذه الآراء- العودة إلى «السياقات الثقافية وشبكة العلاقات السياسية الاجتماعية المعقدة التي تورطت فيها، واستحضار تفاصيلها والظروف السائدة»³ التي تحيط بالكتاب الجزائريين، والفرنسيين الجزائري المولد لاستقصاء المنابع التي غدت وروت إنتاجها، وأكسبتهما حياتهما الأدبية، وتميزها الواحد عن الآخر على الرغم من اللغة المشتركة.

وعليه فإن هذا الفارق ما هو إلا فارق ثقافي ملتحم بلحظة تاريخية، تعد منعرجا خطيرا في حياة الطرفين والبيئتين، بيئة الكولون بيئة الكتاب الفرنسيين، وبيئة الأهالي الخاصة بالكتاب الجزائريين، تقاطع فيها وجودهما على أرض الجزائر من جهة وتقاطعت المصائر فارتبط مصير إحداهما بالأخرى، وتناقضت وتصارعت من جهة أخرى عن تواجدهما وتوجهاتهما وأهدافهما، وقد تنبه "فرانس فانون" ونبه إلى ذلك في دراسة تحليلية لظاهرة العنف وتحرير الوطن، ومحو الاستعمار ورأى أن «المنطقة التي يسكنها المستعمرون لا تكمل المنطقة التي يسكنها المستعمرون، إن هاتين المنطقتين تتعارضان، ولكن لا في

¹ - أحمد فرشوخ: الرد بالكتابة، قراءة في رواية الرماد الذي غسل الماء "لعز الدين جلاوي، نقلا عن: مجموعة من المؤلفين، الهوية والتخييل في الرواية الجزائرية قراءات مغربية، دار أهل القلم، سطيف، ط1، 2008م، ص77.

² - ينظر: سعيد يقطين: انفتاح النص الروائي، النص والسياق، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، ط2، 2001م، ص34.

³ - أحمد فرشوخ: الرد بالكتابة قراءة في رواية "الرماد الذي غسل الماء" لعز الدين جلاوي، ص77.

الفصل الأول ——— إضاءات حول الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

سبيل وحدة أعلى، إنهما تخضعان لمبدأ التنافي المتبادل فلا سبيل إلى المصالحة، إن أحد الطرفين زائد يجب أن يزول»¹، وبما أن الأدب لا ينفصل عن سياقاته الحضارية وبيئته كان لازماً أن ينعكس هذا الفارق على نتاج أدباء البيئتين، ويكون له تأثيراته الواضحة في توجيه وسيطيهما الثقافيين، بل ومثل أهم العناصر المشكلة للثقافة ذاتها في الجزائر المحتلة والمكوّن لظروف نمائها وتحديد توجهاتها المميزة، حيث شكل الاضطهاد الاستعماري والكفاح التحرري «المنظم الواعي الذي يخوضه الشعب لاسترداد سيادة الأمة أكمل مظهر ثقافي»² وتمكن الوسيط الثقافي الجزائري المضطهد من خلاله الرد على ثقافة الاضطهاد، وكان الخليفة المؤسسة لثقافة الكتاب الجزائريين، والمرجعية الفاعلة لنتاجهم الإبداعي الأدبي، فكان هذا الأخير، «وخاصة في فترة الاستعمار، من أهم الوسائل المساهمة في محاولة تغيير الواقع القائم إلى واقع مأمول، وتسخيره إلى أبعد الحدود لإعادة بناء إدراك العالم من جديد باعتبار أن الفن والإبداع الأدبي بصفة خاصة يساعد الإنسان على أن يخلق قيمة»³ ويثبتها، وهذا ما سيتضح إذا ما حاولنا الوقوف عند السياقات المنتجة لأدب هذه المرحلة في الجزائر المحتلة سواء تعلق الأمر بالكتاب الجزائريين أو الكاتب الفرنسي الجزائري المولد.

فارتباط الكاتب الفرنسي يكون دوماً بفرنسا كونها موطنه الأصلي، وهذا ما يتضح في قول الكاتب الفرنسي "ألبير كامو" الذي حدد فيه موقفه من الثورة التحريرية، والذي يحوي في الوقت ذاته توضيحاً للعلاقة التي تشده وتربطه بالجزائر، يقول: «إنني أؤمن بالعدالة ولكنني أدافع عن أُمّي قبل دفاعي عن العدالة»⁴، وفي هذا تعبير صريح عن عالم المستعمرات عالم الانقسامات بين المعمرين والمستعمرين عالم يغيب فيه أي تداخل مع بيئة الأهالي.

1 - فرانس فانون: معذبو الأرض، موفم للنشر، الجزائر، د.ط، 2006م، ص24.

2 - المرجع نفسه، ص213.

3 - ينظر طه وادي: صورة المرأة في الرواية المعاصرة، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1994م، ص15.

4 - أحمد منور: الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، ص150.

الفصل الأول ——— إضاءات حول الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

إنه عالم لا يستطيع فيه الأهالي إقامة علاقات قادرة على خلق كيان جديد في المستوطنات، بحيث يذوب الكولون ويصير شعبا آخر، فلا شيء يجمع الكولون بالأهالي ولا شيء يشد "كامو" بالجزائر ويشد هذه الأخيرة بفرنسا، فالجزائر وإن امتلكت حق تقرير مصيرها فإنه يأبى مساندتها لأن ذلك في نظره خيانة لأمة فرنسا وإجحافا كبيرا في حقها فهو بهذا يشير «إشارة واضحة إلى أنه هنا امتداد لذلك الوطن الأم، ومعنى هذا أن الأدب والثقافة والتاريخ الذي يكتبه ويصنعه الكولون بصفة عامة ليس أدب ولا ثقافة ولا تاريخ البلد الذي ينهب خيراته بل تاريخ أمتة فيما تقوم به من طغيان واغتصاب وتجويع»¹، بالتالي لا يمكن أن نقول عن أدب الكولون أدب جزائري.

فالكاتب الفرنسي ابن بيئته وثقافته؛ ثقافة معادية للجزائر، لذا كان لزاما على فكره وأدبه أن يكون انعكاسا لذلك، أي لتلك البيئة والثقافة الاستعمارية السائدة في الجزائر المحتلة، وهذا التفكير المتطرف كان بمثابة حاجز لا يمكن اختراقه، حاجز أعاق «عملية التقارب بين المثقف الفرنسي وبيئة الأهالي، وفرض نوع من النفور عن ثقافتها ونوع من الانغلاق على عاداتها وتقاليدها، والرفض التام لقيمتها وإحساساتها، ونضالها وطموحاتها وينظر في الغالب الأعم إلى الثقافة المحلية نظرة احتقار»²، وهذا ما توضحه "آسيا جبار" في شهادة لها «عن الأدباء الفرنسيين الذين ظلوا بعيدين عن الشعب وعن البلاد متجنبين الحديث عنها، غير متفهمين للواقع العربي»³ كونهم لم يفهموا ولم يتفهموا الواقع العربي.

والملاحظة نفسها نجدها عند "مولود فرعون" في كلام وجهه للكاتب الفرنسي "ألبير كامو" يحدثه فيه عن روايته "طاعون La Peste" رسالة جعل منها فرصة للإشارة إلى الفجوة العميقة التي تفصل الكاتب الفرنسي الجزائري المولد عن الجزائر، وعن الأهالي. ويتضح ذلك حين سأله عن شخصيات الرواية وقال: «كيف لم يكن من بين شخصيات رواية "طاعون La

1 - فرانس فانون: معذبو الأرض، ص36.

2 - أحمد منور: الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، ص91.

3 - ينظر: عائدة أديب بامية: تطور الأدب القصصي الجزائري 1925-1967م، ص53.

الفصل الأول ——— إضاءات حول الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

"Peste" شخصية جزائرية شخصية من الأهالي وأحداثها واقعة في وهران التي بدت وكأنها مدينة فرنسية»¹، وأضاف معاتبا له عن عزوفه على العمل للقضاء على هذه الهوة الفاصلة بين الجانبين، فقال محاولا تحويل الانتباه إلى معاناة الجزائري «لو لم تكن هذه الهوة التي تفصل بيننا، لتعرفت عليها أي على بيئة الأهالي أحسن ولشعرت أنك قادر على التحدث علينا بالتسامح والسخاء الذي حظي به الآخرون»² إلى أن قال بنبرة كلها تأكيد على الشخصية والذات الجزائرية نبرة فيها الكثير من الإصرار على إبراز هوية الجزائر والجزائري «أنتم الثلاثة، أو ديسيو، كامو، روبليس، كتاب جزائريون ما كان لكم أن تتجاهلونا»³ وتتجاهلوا واقع الجزائر وحقيقة أنها ليست فرنسية.

والحقيقة التي لم تغب عن أذهان الأدباء الجزائريين والتي كانت المنطلق لرؤاهم في إبداعاتهم، والتي أكدت عليها الآراء النقدية التي رأت أن كتاباتهم تكشف في ما وراء الحاجز اللغوي المستعار عن الوعي بعمق علاقتهم بالجزائر، وانتمائهم إليها كأمة ووطن، وذلك بالرغم من أنهم عاشوا في ظل الاستعمار وتعلموا وتكونوا في المدارس الفرنسية التي أوجدها العدو الفرنسي طبعاً «ليس من أجل تثقيف الشعب الجزائري ولكن بقصد ترسيخ احتلالهم»⁴ وإتمام عملية إدماج الجزائر في كيان فرنسا إدماجا نهائيا كل ذلك ضمن استراتيجية عسكرية سياسية واقتصادية، وثقافية بصفة خاصة، باعتبارها على حد اعتقاده أقوى الأركان خاصة في هذه المرحلة التي يسعى فيها جاهدا لإعادة بناء التكوين الطبقي للمجتمع الجزائري، وكذا إعادة صياغة أنماطه الفكرية الثقافية، فمن دون استراتيجية ثقافية لغوية يستحيل عليه بلوغ الغاية المنشودة (استعمار الجزائر).

¹ – Mouloud Feraun, lettres à ses amis, édition ENAG, 2009, p63.

² – Ibid, p63.

³ – Ibid, p63.

⁴ – عبد الله ركيبي: الفرنكفونية مشرقا ومغربا، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، برج الكيفان الجزائر، د.ط، 1993م، ص57.

الفصل الأول ————— إضاءات حول الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

ولأجل هذا فهو حين سمح لفئة قليلة من أبناء الجزائر اللحاق بمدارسه كان يهدف إلى تجريبها من لغتها وثقافتها، وقطع كل منابعها عليها، وكل الروافد التي من شأنها أن تذكي وتنمي وتغذي اللغة والثقافة لديها وبذلك يحصل له المراد والمتمثل في انسلاخ هذه الفئة عن أصولها وتاريخها، وتتصلها من مجتمعها، لتتحول من مشاعرها الوطنية معلنة انتماءها الروحي إليه، وإلزامها لغة وثقافة المستعمر كبديلين لما انتزع منها، بكل ثقلها الحضاري الغربي، فيتمكن هو من التوغل في القلوب والعقول وكذا يتسنى له «غسل العقول وجعلها مستعدة لتقبل الهيمنة الأجنبية والاحتواء الحضاري»¹، وإحكام القبضة عليه مسخرا إياها لخدمة «أهدافه الخفية والمعلنة وأقلها وأخطرهما ربط الفكر والثقافة بفرنسا وحضارتها»² لتصبح وفق هذا المنظور مجرد همزة وصل بين الأهالي والكولون، وتابعا في وجودها للعدو متقمصة لشخصيته.

إلا أن هذه السياسة الإدماجية لم تتجح مع المبدعين الجزائريين وذلك لأنه هناك أمور عدة كما أشار إليه "واسيني الأعرج": «تكاثفت مع بعضها البعض لتمنع هؤلاء الأدباء من السقوط في حبال الاستعمار وإغراءاته»³، ولعل أهمها المفارقة التي تقوم عليها استراتيجية الإدماج ذاتها، والتي يمكن عدّها قوة مانعة لا تقهر، وأنها تعمل ضد أي إدماج لا حق لعملية جذر واجتثاث الفئة المتعلمة من أصولها، وإغراقها في الثقافة الفرنسية، ولا تسمح بأي إدماج عادل وتجذير سوي يحفظ بعض الحقوق، ويسمح بالحياة في البيئة الجديدة بيئة المحتل.

ولا نجانب الصواب إذ قلنا أن هذه الاستراتيجية هيئت الظروف ليقظة الوعي الوطني للأدباء الجزائريين، وأبانت لهم «الطريق الذي ينبغي أن يسلكوه إذا ما أرادوا تحرير وطنهم»⁴

1 - عبد الله ركيبي: الفرانكفونية مشرقا ومغربا، ص 57.

2 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3 - واسيني الأعرج: اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، ص 72.

4 - فرانس فانون: معذبو الأرض، ص 66.

الفصل الأول ——— إضاءات حول الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

فانتهوا إلى قناعة مفادها أن العالم قسمان ويسكنه نوعان «مختلفان يخضعان لتمايز قائم على المطلق، ويفرض التضاد والتنافي بينهما، وتوضحت لهم حدود الاختلاف الفاصلة بين ثقافتيهما، وأنه لا علاقة لأحدهما بالآخر، فكل منهما تقاليده وتاريخه، وبين واقعهم الصعب كأهالي إذ كانوا كلهم من أصول طبقية فقيرة مهضومة الحقوق»¹ وبين حياة الكولون وما تعلموه في مدارسهم ولا يجدون له أثرا في حياتهم.

فكان لزاما عليهم «أن يتمكنوا من إيجاد رسالتهم كجيل حتى وإن كان ذلك وسط الظلام»² وسط ثقافة الاستلاب التي تحاصرهم، وتحاول إبقاءهم داخل أسوارها، على مسافة بعيدة من ثقافتهم الوطنية وعدولا يكتفي «بأن يلغي الوجود الموضوعي لأمتهم وثقافتهم المضطهدين إنما عليه أن يبذل جميع الجهود اللازمة من أجل أن يحملهم على الاعتراف بأن لا وجود لأمتهم وثقافتهم»³ وهو الأمر الذي يجعلنا نتساءل عن "الكلمة المقاومة" واللغة المستعارة المعتمدة في تحقيقها، فكيف للكاتب الجزائري أن ينتج خطابا مغايرا لخطاب الآخر بلغة هذا الأخير ويكون ذا خصوصية، والحال كما لا يخفى على أحد أن أي لغة تعد في حقيقتها مظهرا من مظاهر فكر أصحابها تحمل خصائصهم وهي في ذلك منحازة إليهم تعبر عن نظرهم إلى الحياة وذلك من خلال صيغها وتراكيبها وكذا من حيث دلالات مفردتها.

والملاحظ على إنتاج الأدباء الجزائريين في هذه الفترة من الاحتلال أنه أظهر تمكن هؤلاء من التخلص التام من عقدة الانبهار والإعجاب بالأدب والثقافة الفرنسية وتجاوز «مرحلة البرهنة على أنه هضمها»⁴ وأصبح قادرا على محاكاتها وإثبات تمكنه التام من ناحية اللغة الفرنسية، لينتقل بعدها لمرحلة التحول العميق والنضج والتأسيس الواعي للأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، والعمل «على الاستفادة من الواقع الاستعماري وتسخيرها لصالح

1 - ينظر: واسيني الأعرج: اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، ص72.

2 - ينظر: فرانس فانون: معذبو الأرض، ص177.

3 - ينظر: المرجع نفسه، ص205.

4 - المرجع نفسه، ص191.

الفصل الأول ——— إضاءات حول الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

أمته وقضيتها»¹ فقد انقلب السحر على الساحر، ليتمرّد هؤلاء على ما قدمته لهم المدارس الفرنسية بغية تكوين ثقافتهم وأدبهم الخاص بهم والذي لا يشبه أدب وثقافة الآخر.

إن عملية التجذير والشحذ بوجودان ثقافي آخر، لم تأت بشمارها بل كانت ذات نتائج عكسية، إذ لم تتمكن من السيطرة على المبدع بلغة الآخر، هذا المبدع الجزائري الذي ظل متحفظاً في جوهره متمسكاً بثوابته مستعينا بها للاحتماء والحيلولة دون الذوبان في هوية العدو، لقد أسهمت -حين عرفت المبدع الجزائري بالآخر المستعمر في تمكينه من التعرف على ذاته مما ولد لديه الوعي بإمكاناتها وقدراتها، كما مكنه من التقطن إلى ضرورة استعادة- كما وضحه "مولود معمري" «القيم الحقيقية لثقافتنا التي كادت أن تبقى بالنسبة لنا كلمات ميتة صماء»²، فأظهر للعدو قدرته على مواجهته بسلاحه الذي استثمره ضده، كما أشعره بأن قلم الأهلّي قادر على اكتشاف واستيعاب تعبيرات العصر والكتابة في إطارها، فلقد أمكنه أن يكشف له أن مشروعه «الاستعماري مخفق، وأن العمل الذي قاموا به كان عبثاً لا جدوى منه»³، حيث تميز بالكثير من السطحية وضعف الفعالية والنجاعة.

إن التطلع إلى دور واعي لنفسه وقلمه، و«فاعل يهز الشعب ويستحيل إلى مقضه»⁴ ويعبر عن أمته، وعن واقعه قبل كل شيء ويكتب الجملة التي تفصح عن شعبه وتفهم «إشارة الرضوخ والخنوع للعدو التي وقع فيها لأكثر من قرن وينادي بوجود أمته وثقافته ويصير عليه الناطق بلسان واقع جديد»⁵، تتكشف فيه الجزائر للحياة، فلقد بلغ المرحلة الأخيرة على حد تعبير فرانس فانون «مرحلة المعركة وهو الآن ينتج أدب معركة، لينتج أدباً

1 - ينظر: واسيني الأعرج: اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، ص 67.

2 - عايدة أديب بامية: تطور الأدب القصصي الجزائري 1925-1967م، ص 54.

3 - ينظر: فرانس فانون: معذبو الأرض، ص 191.

4 - المرجع نفسه، ص 192.

5 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

الفصل الأول ——— إضاءات حول الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

ثوريا، أدبا قوميا»¹، فكان هذا فعل عدم المهادنة فعل العنف وفعل «إرباك قبل أن تكون فعل اختلاف»²، إنها فعل مقاومة وإثبات الذات.

فالكاتب الجزائري لم يقبل المساومة والانفصال عن أصوله بل تمكن من التعبير عن قناعاته الوطنية ومواقفه من قضايا الهوية والانتماء والحرية، وكذا النضال في سبيل تحرير الجزائر، من خلال كتاباته التي ألهبها حماسه وبثها روحه الثورية وبرهن بها أنها «الثمرة المباشرة لأرضهم وللطبيعة والبيئة العربية التي تسيطر في أعماقهم»³، فسار على هديها، إذ أنه لما حرك قلمه لأول مرة صوبه اتجاه الوضع المأساوي، وحالة الضياع الحضاري الثقافي التي تسبب فيها المستعمر للجزائر، فكان كما قال الأديب "محمد ديب" عنه «لابد للسنين المائة والثلاثين التي قضتها فرنسا في تمدين جزائرننا من أن تؤتي ثمارها»⁴، أي لابد من أن تظهر ثمارها الحضارية بفعل طول المدة .

فكل الروايات التي أنتجت في هذه الفترة انفتحت على مختلف الظواهر السوسيوثقافية التي خلفتها فترة الاحتلال، فقد ارتبطت بموضوع الهوية الثقافية، معلنة عن مواضيع ومضامين لم تعهدها اللغة المستعارة، فعبرت عن الثورة الكامنة في أعماق الشعب ضد المحتل وممارساته الجائرة، وتناولت شخوصا ممزقة بين ثقافة الأهالي والثقافات الوافدة عليهم، وكيف تتجاذبها الثقافتان، ضمن صراع الثقافات والتصادم الحضاري، وجدلية الأنا والآخر، وقلب المواضيع بينهما إزاء وقع التغيير.

فالانقصاص من قيمة الأهالي وإقصائهم من الكتابة الكولونيالية، وإبراز المستعمر وتضخيمه، كل ذلك جعل هذه الرواية تظهر «لتصحح الوضع على الأقل داخل نطاقها وتقيم

¹ - ينظر: فرانس فانون: معذبو الأرض، ص192.

² - محمد نور الدين أفاية: المتخيل والتواصل مفارقات العرب والغرب، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1993م، ص50.

³ - ينظر: عائدة أديب بامية: تطور الأدب القصصي الجزائري 1925-1967م، ص256.

⁴ - يوسف الأطرش: المنظور الروائي عند محمد ديب، ص115.

الفصل الأول ——— إضاءات حول الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

أدب الأهالي على قدميه»¹، وتعلن «الحرب على الأكاذيب الاستعمارية»²، «وتربهن على وجود أمتهم بثقافتهم»³، وتجعلها هي «المركز والحقيقة الجوهرية، في مقابل الآخر الذي نظرت إليه باعتباره الهامش، والحادثة العرضية»⁴ على أرض الجزائر، وتعمل على إثبات «الذات وأصالة الجزائر وموروثها الثقافي الذي عمل العدو على طمسها من الوجود، وتعد هذه أهم مشكلة تطرق لها الأدباء»⁵، فكان المرجعية البانية لنصوصهم، يستلهمون منه وجود أدبهم وقيمهم ورؤاهم فكان بحق المجال الفعلي لإنتاجاتهم.

من هنا «كان تجديدهم في المضامين وكانت الحاجة إلى تطويع اللغة المستعارة وتشكيلها للملاءمة بينهما»⁶، أي بين اللغة المستعارة التي غيرها استحالت الكتابة ومخاطبة العدو الفرنسي ومواجهته، وبين ما يمليه واقع ووضع الجزائر المحتلة بما تفرضه من قضايا والذي غيره فقدت أي ارتباط بالبنية الثقافية الاجتماعية الجزائرية وإنتماءه إليها، ولأجل «هذا صارت لغة الآخر هي من أخذ طابعا مختلفا تحت أقلامهم»⁷ التي تعاملت معها (اللغة الفرنسية) تعاملًا مغايرًا، حيث انزاحت به أقلام المبدعين الجزائريين عما ألفته في منبعها الأصلي من أساليب وتقاليده أدبية، وأعراف ثقافية، واستحدثت أساليب تعبيرية أكثر ملائمة للواقع الجزائري وخصوصيته الثقافية وأكثر قدرة على استيعاب الفكر الجزائري والتعبير عنه ووفق هذا المنظور يكون الكاتب الجزائري قد أنتج أدبا خاضعا لمجموع هذه الاختلافات التي لا يخفى على المشتغل به تلمس ملامحه الخاصة وربطها بمنبعها الأصلي.

1 - عبد المجيد حنون: صورة الفرنسي في الرواية المغربية، ص94.

2 - فرانس فانون: معذبو الأرض، ص182.

3 - ينظر: المرجع نفسه، ص192.

4 - عبد المجيد حنون: صورة الفرنسي في الرواية المغربية، ص94.

5 - ينظر: المرجع نفسه، ص56.

6 - واسيني الأعرج: اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، ص366.

7 - ينظر: عائدة أديب بامية: تطور الأدب القصصي الجزائري 1925-1967م، ص256.

الفصل الأول ————— إضاءات حول الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

وفي هذا المعنى يقول أحد النقاد العرب: «يلاحظ كل من قرأ للكتاب الجزائريين ذوي التعبير الفرنسي أن هناك غرابة وسوء جوار بين الأسلوب وبين حوادث القصة أو عاطفة القصيدة لأن هذه الأخيصة خلقت لكي يعبر عنها باللغة العربية، وإبرازها بمنطق فرنسي يجعل اللفظ متضاربا مع صميم القصة خاصة إذا كانت مرتبطة بالمجتمع العربي الجزائري».¹

فهذه الروايات تعد ثمرة من ثمار تفاعل وتلاقح الثقافتين، الثقافة العربية الجزائرية بروحها الشرقية، والثقافة الفرنسية الغربية التي سرت في فكر الكتاب الجزائريين وكذا في وعيهم وسلوكهم، مما يجعل تفكير الفرد المبدع الجزائري مختلفا مغايرا لغيره، حيث «أنه يشكل مزيج من العقلانية والشاعرية والمنطق ولا يمكن لهذه العناصر المتناقضة أن تكون جميعها وليدة ثقافة واحدة»²، فهي تؤكد على اختلاف المنشأ.

وهذا ما لاحظته الناقدة "عايدة" أو "ديب بامية"، إذ أنها ترى أن تكوين الكاتب الجزائري عبارة عن حصيلة تناقضات التنشئة الاجتماعية الجزائرية، والتي تبدى فيها عدم انقطاع صلته الوجدانية عنها وعن المجتمع الذي ينتمي إليه، على الرغم من التكوين في مدارس العدو، حيث تضيف الناقدة تأكيدها على أن الكاتب الجزائري «يمتلك بطبيعته الروح الشاعرية والمتدبنة والقدرية، وقد تحصل من ثقافة المستعمر عبر المنطق والعقلانية، وقد أدى المزيج (...) إلى تمزق في الفكر الجزائري، إذ تشده عقلانية ديكارتية... ومنطق مبهم رجعي وشاعرية رائعة وأنيقة».³

وفي نفس السياق يقول "كاتب ياسين": «إن معظم ذكرياتي وإحساساتي وأحلامي ومناجاتي الداخلية مرتبطة ببلدي، فمن الطبيعي أن أشعر بها في قالبها الأصلي بلغتي الأم

¹ - محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري، ص496.

² - عايدة أديب بامية: تطور الأدب القصصي الجزائري 1925-1967م، ص55.

³ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

الفصل الأول ——— إضاءات حول الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

العربية لكن لن أتمكن من تقديمها والتعبير عنها إلا باللغة الفرنسية»¹، فهو يقر بأن اللغة الفرنسية لم تمنحه حرية التعبير.

وهي مقولة تؤكد ما ذهبت إليه الناقدة اللبنانية، بأن المبدع الجزائري بلغة الآخر يكتب بذهنية جزائرية وانطباع ثقافي محلي مبرزاً دور اللغة الأم وفعاليتها في التجربة الانفعالية للغة المستعارة، وكذا في أدائها الفني، حيث تتمظهر عليها تلك الإحساسات وتبرز إلى السطح معلنة عن نفسها، ممارسة حضورها المميز على النص في شكل «أنساق رمزية وفنية تعكس ثقافته التي تعد في حقيقتها المجال الفعلي المنتج لأعماله، واللغة المستعارة ما هي إلا وسيلة تعبير»² كما عبر عن ذلك كاتب ياسين.

وهذا ما لاحظته أحد النقاد الفرنسيين، حيث عاين الخصوصية ذاتها التي تحدث عنها الكاتب، وفسرها الناقد بدوره في مقدّمة كتبها في إحدى مؤلفات كاتب ياسين معتبراً أن الروايات الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية «روايات مترجمة إلى الفرنسية لأنها كانت تحمل بصدق آلام هذا الشعب فمن العيب بمكان ضرب هذه الإنجازات الأدبية التي أوصلت قضية الجزائر خارج الحدود المحلية»³، وهي خصوصية اكتسبتها أعمال كاتب ياسين خاصة.

وهي خصوصية يرجعها "أبو القاسم سعد الله" إلى إتكائه على «الثقافة العربية الخطابية والفكرية»⁴ ثقافة ساعدته على ابتكار أساليب وأنساق حكاية مميزة وعلى تكثيف «دلالة الاستراتيجيات النصية المعتمدة في بناء مرجعياته، الأمر الذي مكنه من النجاح ربما أكثر من زملائه في إبداع نظام جديد منسجم مع العادات القديمة في شتى أشكالها (...)

1 - عايدة أديب بامية: تطور الأدب القصصي الجزائري 1925-1967م، ص274.

2 - أحمد منور: الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، ص164.

3 - واسيني الأعرج: اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، ص71. سعد الله أبو القاسم: دراسات في الأدب الجزائري الحديث، دار الرائد للكتاب، الجزائر، ط5، 2007م، ص104.

4 - أبو القاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائري الحديث، دار الرائد للكتاب، الجزائر، ط5، 2007م، ص104.

الفصل الأول ——— إضاءات حول الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

وكذلك من خاصيات الخطابية عند العرب التي هي جزء من تراثه التقليدي»¹، فلقد تميز ياسين بأسلوب ذي «طبيعة متدفقة برقة، وهذه النوعية عزيت إلى الأصل العربي للكاتب حيث أنها ناجمة عن موهبة العرب في سرد الحكايات»²، الأمر الذي مكنه من تجاوز الأساليب والنماذج الفرنسية في لغته المحلية والكتابة بلغة وإن ظلت متصلة بموطنها الأم لكنها مختلفة عنها، حيث أنها عند "ياسين" امتداد للغته الأم وثقافته الأصيلة وإبداعاته كفعل ثقافي رمزي جزائري على الرغم من لغتها الفرنسية.

الحالة نفسها مع ديب مثال آخر على هذه المعاناة وهذا التمييز، فأعماله ذات خصائص فنية مميزة تنبعث منها الروح العربية خاصة ثلاثيته المشهورة، التي يعكس أسلوبها أصالتها أكثر من أي عمل أدبي كتبه أي روائي جزائري آخر، حيث كتبها بأسلوب تتقاطع فيه ومضات لغته الأم ألفاظا وتراكيبا.

فالروائي يعي المسألة ويقصدها وذلك بتوظيفه لكلمات عربية بأحرف لاتينية، وتطعيم الأساليب الفنية للغة المستعارة بأساليب تشخيصية يستمدّها من أساليب اللغة العربية وبترجمة حرفية لبعض التعابير العربية، والاستعانة بهوامش توضيحية وتذييلات يفسر فيها هذه المفردة أو تلك العبارة.

ومما لاشك فيه أن ثمة خصوصية متضمنة في هذه العملية ذلك أن هذه الإسقاطات للغة الأم المتعمدة من الكاتب فإنها وإن كانت لا تسبب أي قطيعة في لغة النص أو تعقيده غير أنها ومع ذلك فإنها تعمل على تخريب الأساليب الفنية للغة الفرنسية وتغريب القارئ الفرنسي في لغته، هذا من جهة، ومن جهة أخرى هي عند "ديب" تمثيل لما بداخله وتكشف أصالة أعماله التي تعود إلى ثقافة عربية أصيلة تطفو على السطح من خلال هذه الألفاظ

¹ - المرجع نفس، ص 104.

² - عايدة أديب بامية: تطور الأدب القصصي الجزائري، ص 274.

الفصل الأول ——— إضاءات حول الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

والعبارات وتعكس هاجس الخصوصية عند ديب خصوصية لا يمكن أن تتحقق إلا عبر الثقافة المحلية التي تمنح لنصه بصمته الخاصة، وتعطيه صوته وصداه المميز.

وتقول "آسيا جبار" عن إبداعاتها أنها «ذات محتوى عربي وتأثر بالحضارة العربية والتربية الإسلامية لأبعد حد فأنا إذن أقرب إلى التفكير باللغة الفصحى منه إلى التفكير بالفرنسية»¹، وتبدي ذلك جليا في محاولتها الملائمة بين «موروثها الثقافي العربي وبين قواعد اللغة الفرنسية، فكانت تبحث عن الصيغ التي تتناسب وتلك المستعملة في العربية كتقديم الفعل على الفاعل، والموصوف على الصفة، ووضع المفعول به في غير موضعه المعتاد، لأن ذلك له علاقة حسب رأيها بحساسية المغاربة وطريقة استيعابهم الخاطف للأشياء»²، وهي ميزة تحسب للأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية وثبتت أصالته.

فعلى الرغم من المعرفة الواسعة بالثقافة الفرنسية من قبل الأدباء الجزائريين، وتمكينهم من لغة الآخر، كما هو الحال بالنسبة لكاتب ياسين الذي كان «يتلاعب بألفاظها»³ وبراعة "مولود معمري" وتحكمه في زمامها تحكم يبرز «مدى تمكنه منها»⁴ ولا يشذ عنهما كل من "ديب"، "مالك حداد" و"آسيا جبار" و"مولود معمري" وغيرهم كثير. إلا أن هذا الاقتدار والحدق لم يكفي لجعل لغتهم الفرنسية نقية، خالية من أي تأثير بثقافتهم الأصلية القابعة في أعماقهم والرافضة للموت والتلاشي، ثقافة حية «لم تتمكن ثقافة الغرب من إزاحتها جانبا رغم المحاولات التي فشلت في قطع علاقاتهم بعالم طفولتهم وشبابهم وتراثهم الثقافي»⁵ الخاص بهم والاختلاف تماما عن غيرهم.

¹ - واسيني الأعرج: اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، ص 71.

² - ينظر: أحمد منور: الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، ص 169.

³ - عائدة أديب بامية: تطور الأدب القصصي الجزائري، ص 274.

⁴ - المرجع نفسه، ص 264.

⁵ - ينظر: أبو القاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ص 105.

الفصل الأول ——— إضاءات حول الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

كما أن اللغة المستعارة فشلت في التقليل من فعله ونبضه وصداه، والكتابة عنه لا بد لها من هذه الممارسات والتحويلات في طرائق تشغيل اللغة المستعارة وإخضاعها عن وعي أو عن غير وعي للطابع المحلي الجزائري وخصوصيته، وإيجاد شفرات جمالية قادرة على معانقة متخيل أحدثت فيه عهود الاحتلال بترا، ومن ثمة ابتكار لغة خاصة كما يحبذونها لغة توفر السبل الكفيلة بتحقيق طموحاتهم.

إلا أنه هناك من رفض مثل هذا الرأي وعده ضرب من الغرور، من بينهم "عبد المجيد حنون" الذي قال: «إنهم يزعمون أنهم يخضعون اللغة الفرنسية للتعبير عن الروح المغربية ويطورونها لتتلاءم مع أفكارهم، فهل يعقل أن يطور عشرة أفراد أو عشرون لغة غير لغتهم في ظرف سنوات»¹، هذا صحيح، لكن المقصود بتطوير اللغة هنا أو الأصح تطويعها ليس ذلك الذي يؤثر في اللغة بشكل عام، ويشترط الانتشار الواسع للاستعمالات الجديدة سواء «في مفردات اللغة أو صيغها وتراكيبها بين عامة مستعمليها والذي يتطلب فترات زمنية طويلة وعوامل نشر أكثر أهمية كالعامل الاقتصادي والسياسي، وأكثر فعالية من العامل الأدبي الذي لا يطال إلى النخبة»²، ولكن المقصود هنا أن تلك الروايات تمكنت من الانفلات والتملص من النسق الأدبي الفرنسي، وانتهاك مواصفاته والتمرد على نماذجه بحيث تصعب نسبته إليه، وأن تخلق لنفسها نسقها الخاص المنبثق عن طرق توظيف اللغة الفرنسية من حيث البناء الجمالي الذي اتخذ أبعادا هامة وملا عمقا بشحنة من الخصوصية المستقاة من صميم البيئة المحلية.

لقد وقف "حنون" نفسه عند هذه العملية، الأمر الذي جعله يناقض قوله الأول حيث يقول: «إن استعمال لغة أجنبية معناه التفكير من منطلق حضاري معين وميراث بالذات ثم التعبير عن ذلك الفكر الوطني بلغة أخرى تعتمد على ميراث حضاري آخر يترجم المغاربة

1 - عبد المجيد حنون: صورة الفرنسي في الرواية المغربية، ص 95.

2 - ينظر: لويس جان كالفلي: حرب اللغات والسياسات اللغوية، تر: حسن حمزة، مركز دراسات الوحدة العربية، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، د.ط، 2005م، ص 372.

الفصل الأول — إضاءات حول الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

بفكرهم إلى اللغة الفرنسية ترجمة كلها إحياءات، وبذلك نستطيع القول أن الرواية المغربية ذات التعبير الفرنسي ترجمت أثناء كتابتها وبذلك فهي ليست الأصل، إنما هي الرواية المغربية الفرنسية اللغة صورة مترجمة لأصل مفقود»¹، فيكون بذلك قد تمكن من توضيح عملية إخضاع اللغة الفرنسية للتعبير عن الفكر الجزائري بمنتهى الدقة والوضوح، معترفاً بشكل غير مباشر أن الكاتبين الفرنسي والجزائري على الرغم من استعمالهما اللغة الفرنسية إلا أنه هناك اختلاف في كيفية الاستعمال، فاللغة تتحول عند الكاتب الجزائري بعد استعمالها إلى لغة خاصة تستمد خصوصيتها من كيانه الخاص.

وعليه فجل إبداعات الكاتب الجزائري الذي احترف الكتابة باللغة الفرنسية تعد ملتقى لغتين ومرجعيتين في الثقافة والفكر، يصعب لإحدهما احتواء الأخرى، مما أكسبها القوة والتميز، ومكنها من تحقيق رصيدا أدبيا وإبداعا ثقافيا فاعلا، وأمكن المبدعين من صنع توجه أدبي روائي مستقل.

وبهذا برزت قضية الأدب المكتوب باللغة الفرنسية، والتي كانت أول قضية تطرحها الساحة الأدبية الجزائرية المستقلة محدثة بذلك «معركة أدبية اهتمت بها المجالات والراديو الجزائري والندوات واللقاءات»² التي كانت تقيمها الجهات المعنية لمناقشة مستقبله ومستقبل هذه الثقافة وحاضرها وماضيها، مثل تلك التي «نشرتها المجاهد اليومية 1963م وشارك فيها كل من: "معمرى"، "آسيا جبار"، "بوربون"، "ساحلي"، "بوديا" وأدارها "محمد الصديق بن يحيى" ودارت حول التعريب واللغة الفرنسية واللغة العربية ومستقبل الأدب الجزائري»³.

أما المعركة فتدور أساسا «حول جنسية هذا الأدب هل يكون فرنسيا أم يكون أدبا هجينا؟ وتدور حول مصيره»⁴ ومستقبله في الجزائر ومكانته في عهدها الجديد وهو لا يشاركها اللغة فتشكل بذلك علامة دالة على الظروف والملابسات التاريخية التي أوجدته.

1 - عبد المجيد حنون: صورة الفرنسي في الرواية المغربية، ص 97.

2 - ينظر: محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط، 2006م، ص 423.

3 - عبد الله ركيبي: الفرانكفونية مشرقا ومغربا، ص 294.

4 - محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري، ص 434.

المبحث الرابع: الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية والثورة التحريرية

لقد ظهرت الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية في الأدب الجزائري قبل مثلتها المكتوبة بالعربية، هذه الأسبقية التاريخية في الظهور أثرت على البعد الجمالي والفني إلى جانب ما تضمنته الرواية باللسان الفرنسي من تراكم ثقافي أكسبها القوة التواصلية مع الآداب المغاربية والغربية، حيث شكلت الرواية باللسان الفرنسي ظاهرة أدبية وثقافية ولغوية متميزة أثارت الكثير من الجدل وأسالت حبر النقاد والدارسين حول انتماءها وجزائريتها من عدمها. لقد أثر الاستعمار الفرنسي على المجتمع الجزائري من جميع النواحي السياسية والاقتصادية والسياسية والثقافية، وهكذا كان الأدب الجزائري والرواية خاصة حبيسة هذا الواقع، الذي سيطر عليه المستعمر زمنا طويلا، فكان الروائي الجزائري شاهدا على هذه الأوضاع التي يعيشها مجتمعه متفاعلا مع ما يجري من حوله.

فكانت الثورة نقطة تحول في مسيرة التجربة الروائية الجزائرية، بحيث أضحت الحديث عن الثورة والاعتراف من نبعها الصافي أمرا ملحا في الكتابة الروائية، وذلك إما عن طريق سرد بطولاتها أو بتشكيلها حتى وإن شكلت توجهات نقدية لمنطقاتها ونتائجها وتشكك في إنجازاتها وإنجازات بعض القائمين عليها، فهذه الأعمال تقدم تصورا للبطل النموذجي وصناعة الوعي على الرغم من أن التعامل مع الثورة «وصف بالسطحية أحيانا وبالمثالية والاحتفالية التي لم تتجاوز حدود الانعكاس»¹؛ أي التعامل مع الثورة «لم يكن تعاملًا تاريخيًا كما لم يكن هناك استثمار إبداعي للثورة وإعادة إنتاج أحداث ومواقف وبطولات تستمد مرجعيتها من التاريخ الثوري باعتبار أن الرواية عمل تخيلي يوهم بالواقع»² وليس انعكاسا له.

¹ - آمنة بلعلي: المتخيل في الرواية الجزائرية من المماثل إلى المختلف، الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، نيزي وزو، الجزائر، ط2، 2011م، ص 52.

² - نوال بن صالح: الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية وثورة التحرير، صراع اللغة والهوية، مجلة المخبر، جامعة محمد خيضر، بسكرة، العدد السابع، 2011م، ص 222.

الفصل الأول — إضاءات حول الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

وإن كان يتجاوزه و«يتمثل التجاوز على مستوى الصياغة وبناء الشخصية ورسم الحدث وإقامة علاقات قائمة على عمليات لتحيين القيم التي ينطلق منها السارد».¹ وهكذا وجد الروائيون الجزائريون أنفسهم في مواجهة لغة المستعمر، فكانت سبيلهم لمحادثة الطرف الآخر في ظل ظروف فرضها المحتمل على اللغة الأم (العربية)، ولأن اللغة تعتبر الجزء الأهم من مقومات هوية الأمة، فقد اجتهدت فرنسا بتجنيد كافة الأساليب للقضاء على العربية، وكذا على جميع مقومات الدولة الجزائرية ومحاولة النيل من «الأسس المعنوية والمميزات الحضارية للشعب الجزائري والطعن في عقيدته وتشويه قيم تراثه وطمس معالم شخصيته»²، بحيث كان لزاما على كتاب الرواية باللغة الفرنسية خلق مسافة لتأمل التاريخ ونقد الذات ونقد الآخر من خلال هذه المسافة التي بدأت بالإعلان «عن نص روائي جديد يبشر بإنسان جديد وبعقل جديد قلب»³ موازين البطولة الروائية.

كثيرون هم الروائيون الجزائريون الذي كتبوا عن الثورة الجزائرية، وعن الفترة التي سبقتها وخلال اندلاعها وحتى بعد الاستقلال وتصنف جميع هذه «الأعمال ضمن أدب المقاومة أو أدب الثورة الجزائرية، ولعل أبرزهم مولود فرعون صاحب رواية "ابن الفقير le fils du pauvre" 1953م»⁴ التي صور فيها طبع وطبيعة الرجل القبائلي، ووصف فيها أيضا الظروف التي مهدت للثورة، فهذا بطل الرواية "فورلو" يجد نفسه غريبا في الثانوية الفرنسية ويخشى الطرد لأتفه الأسباب.

أما روايته "الأرض والدم la Terre et le sang" 1957م، التي تغطي أحداثها فترة ما بين الحربين العالميتين وتنتهي عام 1930م، فقد أسهمت معالم بطلها الذي يعاني معاناة شديدة بسبب هجرته إلى فرنسا طلبا للعمل ليعود بعدها إلى قريته مع زوجته الفرنسية ولكنه

¹ - آمنة بلعلی: المتخيل في الرواية الجزائرية من المتماثل إلى المختلف، ص 53.

² - نوال بن صالح: الثورة الجزائرية في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية صراع اللغة والهوية، ص 222.

³ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

⁴ - المرجع نفسه، ص 223.

الفصل الأول ——— إضاءات حول الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

سيجد صعوبة في التأقلم مع واقعه الجديد في قريته الصغيرة، يعد "مولود فرعون" نموذجاً لجيله كونه جمع في ذاته بين عالمين وثقافتين وصور المشكلات والتناقضات التي زحرت بها فترة يقظة الوعي الوطني للجزائريين في تلك الحقبة من كفاح الجزائريين بغية التحرر.

أديب آخر كانت له بصمته الواضحة في أدب المقاومة، إنه الروائي "محمد ديب" صاحب الثلاثية وهي "الدار الكبيرة" *le grande maison* 1952م و"الحريق" *l'incendie* 1954م، "النول" *la métier a tisser* 1957م ولا يذكر اسم "محمد ديب" إلا وذكرت معه الثلاثية فقد أرجع "أمين الزاوي" سبب هذا الارتباط بعمل أدبي واحد وشهرته به على حساب باقي الأعمال لنفس الأديب، إلى الاحتفاء السياسي الذي كان يقابل به «هذا الأدب من قبل الأوساط الثورية والديمقراطية والثورة واليسارية في أوروبا، وكذا الالتزام السياسي فارتباط "محمد ديب" بالثورة الجزائرية من خلال الممارسة السياسية»¹، أضف إلى ذلك البعد الوطني الاجتماعي الذي حملته هذه الثلاثية وتنبؤها بالثورة الجزائرية من خلال كشف النقاب عن جملة من العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية داخل المستعمرة، كما أن الثلاثية شكلت بحثاً وأدباً وطنياً متميزاً حقق الانفصال والقطيعة مع أدب مدرسة الجزائر هذا الأدب الذي كان يصدر عن كتاب فرنسيين عاشوا في المستعمرة.

واحد آخر من هؤلاء الذين كتبوا عن الثورة وللثورة بالحرف الفرنسي وصوروا الوضع في الجزائر إبان الاحتلال، وما كابده الشعب الجزائري من مآسي وأحزان، وعاشوا فترة اليأس والقنوط دون أمل في إيجاد الحل، إنه "مولود معمري" صاحب رواية "الربوة المنسية" *La Colline Oubliée* 1952م هذه الرائعة التي غطت فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية لتكون صورة واضحة المعالم عن واقع شعب يعاني في ظل مستعمر غاشم ظالم، وقد عبرت أيضاً عن بوادر الأمل التي بدأت تلوح في الأفق نتيجة استقراء المتغيرات التي طرأت على الوضع السياسي الجزائري.

¹ - أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ص 98.

الفصل الأول ——— إضاءات حول الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

أما عن روايته "الأفيون والعصا" L'opium et le bâton 1955م، والتي عدها بعض النقاد والدارسين علامة بالغة الأهمية في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية في عهد الاستقلال، ولقد طبعت أعمال "مولود فرعون" بميزات خاصة به من أهمها مسايرتها للواقع السياسي وكذا تصويرها لواقع المجتمع القبائلي خاصة بكل خصائصه وخصوصياته، حيث تناول الثورة التي انخرط في صفوفها، مصورا المعاناة النفسية التي عاشها الفرد الجزائري العادي والفرد المثقف البرجوازي أمام تلك التجربة.

وربما يكون الأمر ذاته ما فعله الروائي "مالك حداد" مع بعض الخصوصيات في التعامل والتناول لموضوع الثورة التحريرية فمن روايته "رصيف الأزهار لا يجب إلى روايته "سأهبك غزالة" je t'offrirai une gazelle إلى "الشقاء في خطر" ظل هذا الرجل يحمل مأساته المزدوجة المتمثلة في "المستعمر واللغة" وهي المأساة التي حددت المسار العام لأعماله كلها، فمأساة اللغة لم تنته عن التعبير عن هموم وطنه وقوميته وإنسانيته برؤية تقدمية بل ظل أديبا نقيا بعيدا عن روح التعالي المتعصب، وهو الأمر الذي أبعده عن السقوط في فخ التعميم والغموض.

إن أعمال "مالك حداد" التي تحدثت عن الثورة عبارة عن كتلة من العواطف والمشاعر أكثر منها أفكار وآراء، إنها عبارة عن قصائد شعرية يظهر فيها من حين لآخر تصريحات وطنية وحماسية، فهو ينظر للحدث بقلب شاعر لا بفكره، إذ أن مفهوم الالتزام عند "حداد" خاص به، حيث تناول في روايته "سأهبك غزالة" قصة حب بين سائق شاحنة وفتاة شابة تقطن بالواحة الصحراوية حيث توقف هذا الرجل للراحة، من عناء رحلة طويلة فالتزام الكاتب في نظره لا يكون بأن يكتفي بشخصيات روائية فحسب، فإلى جانب قصة الحب هاته لم يغفل الثورة التحريرية «والمجاهدين من أجل حرية الشعب وسعادته أو من أجل الغزلان»¹.

¹– Malek Hadad, je t'offrirais une gazelle, Paris, Julliard 1959, p 30.

الفصل الأول ——— إضاءات حول الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

وتكاد تكون رواية "التلميذ والدرس" للكاتب نفسه تجسيدا لأعمق القفزات الفنية للمتناقضات الدامية، التي كوت وجدانه، مع الحفاظ على نفس الشكل الفني مع غلبة الدماء حيث تبدأ الصياغة عند "مالك حداد" من الكلمة فالجملة إلى بقية النسيج الروائي، ولا يفعل العكس، لأن ذاته الشاعرة قد غلبت ذاته الروائية.

فالرواية عنده تتحول في مواضع كثيرة إلى قصيدة شعرية، وهو الأمر الذي يفسر البناء الذي انتهت إليه وهو "المونولوج"، وهذه الرواية في جوهرها العام عبارة عن مونولوج طويل لهذا الطبيب الجزائري الكهل القاطن بإحدى المدن الفرنسية وحيدا بعد موت زوجته بحيث ينطلق فيها المؤلف من مفارقة متمثلة في أن هذا الطبيب "الأب" شديد الحرص على إبقاء حفيده بين أحشاء الابنة المناضلة التي قصدته من أجل الإجهاض ومن خلالها تكشف الرواية «رمز البطولة في المقاومة الجزائرية»¹، فقد قابل "مالك حداد" بين الأب والابنة إذ أنه وضعهما في مواجهة، عدت مظهرا آخر من مظاهر صراع الأجيال في أعقاب الحرب العالمية الثانية.

إن هذه الرواية أكثر تماسك وحيوية ومحتوى، بالرغم أن الدور الكبير يتمحور حول مشاعر الوالد وهو يتأمل سلوك ابنته، فمنذ البداية كان المنفى عند حداد المهاد الذي يزرع فيه رموزه، جاعلا "جيل المنفى" في الصغيرة المعبرة عن رؤيا المقاومة في رواية "التلميذ والدرس"، فالأعمال الإبداعية لهذا الرجل تقدم فكرة واضحة عن الدرجة النوعية الجديدة التي ارتقت إليها الرواية الواقعية الجزائرية.

لقد اهتمت روايات "مالك حداد" بالعالم الداخلي للبطل المثقف وقت الثورة، أو ذلك الإنسان المختلف عن المؤلف، المشابه له روحيا فموضوعه الأهم هو الحياة الروحية للشخصية، المالكة لقدرة عجيبة تشكل حصنا منيعا أمام معارضة هجوم القوى الهدامة والمعادية للإنسان، هي قدرة لا تظهر في أحداث خارجية براقية تخطف الأبصار، فبطله

¹— Malek Haddad : L'élève et la leçons, Paris, Julliard 1960, p 38.

الفصل الأول ——— إضاءات حول الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

يحصل على انتصاراته في الحياة اليومية غير المحسوسة، وكثيرا ما توضع أمام هذا البطل إمكانية سلوك الطريق السهل والرفاهية الشخصية على حساب تسوية مع ضميره الخاص إلا أنه يرفض ذلك.

إن الأسلوب الإبداعي للكاتب يتوافق ومحتوى مؤلفاته التي يبرز فيها تعقد الحياة الاعتيادية والغير محسوسة والبساطة الأزلية اليومية، كما أن سرده يفتقر إلى الزخارف الأسلوبية والفصول المطولة، فمحور روايات "مالك حداد" التي تناولت الثورة التحريرية موضوعا لها هو العواطف والأحاسيس، كون شخصية الروائي والثورة تتحدان لتشكلا نبعا تغترف منه هذه الروايات ليشكل حب الوطن فيها حبل الحياة الذي يربط كل الحوادث ببعضها.

في حين كان "كاتب ياسين" صاحب رواية "Nedjma" 1956م التي تعد أفضل شاهد على ولادة الجزائر الجديدة، فقد لاقت حفاوة استقبال من طرف الدارسين والنقاد الفرنسيين، الذين عدوا صاحبها «أحسن من يمثل مدرسة إفريقيا الشمالية الأدبية من غير الأوروبيين»¹، فهو يحظى باحترام النقاد الغربيين والعرب على حد سواء، ولعل ذلك نابع من روايته "نجمة" التي جسدت بحق رحلة العذاب التي خاضها الكاتب ووطنه، فهي تصور جميع مراحل التطور، وكذا مختلف أشكال التناقضات والصراعات والنتائج التي انتهت إليها تلك الرحلة الدامية.

"كاتب ياسين" في كتاباته دائم البحث عن الوطن الأم، مجسدا إياه في امرأة اسمها "نجمة" لتصبح الجزائر حقيقة مجسدة وتكون نجمة روح الوطن التي تسري فيه، ولا يخفى على أحد أن مجازر الثامن ماي كان لها بالغ الأثر في نفسية الأديب مؤثرة بذلك في أعماله "نجمة" الهاربة هي الجزائر الجديدة ذاتها، ولقد منح الكاتب فرنسا دورا أساسيا في خلق هذه الشخصية الجديدة، فقد قال معبرا عن ذلك: «إن نجمة هي روح الجزائر الممزقة من البداية

¹ - أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ص 102.

الفصل الأول ——— إضاءات حول الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

والمهدورة بشتى التواترات الداخلية "فنجمة" الغائبة الحاضرة دائما يلاحقها أربعة أبطال (رشيد، الأخضر، مراد ومصطفى) ومغامرات هؤلاء في البحث عنها تشكل إطار الرواية غير أن هذه الرواية تعرض أيضا المظالم السياسية والاقتصادية في الجزائر¹، فنجمة عنده ترمز إلى الجزائر بل هي الجزائر الأم والوطن.

لقد اعتنى الروائيون بتصوير الواقع الجزائري بصدق تام في فترة الثورة، على الرغم من كون الكتابة في ذلك الوقت كانت ضربا من ضروب المخاطرة، كما يعبر عن ذلك "مولود معمري" الذي يجعلها «بمنزلة المقامرة، وأن عدد من يرتكب مثل هذه حماقة في الجزائر يعد على الأصابع»²، إلا أن الكاتب الجزائري أثبت للمستمر تمكنه من لغته، بحيث فضحه بها وأدانه بها في رحلة بحثه عن الهوية الحقيقية للشخصية الجزائرية.

ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية تمكن المثقف الجزائري من الاحتكاك بالحركات التحررية مما نَمى الوعي لديه بضرورة التحرر وانتزاع حقه في الحياة بكل مقوماتها الروحية والوطنية، ليدرك أنه جزائري وهذا معناه أنه «واحد من المغتصبة حقوقهم بفعل الاحتلال الاستعماري»³، لذا لا بد له من الحرية والخلاص.

وبهذا تصبح الرواية الجزائرية ذات التعبير الفرنسي مجالا أرحب للكتابة تحمل أفقا أكبر ورؤية أعمق، متخذة لنفسها بنية فنية جديدة ارتقت بها إلى مصاف العالمية، لتتحول الكتابة على حد تعبير "مولود معمري" إلى: «إيمان عنيف بشيء يشعر الإنسان برغبة شديدة في إيصاله للآخرين»⁴، إنها رسالة تجبر صاحبها على البوح والكلام لإسماع صوت الذات. ما يمكن قوله أن الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية في فترة ما بين الحربين العالميتين عبارة عن دعوة لنشر الوعي السياسي والتحرر لتصبح بعد انتهاء الحرب العالمية

1 - أبو القاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ص 102-103.

2 - عائدة أديب بامية: تطور الأدب القصصي الجزائري (1925-1967م)، ص 59.

3 - العربي الزبيري: المثقفون الجزائريون والثورة، منشورات متحف المجاهد، الجزائر، 1995م، ص 161.

4 - عائدة أديب بامية، تطور الأدب القصصي الجزائري، ص 59.

الفصل الأول ——— إضاءات حول الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

الثانية أحد الوجوه الأساسية للمقاومة الوطنية ضد الاستعمار الفرنسي وخاصة بعد اندلاع ثورة التحرير الكبرى التي «شكلت مادة دسمة أغرت الكتاب الجزائريين بالاغتراف من نبع أحداثها ووقائعها ليصوروا بطولات وأمجاد أبنائها في قالب فني راق، حيث أصبحت الثورة عنوانا مهما للروايات الجزائرية التي تفاعلت مع أحداثها فتوجهت إلى واقع الوطن والشعب والظروف القاسية التي يعاني منها بسبب الظلم والبؤس والسيطرة الاستعمارية»¹، لتصير الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية في هذه المرحلة بالذات طرحا صريحا ومباشرا للقضية الوطنية، بلغة المستدمر، مما يدل على جرأة هؤلاء الكتاب وقدرتهم الفائقة على التعبير عن قضايا شعبهم والتزامهم التام بمأساته، على الرغم من أن هؤلاء الكتاب لا يملكون خيارا آخر في مسألة استعمال اللغة الفرنسية لأنها كانت اللغة الوحيدة التي تعلموها وأتقنوها، غير أن إتقانهم لها لم يمنعهم من الاحتفاظ بعاداتهم وتقاليدهم وأصولهم وثقافتهم ودينهم، فجاءت كتاباتهم فرنسية اللغة جزائرية الروح والمضمون.

على الرغم مما يثار حول قضية الكتابة بالفرنسية من جدل، إلا أن الأكيد هو أن الكاتب باللغة الفرنسية مثله مثل الكاتب باللغة العربية أو الأمازيغية استطاع وبجدارة أن يتحدى المستعمر ويعبر عن قضية شعبه وأبناء بلده بلغة العدو، وهو الأمر الذي جعل الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية تحمل في طياتها ثورة عارمة على جميع الأصعدة ضد المستعمر الذي سعى إلى طمس معالم الشخصية الوطنية.

¹ - نور سليمان: الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرر، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1981م، ص 458.

الفصل الثاني

الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

المبحث الأول: الآخر وعلاقته بالذات

1- تعريف الآخر والذات

2- العلاقة بين الذات والآخر

المبحث الثاني: رحلة البحث عن الذات في الآخر

المبحث الثالث: الأنثى بين سيطرة الآخر وإثبات الذات

المبحث الأول: الآخر وعلاقته بالذات

توطئة:

الذات والآخر موضوع شغل بال الكثير من الباحثين والدارسين في مختلف العلوم الإنسانية، بحيث ألفت فيه الكثير من الرسائل والأطروحات الجامعية، إذ لا يمكن ذكر طرف دون ذكر الطرف الآخر، فثمة تلازم بين مفهوم «الأنا» أو صورة "الذات" وصورة الآخر فاستخدام أي منهما يستدعي -تلقائيا- حضور الآخر ويبدو أن هذا التلازم على المستوى المفاهيمي هو تعبير عن طبيعة الآلية التي يتم من خلالها تشكل كل منهما، ذلك أن صورة "الذات" لا تكون بمعزل عن صورة الآخر، كما أن صورة الآخر تعكس -بمعنى ما- صورة الذات¹، فهما متلازمان.

فلا يمكن بأي حال من الأحوال الفصل بين طرفي هذه الثنائية (الذات/ الآخر) المترابطة؛ التي تدفع الذات أن تكون في حاجة الآخر والعكس، فحاجتنا إلى معرفة الآخر سواء أكان عدواً أو صديقاً حاجة قائمة، وملحة ولكنها لا تقارن بحاجتنا إلى معرفة أنفسنا فهذه المعرفة للنفس تأتي أولاً؛ لأنه من غير الممكن للإنسان أن يعرف غيره إن لم يكن يعرف نفسه، فالذات تأتي في المقدمة بعدها يأتي الآخر على الرغم من أهميته بالنسبة لها. وإذا كانت الأنا تدل على الذات (النفس) فإن المسألة التي تطرح مقرونة معها هي تشابك هذه المفردة "الأنا" مع مفردة أخرى وهي "الآخر" المختلف عنها وهذا الأخير «ليس غريباً عنا؛ بل هو مهندس فينا متبطن لنا، منزل في أعماق الوعي واللاوعي»²؛ بمعنى أنه يعد جزء من الذات "الأنا" فلا يمكنها الانفصال عنه حيث أنه يكون أينما كانت باعتباره الملازم الدائم لها. إن مصطلح الآخر يدل على «كل ما هو نقيض الذات أو الأنا، وهو

¹ - عبد القادر شرشار: كتابة الآخر في الرواية العربية المعاصرة، مجلة الخلدونية، العدد التجريبي، نشر ابن خلدون، تلمسان، د.ط، 2005م، ص145.

² - سعد البازعي: شرفات للرؤية، العولمة والهوية والتفاعل الثقافي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، ط5، 2005م، ص191.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

يقتضي إقصاء كل ما لا ينتمي إلى نظام فرد أو جماعة أو مؤسسة»¹، فالاختلاف بين الذات والآخر هو السبب في بروز فكرة البحث عن هوية الآخر، ولعل هذا ما أدى إلى «التقليل من قيمة الآخر وإعلاء قيمة الذات أو الهوية»²، والآخر لا يتشكل إلا مقابلا للأنا، إنه «باعتباره اختلافا ثقافيا يشكل جزءا من نظرتنا إلى الذات... فالآخر حال في المجال الوجودي للهوية»³، ومن ثمة فالصورة المقدمة من طرف الأنا للآخر هي في حقيقة الأمر مجرد رسم وتحديد لصورة الأنا.

وعليه يكون كل تشويه لصورة الآخر هو تشويه لصورة الذات و«الذات تشكل ويعاد تشكيلها في المواجهة مع الآخر لذلك فإن أي تشويه في النظرة للآخر هو لابد أن يعني تشويها كامنا في الذات»⁴، ولعل أكثر ما يسهم في هذا التشويه هو «شيوخ النمط، إذ قسم العالم إلى ثنائيات جامدة في الثقافة (تفوق/تخلف) وفي البناء الفيزيولوجي (أبيض/أسود)»⁵ هاته الثنائيات التي تعمل على تأكيد تفوق البعض ودونية البعض الآخر إنما تنم عن «عجز عن معرفة الآخر، وعن فهمه حق الفهم على حقيقته، مما يقوده إلى نفي الآخر في صميم واقعه وبالتالي إقصاء الآخر... إن الوسم ونزعة النفي سواء اتخذتا أشكالا عنيفة أو أشكالا مضمرة»⁶ فهما متغيران رئيسيان في بورترية المسيطر.

¹ - رياض القرشي: النسوية قراءة في الخلفية المعرفية لخطاب المرأة في الغرب، دار حضرموت للدراسات والنشر، اليمن، ط1، 2008م، ص08.

² - المرجع نفسه، ص81.

³ - محمد نور الدين أفاية: الغرب المتخيل، صورة الآخر في الفكر العربي الإسلامي الوسيط، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2000م، ص13.

⁴ - ماجدة حمود: مقارنة تطبيقية في الأدب المقارن، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، مشق، ماي 2000م.

⁵ - المرجع نفسه.

⁶ - ماري جوزيف باريز: وجهة نظر المغاربة والأفارقة في فرنسا في الفرنسيين، ضمن كتاب صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 1999م، للطاهر لبيب وآخرون، ص626.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

لقد استطاعت الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية أن تشكل نموذجاً متميزاً في طرحها للآخر كنمط فكري مجاني للأنا، ويجد الباحث في هذه الرواية نماذج ثرية وتجارب خصبة يتنوع فيها وعي الأنا والآخر، وتعددت مستوياته، فحضور الآخر في هذه الرواية يطالعنا عند عتبات النص ويمتد داخله، فالكاتب استبدل لغته الأم بلغة تحمل ذاكرتها الخاصة وتاريخها اللذين يمتلكان ثقلاً يمارس سلطته غير الخفية على مستعمل هذه اللغة الأخرى، فالأنا أي مدى يمكنه أن يقاوم المنظومة القيمية التي تمتلكها هذه اللغة عن ذاتها وعن الآخر المختلف عنها.

إن حضور الآخر كشخصية فاعلة في هذه الرواية هو واحد من مستويات حضوره المتعددة، مع ملاحظة أن كون الآخر ظاهراً في الرواية بدوره يتفرع ليعطي صوراً مختلفة وبالتالي دلالات تتنوع بين المرأة والرجل والمستعمَر والمستعمر، بل لعله المستوى الأبسط فقد يكون الآخر مستتباً في فكرة الكاتب حاضراً بمجموع قيم وأفكار ومبادئ على أساسها يقيم الروائي مجتمعه وينتقد ذاته، وهذا النقد تحديداً هو الذي يحيلنا إلى مدى حضور الآخر فكلاً تكشف كلما كان هذا النقد عنيفاً مؤلماً يصل حد الاغتراب عن عوالم الذات فإذا كان الكاتب وهو يكتب عن الأنا للآخر يتكئ على «الحافة الفاصلة بين الثقافتين... يقف في ملتقى النهرين عند مجمع الذاكرة مراوحاً بين التعرية والتغطية»¹، فإنه طبعاً سيتعرف على ذاته بعد التعرف على الآخر.

1- تعريف الآخر والذات:

الآخر في اللغة مأخوذ من مادة "آخر" وجاء في لسان العرب "من أسماء الله تعالى: «الآخر والمؤخر، فالآخر هو الباقي بعد فناء خلقه كله نَاطِقُهُ وَصَامِتُهُ وَالْآخِرُ بِالْكَسْرِ خِلَافُ الْأَوَّلِ، وَالْأُنْثَى أُخْرَى، وَالْآخِرُ بِمَعْنَى غَيْرِ كَقَوْلِكَ رَجُلٌ آخِرٌ وَثَوْبٌ آخِرٌ، وَأَصْلُهُ أَفْعَلَ مِنَ التَّأَخَّرِ فَلَمَّا اجْتَمَعَتْ هَمْزَتَانِ فِي حَرْفٍ وَاحِدٍ اسْتَقْلَلْنَا فَأَبْدَلْتُ الثَّانِيَةَ أَلْفاً لِسُكُونِهَا، وَانْفَتْحَ

¹ - سامية إدريس: تمثيل الصراع الرمزي في الرواية الجزائرية، دراسة في علم اجتماع النص الأدبي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2015م، ص150.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

الأولى قبلها، ويقال هذا آخر، وهذه أخرى في التذكير والتأنيث، ويقال آخر وجماعة أخرى¹.

فكلمة الآخر تحمل دلالة الاختلاف؛ أي عدم التشابه فكل صفاته التي تميزه عن غيره، وتجعله مختلفا عنه، ومن هنا ليس من السهولة ضبط هذا الآخر فهو مثل أو نقيض "الذات" أو "الأنا".

تعرف الذات "Soi même /Soi /même" على أنها عين الشيء ذاته-نفسه وهي «بناءً نفترض وجوده باعتباره أساس تحقيق التكامل والاتصال بين خبراتنا جميعا، أي أنه الأساس الذي يجمع كل منظم متصل»²، في حين تعرفها موسوعة لالاند بأنها: «ضمير عاقل للشخص الثالث، للغائب أضفت عليه اللغة الفلسفية بعض المعاني الخاصة يدخل في عدة تعابير تقليدية، في ذاته بذاته، لذاته «Soi-Ensoi-par soi»³، يرى أصحاب النظرية السلوكية أن الذات هي: «بنية معرفية يستطيع الإنسان بواسطتها تكوين معلومات عن ذاته وينظمها في مفاهيم ونماذج خاصة»⁴؛ بمعنى أنها الجهاز المركزي المنظم لكل الأنشطة الإنسانية. ويرى أريغوكون أن "الذات مرادفة لـ "أنا Je" ويمكن القول أن هوية «الذات تنبثق من التجارب التي تصبح الذوات المضطربة فيها مؤقتة مندمجة بنجاح في مجموعة أدوار تضمن لها اعتبارا اجتماعيا»⁵، أي أنها تعرف بحسب الدور الذي تقوم به.

¹ - أبو الفضل جمال الدين ابن مكرم بن منظور: لسان العرب، مج01، دار صادر، بيروت، لبنان، ط4، 2005م، مادة آخر، ص 65-66.

² - مصطفى سويف وآخرون: معجم العلوم الاجتماعية، الهيئة المصرية للكتاب، د.ط، 1975م، ص277.

³ - أندريه لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، تر: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، ط2، 2001م، المجلد الثالث، ص1309.

⁴ - أريغوكون: البحث عن الذات "دراسة في شخصية ودواعي الذات"، تر: عنان نصير، دمشق، سوريا، د.ط، د.ت، ص25.

⁵ - محمد مسلم: خصوصيات الهوية وتحديات العولمة، دار قرطبة، المحمدية، الجزائر، ط1، 2004م، ص8.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

فالذات هي التي تمثل الفرد وتحسسه بوجوده «فهي لب شخصية الإنسان وجوهرها وهي النواة التي تقوم عليها الشخصية بوصفها مركبة»¹، ويقول أحد الباحثين «الذات هي الجهاز العام المشترك لكل الأنشطة الواعية لوعي الإنسان»²، من خلال هذا يمكننا القول أن الذات كيان إدراكي ومعرفي ووجداني وعلمي، إنها تنظم للتجربة الفردية وهي من يقوم بعملية الربط والتنسيق.

إن استقرار كيان الذات يعتمد على اختلافها؛ أي وجود الأنا يستلزم بالضرورة وجود الآخر؛ فالإحساس بالذات يفضي دوماً لإثبات وجود آخر يختلف عنها وتتميز أمامه، فلا وجود لذات دون وجود لآخر، ولا لآخر دون الذات، فالذات باعتبارها مركز الشخصية الإنسانية، تفصح عن قدراتها، وتحقق تطورها من خلال البيئة المحيطة والشرط الاجتماعي. وعلية يجب على الإنسان أن يكون واعياً بذاته فيواسطتها يدرك أنه موجود وأن العالم من حوله موجود، فوعي الإنسان بذاته وبالعالم الخارجي المحيط به يمكنه من تحقيق وجوده ككائن واعٍ بحيث يمكنه من خلاله التأثير والتأثر بمن حوله.

أما الآخر أو الغير Autre والذي يعد أحد أهم مفاهيم الفكر الأساسية فهو نقيض الذات "Même"، ويقال على كلمات منها شتى "Divers" مختلف Différent، مميز Distinct على أن هذه الأخيرة «تتعلق أولاً بالعملية العقلية التي تعرف الغيرية بواسطتها، بينما تقال الأولى خصوصاً على وجود الغيرية من حيث هي موضوعية»³.

فالآخر ضروري لمعرفة الذات، والذات ضرورية لمعرفة الآخر أو الغير فمعنى «السوى أو الغير مضاد لمعنى الأنا، إلا أنه ضروري له، لأن الإنسان لا يدرك ذاته إلا إذا

¹ - رائد حميد مجيد البطاط: جدلية الذات والآخر في شعر السجون العصريين الأموي والعباسي، دراسة نفسية، أطروحة دكتوراه، جامعة البصرة، 2011م، ص14.

² - عزت القرني: الذات ونظرية العقل، دار قرطبة، الجزائر، ط1، 2012م، ص24.

³ - أندريه لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، ص124.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

تصور وجود غيره، فإدراك وجود الغير ضروري لإدراك وجود الذات»¹، وقد جاء في موسوعة لاروس الصغير «كل ما هو غير متشابه مختلف مغاير»²، فذلك يدعى آخرا. والغيرية تعد «السمة التداولية الغالبة على الغيرية، اشتغالها على معنى التحول أو التبدل والمعارضة»³ وهناك من يرى أن الغيرية مرادف لمفهوم الصورة على «اعتبار أننا ندرك الآخرين عبر تشكيلات صورية تخضع لإجراءات التحول والانتقال والمفارقة للوقائع الموضوعية»⁴، بمعنى أن الآخر يأتي بمعنى صفة كل ما هو غير الأنا "الذات" وفكرة الآخر «بمعنى غير الأنا مقولة ابتسولوجية ملخصها الإقرار بوجود خارج الذات العارفة أي كينونات موضوعية»⁵، وعليه لا يمكن تقديم الآخر بمعزل عن التطرق للعلاقة التي تربطه بالذات كيفما كان تواجدنا من الضروري الحديث عن هذه العلاقة.

2- العلاقة بين الذات والآخر:

لايكاد يخلو خطاب من مقارنة العلاقة بين الذات على اعتبار أن الرواية تعد من أكثر الأجناس الأدبية تجسيدا لجدلية العلاقة بين الذات "الأنا" والآخر، فلا عجب أن تكون «الرواية كجنس أدبي تكاد تكون بالتعريف "فن الآخر" دون الخوض في جذور تكوينية لها في الثقافة العربية الموروثة فإنه ليس من قبيل الصفة السوسيولوجية أن تكون أول رواية عربية مستكملة للشرط الفني هي رواية "عودة الروح" لتوفيق الحكيم وهي رواية تخصص

¹ - جميل صليبا: المعجم الفلسفي، تر: خليل أحمد خليل، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، لبنان، ط2، 2001م، ج2، ص124.

² - *Le petite La rousse, Dictionnaire multimédias (CD Rome), 2009.*

³ - شرف الدين مجبولين: الفتنة والآخر، بالاشتراك بين الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر، ودار الأمان، الرباط، المغرب، ط1، 2012م، ص24.

⁴ - *E. Levinas. N. Entre nous : Essais sur le penser a l'outre ED, Grassort, paris, 1991, p24.*

⁵ - سلاف بوحلايس: صورة الأنا والآخر في شعر مصطفى الغماري، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الأدب الجزائري الحديث، باتنة، 2008-2009م، ص8.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

صفحات مركزية لمشكل لقاء الحضارات»¹، فجولية "الأنا" والآخر تكرر ظاهرة الاختلاف الثقافي والديني واللغوي والعرفي، لذلك فعندما حدث اللقاء بين الذات والآخر حدثت الصدمة الحضارية.

والأعمال الإبداعية عموما والروائية بصفة خاصة، مجال رحب تظهر من خلاله العلاقة بين الذات والآخر بشكل واضح بحيث أن «مواجهة الذات لحضارة الآخر مواجهة تاريخية حتمية لكونها جزء أساسي من المواجهات المستمرة بين الشعوب بثقافتها وحضاراتها المختلفة، والذات هنا هي الفرد المبدع لما يحمله من تميز وبما يشترك فيه من خصائص وموروثات مع غيره من المنتمين إلى جنسه وثقافته وفي تاريخ الآداب العالمية الكثير من الأعمال التي تسجل تفاعلا ذاتيا بين الفرد وثقافات الشعوب الأخرى سواء اتخذ التفاعل هيئة التأثير أو التأثير، أو انبثق في شكل مواقف»² وتأملات .

فالعلاقة بين الذات (الأنا) والآخر حازت اهتمام الدارسين والنقاد المعاصرين كونها علاقة جدلية وجدت منذ وجد الإنسان على الأرض، فالعالم تتنازع إرادتان الأولى حب البقاء مقابل إرادة الهيمنة الساعية لسلب الهوية وتعويضها بأخرى، فهذا "حسن حنفي" أحد المفكرين العرب يرى أن المحددات التي تحكم العلاقة بين الذات والآخر تتوزع على ثلاث جبهات: «إعادة بناء التراث هي الجبهة الأولى التي يعاد فيها رسم مسار الأنا، الجبهة الثانية لمشروع "التراث والتجديد" هي تحديد الموقف من الآخر الغرب (...) وهكذا نخلص إلى الجبهة الثالثة وهي موقفنا من الواقع المباشر، الحاضر الراهن، وبينما تأخذ الجبهة الأولى من السلف والثانية من الغرب، فإن الجبهة الثالثة تأخذ من الواقع، وهي مناط الإبداع»³ بحيث تصب الجبهتان الأخريتان (الأولى والثانية) فيها.

¹ - عبد القادر شرشال: كتابة الآخر في الرواية العربية المعاصرة، ص150.

² - سعد البازعي: مقارنة الآخر مقارنات أدبية، دار الشرق، القاهرة، ط1، 1999م، ص 121.

³ - أحمد عبد الحليم: جدل الأنا والآخر (قراءات نقدية في فكر حسن حنفي)، مكتبة مدبولي الصغير، القاهرة، ط1، 1997م، ص182.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

وعلية العلاقة بين الذات والآخر لا يمكن أن تخرج عن واحدة من هذه الاقتراحات:
«أ- علاقة نفعية وعداوة.

ب- علاقة نفعية مصلحة لا تتعداها إلى غيرها.

ج- علاقة صداقة وتسامح قائمة على الاحترام المتبادل.

د- علاقة مثاقفة إيجابية أو سلبية»¹.

ووفق هذه العلاقات المحتملة يمكن أن تتبدل مواقف الأنا من الآخر، أو الآخر من الأنا هذا التصور الذي هو عبارة عن «مركب من السمات الاجتماعية والنفسية والفكرية والسلوكية التي ينسبها فرد ما أو جماعة ما إلى الآخرين»²، انطلاقا من خلفية مسبقة وقوالب جاهزة أخذتها الأنا عن الغير (الآخر) وفقا لمعايير محددة تتزاح نحو موقف سلبي في غالب الأحيان، خاصة لدى الذات العربية التي تكن العداء للآخر.

كما أن «دانيال هنري باجو قام بحصر العلاقة بين طرفي الثنائية (الذات/الآخر)»³ وقسمها إلى ثلاث أنواع:

«الميل والهوس La manie: وهي ما سماه مالك بن نبي بالقابلية أي إحساس الأنا بالضعف أمام الآخر.

الخوف والرهاب: (La phobie): أي خوف الآخر من تفوق الأنا.

الحب La philie: المبني على الاحترام المتبادل بين الأنا والآخر»⁴.

ونجد أيضا صدى لهذه العلاقة لدى "تزيان تودروف"، الذي قام بتصنيف العلاقة بين الأنا والآخر، حيث صنفها إلى ثلاث أصناف:

¹ - صوافي بوعلام: محددات الأنا والآخر في المتن الروائي الجزائري الجديد، أطروحة جامعية لنيل درجة الدكتوراه في الأدب العربي، جامعة أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، 2014-2015م، ص32.

² - المرجع نفسه، ص33.

³ - فتحي أبو عين: صورة الذات وصورة الآخر في الخطاب الروائي العربي، ص813، نقلا عن بوعلام صوافي: محددات الأنا والآخر، ص32.

⁴ - بوعلام صوافي: محددات الأنا والآخر، ص33.

«أولاً: حكم قيمة على الصعيد الدلالي: الآخر جيد أو شيء أحبه أو لا أحبه.
ثانياً: فعل التقرب أو الابتعاد بالنسبة إلى الآخر على الصعيد العملي أتقبل قيم الآخر
وأندمج معه، أو أجعل الآخر يتمثلني أو أفرض عليه صورتي الخاصة، بين الخضوع
للآخر، وخضوع الآخر، يوجد أيضاً تعبير ثالث، الذي هو الحياد أو عدم الاهتمام.
ثالثاً: أتعرف إلى هوية الآخر أو أتجاهلها ويكون هذا على الصعيد العملي
البحثي».¹

- كما أن العلاقة بين الذات والآخر تأخذ أربع مستويات هي:
- «1- الموقف السلبي من الآخر ————— الأنا الراضة للآخر.
2- المتحفظ من الآخر ————— الأنا المرتابة من الآخر.
3- الموقف المقابل للآخر ————— الأنا المتواصلة مع الآخر.
الأنا المرتمية في أحضان الآخر».²

وعلى هذا الأساس تكون الغيرية الدائرة التي تضم الذات والآخر، وهي دائرة تتدرج
من الضيق إلى الاتساع؛ بمعنى أن علاقة الذات بالآخر تبدأ من الأسرة إلى المجتمع الأهلي
بعدها إلى المجتمع الإنساني، فالذات تملك خصوصيات وتفرد لا يمكن إدراكهما إلا عندما
تتعامل مع محيطها الضيق ثم محيطها الواسع فالأوسع، «فالفرد في حدود ضيقة والمجتمع
في حدود أكبر لا يعرف هويته ولا يكونها إلا انطلاقاً من وسطه الطبيعي، الذي هو الأسرة
والمجتمع الأهلي»³، إذ أن تعامله مع بقية الأفراد يمكنه من تحديد ذاته واكتشافها فهو
«يتموقع في المجال المدعو بالاجتماعي لا يكون هويته بمعزل عن الآخر، وبمعزل عن

¹ - تزفيتان تودروف: فتح أمريكا، مسألة الآخر، تر: بشير السباعي، دار سينا للنشر، مصر، 1992م، ص223.

² - بوعلام صوافي: محددات الأنا والآخر، ص31.

³ - المرجع نفسه، ص29.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

الشروط المركبة التي تجمع الثقافي والديني والاقتصادي»¹؛ بمعنى أنها تشكل مركبا متكاملًا.

فالذات تتعرف على نفسها وتتمكن من كشف هويتها من خلال «المواجهة مع الآخر لأن الآخر أو الغير هو الذي يعكس للإنسان الصورة الحقيقية التي يكونها عن نفسه، ومن هذا المنطلق فإن مفهوم الآخر يلعب دورا حيويا في تكوين الهوية»²، بصفة عامة. وسنحاول استجلاء هذه العلاقات في المتن السردي الجزائري المكتوب بالفرنسية، من خلال مدونة العمل، وذلك من خلال الآخر الأجنبي الغربي والآخر الأهلي.

أ- الآخر الأجنبي الغربي:

لقد ظهرت رواية الأنا والآخر في أدبنا العربي الحديث والمعاصر في أواسط القرن التاسع عشر الميلادي، وذلك مع التغلغل الاستعماري في العالم العربي والإسلامي قصد التحكم فيه سياسيا، واستغلاله اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا وإضعافه عسكريا وإعلاميا وتغريبه دينيا وحضاريا، وتشكيله عقيدا وفكريا ومن هنا طرحت إشكالية الشرق والغرب فكريا وإبداعيا وتحليليا، فعرض على مائدة النقاش والبحث والجدل الواسع، ولا سيما «ثنائية التقدم والتخلف ثم برزت أيضا عبر ذلك عقدة النقص العربي أمام تفوق الإنسان الأوروبي واضحة للعيان في الكتابات السردية العربية»³، خاصة المحاولات الأولى منها.

فحضور الآخر الغربي في المتن السردي العربي بدأ مع تزايد مشهد النهضة العربية الحديثة، وما صاحبها من تبلور الوعي القومي الذي أخذ في مسائلة معنى هذا الآخر، فكان

¹ - عمر أزرّاج: الهوية شرط اللغة وإمكانات التحويل، يومية الخبر، الجزائر، السنة 20، العدد 59/72، الخميس 2010/04/22م.

² - محمد مسلم: خصوصيات الهوية وتحديات العولمة، ص8.

³ - جميل حمداوي: صورة جدلية الأنا والآخر في الخطاب الروائي العربي، صحيفة المثقف، الجزائر، العدد 1440، 2010/06/27م.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

التوجه إلى معرفته في الكتابة العربية عبر «مقاربات الرحلات العربية التي هيأت لولادة مبحث الصورانية L'imagologie في الأدب العربي الحديث والمعاصر».¹

فقد جاءت معظم الأعمال الروائية العربية، تحمل شحنة عدائية تجاه الآخر الغربي الآخر الذي يستهين بالذات ويحتقرها، ويتسلط عليها، وهو الأمر الذي جعل الكثير من الإبداعات الأدبية العربية تصطبغ بروح الصراع والمغالبة، ف «الآخر يبقى في معظم النصوص الروائية العربية عدوانيا بدرجة أولى إذ لا توجد علاقة بالآخر إلا على قاعدة غالب ومغلوب، وبدون هذه القاعدة يضمحل الآخر ويصبح عدما، ومعلوم أن العلاقة بين الشرق والغرب قائمة على هذا المبدأ الذي تبنته النصوص الروائية العربية الحديثة»² فهناك الكثير من الروائيين العرب ممن قام بتجسيد هذا الصراع في رواياتهم، فأضفوا على أبطالهم صفات القوة والرجولة والشهامة والمروءة، في مقابل آخر غربي جمع النذالة والخسة والجبن والخداع، في حين راح عدد آخر من الروائيين العرب يصنع هذا الصراع بصيغة أخرى، إنه صراع بطلاه الرقة الأنوثة والضعف والرقة والإغواء.

إن حضور الذات والآخر في المتن السردي الجزائري مرتبط ارتباطا مباشرا بمختلف السياقات السياسية والتاريخية التي مرت بها الجزائر عبر مختلف مراحل وجودها فالكيانات الغازية لهذه الأرض منذ القديم عملت على محو الأنا وإلغاء وجودها وذلك من خلال طمس معالمها، ومحو خصوصياتها، فحملة فرنسا على الجزائر كانت أكثر الحملات فتكا وأشرسها، استخدمت خلالها كافة الوسائل العسكرية والثقافية والدينية والتشريحية، من أجل إذابة الذات الوطنية في الذات الأجنبية، بحيث سعت جاهدة إلى «إفراغ عقل الإنسان

¹ - عبد القادر شرشار: بناء الآخر والهنالك في الرواية المغاربية، بحث عن الفردوس المفقود، جامعة وهران، ضمن أعمال الملتقى الدولي حول السرديات، أسئلة الهوية في الخطاب السردي، جامعة بشار، الجزائر، 2001م، ص292.

² - عبد القادر شرشار: كتابة الآخر في الرواية العربية المعاصرة، مجلة الخلدونية، العدد التجريبي، نشر ابن خلدون، تلمسان، 2005م، ص148-149.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

الجزائري من هويته وشخصيته»¹، لذا كانت العلاقة بين الذات الجزائرية والذات الفرنسية علاقة عداة وحقد نظرا للممارسات الاستعمارية ضد الجزائريين، وهو عداة مستمر على الرغم من تبدل الحال واستقلال الجزائر.

فالآخر في المتون السردية الجزائرية هو في الغالب الأعم المستعمر الفرنسي، وهي ميزة نجدها تنطبق على الأدب الجزائري «قبل تسعينات القرن الماضي، سواء ما تعلق بأدب المقاومة أو أدب الواقعية الاشتراكية، والآخرية لم تمش في مغبة الانتقام من الآخر بتأنيثه وما إلى ذلك، بل انشغلت بكشف خبايا الثورة، فخطت مسارها»² تماشيا مع الظروف.

أما أدب ما بعد التسعينات فقد تنوعت فيه النظرة إلى الآخر بين «مرتاب منه وبين داع إلى إعادة النظر في هذه العلاقة وبين مرتّم في أحضانه كلية»³، ولكن في عمومها كلها تصب في النظرة أو الصورة العدائية للآخر، فالرواية الجزائرية عملت على رسم حدود الذات وتفاعلها وتواصلها أو انفصالها عن الآخر «سواء كان هذا الآخر فردا أو جماعة أو فضاء جغرافيا أو مقابلا جنسيا»⁴، المهم اختلافه عن الذات.

إن مسار العلاقة بين الذات والآخر الغربي في الرواية العربية طويل جدا تمتد إلى الصدمة الحضارية التي نتجت عن لقاء الأنا بهذا الآخر، واكتشاف الحقيقة المرة، حيث عري الآخر «عن طريق حضارته»، ولذلك نجد الرواية العربية رائدة بالنسبة لنظيرتها الجزائرية في تناول هذا الموضوع حيث نلاحظ الفرق واضحا فيما يخص طريقة التناول، فالأولى «عملت على تأنيث الآخر عن طريق إخصائه وتصويره في صورة الشاذ الذي يعوض هذا النقص في الاستبداد والظلم أو بالتركيز على الأنثى الغربية وما تبديه من إغواء

1 - حكيم أومقران: البحث عن الذات في الرواية الجزائرية، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، د.ط، 2005م، ص11.

2 - بلحر ياقوت: مظهرات الآخر في رواية "سيدة المقام" لواسيني الأعرج، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، كلية الآداب والفنون واللغات، جامعة وهران، الجزائر، 2004-2005م، ص30.

3 - شرف الدين مجبولين: الفتنة والآخر، ص13.

4 - بوعلام صوافي: محددات الأنا والآخر، ص 11.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

وإغراء وانطلاقاً وكسراً لقيود العلاقة مع الرجل العربي»¹، مثل رواية "عودة الروح لتوفيق الحكيم" و"موسم الهجرة للشمال" للطبيب صالح وغيرها وكلها روايات تنزح نحو جعل البطل رجلاً عربياً، في مقابل أنثى غربية يعمل على النيل منها عن طريق الجنس كصورة من صور الانتقام من الغرب المستعمر.

أما الرواية الجزائرية فعلى الرغم من تأخر انشغالها بهذا الموضوع لإيغالها في التسجيلية والتقريبية بسبب انشغال الذات الجزائرية بالعمل على تخليص البلاد من الآخر المحتل، على الرغم من ذلك فقد اشتغلت على فضح الآخر عن طريق تناولها لموضوعات ذات صلة كالثورة وكشف الفرنسي خاصة في المرحلة التي سبقت فترة الانفتاح الديمقراطي الذي عرفته الجزائر غداة أحداث أكتوبر 1988م، إذ يبدو أن الاهتمام بالآخر العدو بدأت جذوته تخبو «خاصة مع ظهور الآخر المحلي أو الأهلي، وذلك راجع إلى ما حدث من قتل ودمار»²، فما عاد الماضي يتقل كاهل الروائي لأنه اندثر ولم يعد له وجود فهناك ما هو أهم، إنه واقع الجزائر اليوم بما يطرحه من أسئلة هو الأجدر بأن يحوز انشغال الروائي الجزائري.

يحضر الآخر الغربي في الرواية الجزائرية بوصفه المستعمر عبر ذاكرة الشخصيات الروائية فما هي رواية "شرف القبيلة" للروائي رشيد ميموني" تستحضر فصول من العلاقة بين الآخر الفرنسي والذات الجزائرية عبر "جورجو" وهو أحد شخصيات الرواية، حين يتذكر أيام تجنيده إجبارياً يقول الراوي: «لم يفهم جورجو ما الذي أصابه، يوم جاءه دركيان وقاده بينهما بالحديد في يديه نحو مركز المفزة، بينما كان ابن قايد سيدي بونمر خلفه يستهزئ منه لأنه تجرأ على التحدي، إلى أن شطب من الجندية وخرج مرتدياً ملابس مدنية قديمة بلا درهم واحد»³، وهي صورة واضحة عن المعاملة السيئة للذات الجزائرية من قبل الآخر

¹ - بوعلام صوافي: محددات الأنا والآخر، ص 11.

² - المرجع نفسه، ص 7.

³ - Rachid Mimouni: L'Honneur de la tribu, édition Sédia, Alger, 2008, p17.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

الفرنسي فقد اقتيد "جورجو" إلى المفرزة مكبلا بالحديد وكأنه حيوان مفترس، لم تراع إنسانيته من طرف هذا الآخر الذي يرفع شعارات التمدن والمساواة وحق الإنسان في العيش، كلها تغيب إذا ما تعلق الأمر بمبدأ السيطرة وفرض القوة.

لقد أحس "جورجو" بالضيق والته في فضاء الآخر يقول: «في المدينة الشاسعة الممتدة على السهل كما العشيقّة الطامئة على سريرها، تاركة نفسها تتغذى على احتفال نقالات متوقفة على طول نهر مصراني وضعيف يلهو بمضاعفة تعرجاته كأنه يخشى الأجل البحري حيث تختلط المياه... كان ضائعا في تلك الشوارع العريضة ذات الوجّهات الواسعة والدكاكين تعرض بلا خجل جميع محتوياتها، كأنما لإغراء الزبائن... على حركة سيارات فوضوية وضاجة، وتنتزه نساء أكثر عددا من الرجال بلا حياء ولا خجل، لا يستر القسم الأعلى من وجوههن سوى علالة رقيقة، ويجلسن في شرفات المقاهي ويتسامحن متغنيات في التملّي منهن».¹

فالرواية تصور واقع فرد جزائري وجد أمام قوى طاغية ترتبط بالمكان والسلطة مما شكل لديه أزمة حادة سببها له هذا الواقع الاجتماعي والثقافي الجديد، هذا الواقع الذي يهيمن عليه الآخر هيمنة تامة لقد وجد جورجو نفسه ضمن مناخ ثقافي جديد، وسط مجتمع جديد يختلف عن المجتمع الجزائري، في العادات والقيم، لكنه على الرغم من هذا وجد نفسه مجبرا على التكيف معه يقول: «أقول لكم بكل ثقة إنني خلال العشرين سنة لم أتذلل، تعلمت أن أعيش عيشتهم، شربت خمرهم وأكلت لحم خنزيرهم، وحلقت شارب وزنيت مع نسائهم، وليغفر لي ربي، ونسيت حتى وجود القرية إن الغربة تسحق الذات مثل مدحاة من مداحيهم الوحشية»²، فالراوي هنا يقرّ بغربته في هذا المكان وغربة هذا الأخير عنه، إذ أن أزمة الذات ستظل مستمرة، وسيظل الآخر مصدر تهديد لها، فهي مهددة مرتين، من حيث

¹ – Rachid Mimouni: *L'Honneur de la tribu*, p105.

² – *Ibid*, p18.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

المحافظة على أصالتها وهذا لم يحدث مع "جورجو" فقد ذاب في الآخر ذوبانا تاما، وهذا الذوبان والتغير والانفتاح من أجل التواصل والتمكن من العيش مع الآخر.

إن علاقة الذات الجزائرية بالآخر الفرنسي اكتست أهمية كبرى ذلك أن الروائي حاول من خلال هذه العلاقة الوقوف على القضايا الإنسانية في ذلك الوقت، فالآخر القادم من الغرب والذي يملك العلم والتكنولوجيا والهيمنة العسكرية يمكن أن يصدر ثقافته للذات العربية بأية وسيلة، في حين تحرص الأنا (الذات) على التذكير دائما بأن جذورها ضاربة في القدم وأن لها ثقافتها التقليدية، لذلك فهي في غنى عن استيراد ثقافة الآخر ولن تقوم أبدا باستهلاكها، لذلك رفض الآخر ولم يكن مرحبا به، لأنه يمثل المصائب والمشاكل، إنه مصدر إزعاج الذات يقول الراوي في "شرف القبيلة": «وقد استخلصنا من هذا الحادث بأن الشرور تأتي دائما من الأجانب»¹، وهو عندهم «الرومي الغريب»²، فالرومي هي لازمة من لوازم الآخر الفرنسي المختلف عن الذات الجزائرية.

يواصل الراوي تعرية الآخر الغربي فيلحق به بعض الصفات التي تبينه على حقيقته والتي تسهم في بيان أسباب الرفض والازدراء من قبل الذات الجزائرية يقول: «والملاحظ من الحوادث قدوم أجانب مزيفين، إذ لم يكن من عادتنا استقبال أجانب، ولم نعرف غير بعض الشيوخ المرضى الذين يتعاملون معنا كنحل، يأتون لدراسة عاداتها وتقاليدنا، كان الفضوليون يقضون أياما بكاملها تحت الشمس ينظرون كيف نعيش، وبما أن إدارة الجماعة هي التي بعثتهم، فقد عرفنا كيف نتجاهلهم، على الرغم من حسن الضيافة»³، إذن موقف سكان القرية من الأجانب الغربيين الوافدين من عالم مختلف عن عالمهم، هو الرفض وعدم القبول لأنهم يعرفون تمام المعرفة أنهم خطر يجب اتقائه، وهذا ما نجده في رواية "الممنوعة" لمليكة مقدم التي تقدم فيها صورة لإقصاء الآخر، هذا الآخر الذي تحصره الرواية في كل مختلف وخارج

1- Rachid Mimouni: *L'Honneur de la tribu*, p35.

2 - *Ibid*, p139.

3 - *Ibid*, p29.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

عن الامتثالية العامة والإجماع، وما شخصية يامنة اليهودية إلا مثالا على ذلك، فقد كانت هذه المرأة هي الصدر الحنون لسلطانة الطفلة، غير أنها أجبرت بعد الاستقلال إلى مغادرة وطنها وأصبحت تحمل اسم سارة الأجنبية، فقد تم اقتلاعها من موطنها الأصلي.

وقد يكون هذا الآخر شخصا من قرية أخرى كما هو الحال لوالد سلطانة، بما أنه لا ينتمي إلى قرية والدة سلطانة، وبما أنه أحبها كثيرا لم يغفر له الزواج بها ولقد أدت ذلك إلى مأساة حقيقية، نظرا لغيرته الشديد ولكلام أهل القرية فإنه قام بقتلها عن طريق الخطأ فأصيب بالجنون ليترك القرية نهائيا، فانتماء الوالد لغير قبيلة الأم كان أحد أسباب هذه المأساة وتعبيرا عن رفض الآخر حتى وإن كان من الوطن نفسه، إذ يكفي أن يكون مختلفا عن النمط المفروض للعيش، وهو ما جاء في المقطع التالي: «صعب لأجنبي أن يكون وسط صراع بين قبيلتين عدوتين، في الحقيقة، أينما كان الإنسان أجنبيا فحياته دائما ممزقة»¹، كونه غريب مختلف عن الذات.

ب- الذات ورفض الآخر الأجنبي:

إن جل المكبوتات اللاواعية تتمركز حول الآخر باعتباره مرآة للذات، هذا الآخر الذي يكون تجسيدا لما تعكسه الذات عليه من مشاعر سلبية أو إيجابية، وعليه تكون الهوية كبيرة لتختل معها موازين القوى، وتظهر معها صراعات الذات مع الآخر لأسباب عدة، ونتائج هذا الصراع إما الرفض وإما القبول، فإما أن ترفض الذات الآخر وتعاديه محاولة مقاومته أو الابتعاد عنه، وإما أن تقبله فتحاول التعايش معه وعقد علاقات طيبة سلمية معه.

ففي حالة الرفض تكون طبيعة العلاقة الرابطة بين طرفي الصراع العنصري، هي علاقة تغذيها العداوة والضغينة ويزيدها الرغبة في الانتقام استجابة لشريعة العين بالعين والبادي أظلم توهجا، لتتولى العنصرية إتمام ما تبقى مما خلفته الحروب وأعمال التخريب والإبادة لتفتح المجال أمام تنفيذ أسلوب آخر أقرب من الحرب الباردة من حيث انحصار القتال فيه على

¹ - مليكة مقدم: الممنوعة، تر: محمد ساري، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2001م، ص183.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

صعيد الخطاب والسلوك، أسلوب لا وجود فيه لتكافؤ القوى ولا لتساوي وسائل الصراع حيث القوة والنجاعة فيهما حليف العنصري أما الضعف والفشل فهما من نصيب الضحية.

فها هو "حميد" في رواية "بماذا تحلم الذئاب؟" "لياسمينة خضرة" هذا الرجل الذي يعمل عند نجل السيد "راجا" الغني اعتاد تعداد انتصاراته المتتالية في رياضة الملاكمة ثم انكساراته بعد تمرده على مسؤولي الفدرالية وضغوط هاته الأخيرة عليه باستمرار، فكانت نهايته الطرد ليتقلد الكثير من الأعمال التافهة لأن هذه البلاد ليست للخيول الأصيلة «في بلادنا لن يحصل المرء على الخلود إلا عند الشعب البسيط، فعند البسطاء من الناس تجد العز كاملاً».¹

وها هو محمد ديب في روايته "سيمورغ" يتخذ من عبارة "زوج جهنمي Un Couple enfermal" عنواناً لنصه الثالث فالزوج المقصود هنا هو زوج يستمد قوته من نار العنف الدفين المشتعلة بين طرفي ثنائية (الذات "المظلوم" / الآخر "الظالم") وهي نار لن تتمد أبداً وهو ما يوافق الذات القاهرة والذات المقهورة «من اليوم فصاعداً سيتشكل زوج جهنمي مؤلف في جانبه الحسن من العنصري ذي اللسان الطويل والخطاب الحاقد وما يتبع ذلك من أعمال في جانبه السيء من ضحيته المجردة على وجه العموم من السلاح».²

إذن في هذه العبارة دلالة الدفاع عن الذات، وهو دفاع يتطلب رفض الآخر، استناداً إلى قناعات تتعلق بالعرق والأصل، وهو الأمر الذي يحتم على طرفي الصراع الاحتكام إلى الأسلحة، هاته الأخيرة التي يجعلها الراوي من قبيل الخرافة والأسطورة، لذا كانت حتمية اختيار الأسلحة محكومة أو مرهونة بالعودة إلى الأصل أولاً، والدعوة إلى أساطير العرق ثانياً وكره الآخر ثالثاً.

فالعمل الهجومي للذات في هذه الحالة ينقلب إلى عمل دفاعي، إنه دفاع عن الذات من الآخر وهي عملية احترازية يختزلها على حد تعبير تيري ايغلتن: «إلى كل ما يزرع

¹ - ياسمينة خضرة: بماذا تحلم الذئاب؟، تر: أمين الزاوي، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2002، ص 47.

² - Mohammed Dib: Smorgh, edition Albin Michele, Paris, 2003, p43.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

الاضطراب في هويتي»¹، وهذا لا يعني التركيز على الاختلاف بقدر ما يعني تحقيق «نقطة تهتم بالذات وبمصلحتها الشخصية»²، أي يكون التركيز فيها على الذات.

إن رباط الكراهية الذي جسده "ديب" في العلاقة الرابطة بين أطراف الصراع العنصري رباط يعكس الوضع الراهن الذي آلت إليه الذات الإنسانية التي أصبحت في صورتها وشكلها «أقرب ما تكون إلى الوهم»³، ولكي يقرب ديب صورة الإقصاء الناتجة عن العنصرية ورفض الآخر يضعنا في نص "الزائرة التائهة" *La visiteuse égarée* إزاء مشهدين متكاملين: مشهد الكناس "سامبا Samba" الذي يعاني بسبب أصوله الإفريقية ولون بشرته من إهانات آلة أوتوماتيكية ناطقة راحت تعرقل عمله وتستقر مشاعره بما لا يليق من عبارات احتقار وإذلال، وكذا مشهد المرأة الغريبة الراغبة في اختراق جدران مكان شفاف للوصول إلى الكناس الذي لا يدرك أنه محل اهتمامها.

إن شخصية الزائرة التائهة ذات مجهول الهوية ضائعة غارقة في دوار صاحبها، أما علاقاتها أحادية الطرف مع الكناس الأسود مجسدة لمنطق «البحث عن الذات في الآخر»⁴ من حيث أن ذات الآخر ذات «تسكن جسدا فارغا، ذات معزولة في عالمها الداخلي»⁵، فهذا المخلوق الذي باع نفسه على غرار الكثير مقابلا للمجيء إلى عاصمة الدنيا، لقد باع كرامته ليقتني له مكانا في الزبالة «نعم، نعم بيع الكثير سيد-الكثير يبيعوا-الكثير جاءوا»⁶، إنها عنصرية طرفها الأول مخلوق آلي من صنع الإنسان المتحضر، وطرفها الثاني ضحية إنسان إفريقي ضعيف مقهور.

¹ - تيري إيغلتن: أوهم ما بعد الحداثة، تر: ثائر ديب، دار الجوار للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا، ط1، 2000م، ص164.

² - المرجع نفسه، ص164.

³ - محمد سبيلا: الحداثة وما بعد الحداثة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 2000م، ص101.

⁴ - *Naget Khadda: Mohammed dib, cette intempestive vois, recluse, édition Edisud, Aix-en-Provence, 2003, p109.*

⁵ - *Ibid, p106.*

⁶ - *Mohammed dib: Simorgh, p60.*

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

إنها علاقة ثنائية توضح علاقة الشرق بالغرب المتقدم، أما في حالة المرأة فتبدوا تساؤلاتها وحيرتها دليلا واضحا لذلك الإقصاء والرفض للآخر، فتغيير الوطن يعني فقدان الهوية «يا إلهي ربما أكون قد غيرت البلد، وأنا نائمة، أحس أنني سأواجه مشاكل هوية»¹ فكلمات المرأة وهذيانها يخفيان رغبة دالة على البحث عن الذات وعن حقيقتها الخاصة وسبيل ذلك البحث الاستئناس بفصول الطبيعة التي تذكرها بمراحل العمر المختلفة وتنسيها واقعها:

«ربيع العمر معك أزهر.

لكن يا صيف معك أئنع.

خريف معاك أستعر.

شتاء يا شتاء معك أرحل».²

فالرحيل الذي تريده هو نوع من الاستشفاء بعد تشخيص أعراض التطرف والإقصاء والعنصرية التي يمكن علاجها بامتلاء الإنسان بحب مكتمل يضمن توحيد المظاهر المتباينة.

فمعاناة الطرفين تتجلى على الصعيد الداخلي والخارجي ففي حالة الكناس لون بشرته يشعره بالدونية والسخرية «إنه هنا، لكن الكناس الأسود، ومكنسته بطبيعة الحال معه أيضا هنا، ولكنها ليست سواء بطبيعة الحال، الكناس أسود. أسود بطبيعة شبيهه بقطعة ليل في أزياء إنسان»³، أما فكره فشارد منفلت من سجن الجسد باحث عن أصوله الإفريقية «الآن توقف. هكذا هو أيضا، يتقدم خطوة قصيرة ليتوقف، اليدين مضمومتين على مقبض المكنسة النظر بعيد صوب إفريقيا، نحن هنا في عاصمة الدنيا لا في إفريقيا»⁴، يظهر هذا المقطع حنين الكناس "سامبا" لوطنه الأم الذي يحمله في ذاكرته.

¹ – Mohammed dib: Simorgh, p62.

² – Ibid, p63.

³ – Ibid, p56.

⁴ – Ibid, p157.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

أما المرأة فحوارها الداخلي يكشف عن حالة من التيه ألمت بجسدها وعقلها «إنني أراه لا أرى سواه، لا أنظر إلا إليه، لكن الوصول إليه. آه، الوصول إليه ذلك ما لا أعرف كيفيته، لم أعد أعرف ماذا أفعل، لا، إنه أمر فوق طاقتي»¹ وهي كلمات تنم عن حاجة في نفسها ذات صلة بما اقتترف حقها أو بما اقترفته هي في حق نفسها: «ما ينبغي فعله سوى إعادة المحاولة الابتداء من جديد كغيبية، الصعود والنزول ثم إعادة الكرة إيجاد الممر، أين أنا؟ لا وجود للهواء في كل مكان ومن غير الممكن الذهاب بعيدا، قد يكون ذلك هو ما يسمى بالمنفى، ولما جئت، أنا إلى منافعهم»².

يشارك الكناس الأسود والزائرة النائية في كونهما ذاتان معبرتان عن وضع مشابه لمن سدت أفواههم، فحرموا الكلام «لا لعجر كامن فيهما وإنما لآخريه معمة»³، لا مجال أمامهما لفرض الذات أو تغييبها.

إن علاقة الذات بالآخر في ظل الإقصاء والرفض في بيئة اختلت فيها قوانين الطبيعة، أصابها التشوه، محددًا علاقة الحب، ليحولها إلى كراهية وعداء، فتدمير روح الإنسان وأجمل علاقاته، يوحى باضطراب الحياة الإنسانية والطبيعة معا ويقضي على جسور التواصل بين الذات والآخر.

إذا كانت الذات الجزائرية ترفض الآخر، فهو بدوره يحتقرها ولا يرى فيها غير التخلف والتوحش يقول الراوي على لسان جورجو، لما سئل عن المعاملة: «طلبنا منه -كيف كانوا ينظرون إليك؟

تعودوا على احتقارنا لأننا كنا فقراء ومغلوبين على أمرنا، وعلى السخرية منا لأننا لم نكن نعرف كيف نستعمل ماكيناتهم، وعلى النفور منا لأننا لا نحب منتوجاتهم ولا طبخهم»⁴

¹ - Mohammed dib: *Simorgh*, p61.

² - *Ibid*, p63.

³ - تيري إيغلتن: أوهم ما بعد الحداثة، تر: ثائر ديب، ص 167.

⁴ - Rachid Mimouni: *L'Honneur de la tribu*, p18.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

يلخص الراوي العلاقة بين الذات الجزائرية والآخر الفرنسي، فهي علاقة أساسها العداة والرفض المتبادل.

فهذه النصوص تقدم لنا نماذج تصور لنا أشكال من الانهزامية التي علقت بالذات في صراعها مع الآخر، أو بالأحرى في رحلتها للبحث عن الآخر، فقد اختلفت نسبة المعالجة بل قد تدرجت من نزوح للخيال إلى انغلاق في زنزانة النرجسية إلى عزف أنشودة الرثاء إلى البحث عن ذات اندثرت تحت قهر الاستعمار فأضحت مجرد أثر أو حفرة في مختبر الإنسانية، لذلك ألفيناها «تجنح للهروب نحو الآخر إذ لم تعد ترى وجودها إلا فيه»¹، كونه بات السبيل الوحيد لتحقيق الذات الفردية مما جعلها تفر من واقعها المرير وتتصل من ذاتيتها متماهية مع الآخر مثل ما حدث مع بطل رواية "تيميمون" الذي هرب من واقعه الأليم المحكوم بالقتل والإرهاب إلى حزن سراء المرأة التي تمثل له الخلاص لما هو فيه «أما أنا فلم أكن أتخبط في وحل مستتق هذه الحياة منذ طفولتي، وها أنا ذا الآن أسقط في حب فتاة صغيرة فقررت بطريقة جنونية انتحارية أنها الوحيدة القادرة على إخراجي من عقدي الكثيرة وأمراض النفسية العديدة وعاهاتي الشذوية المختلفة»²، فالبطل يرى في هذه الفتاة الغربية خلاصه الوحيد من كل ما يعانيه.

كذلك كان الآخر هو الملاذ والمرفأ الآمن الذي يمكن للذات أن تحقق فيه وجودها فهذا نافع وليد بطل رواية "بماذا تلحم الذئاب؟" "لياسمينة خضرة" كان مستعدا لفعل أي شيء للذهاب إلى فرنسا بغية تحقيق حلمه في أن يصبح فنانا مشهورا يقول: «كنا ممثلين شابيين طموحين مسحورين بأضواء الشهرة وكنا نؤمن إيماننا قاطعا بأننا في يوم ما سنمشي على الزرابي الحمراء بمدينة كان»³، وهو مقطع يظهر مدى تعلق نافع بالتمثيل والشهرة.

1 - عبد القادر شرشالر: بناء الآخر والهناء، ص166.

2 - رشيد بوجدر: تيميمون، المطبعة الحديثة للفنون المطبعية، الجزائر، 2002م، ص92.

3 - Yesmina Khadra: À Quoi rêvent les loups, édition Julliard. s -A, Paris, 1999, p123.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

وكذلك قوله: «لم أتردد ثانية واحدة لأنني جمعت من عملي لدى عائلة "راجا" ما لا يكفي كي أتفاوض على عمليتين أو ثلاث من هذا النوع، انتهت بأني لم أدفن بعد أحلامي التليدة وبأن تلك اللوحة التي رسمها لي مراد تحت ظل مظلمة شهباء اللون راحت "تبعثني" حيا من جديد. أراني الآن أتمشى داخل الاستديوهات الباريسية ونص السيناريو تحت ذراعي وعينين تكبران الشاشة وأنا بعيد عن زنقات القصة، عن رطانة وحدتي هناك وهول البطالة والفراغ سكنت باريس عقلي، فهمت إذن أنني إذا ما تخلّيت عن سخائها فالأفضل لي هو الموت. منذ ذلك اليوم لم تكن أمامي سوى فكرة واحدة: الذهاب تسلق الطائرة والتحليق بجناحي أنا»¹ إذن هي باريس بلد الآخر، التي يرى فيها نافع مكانا لتحقيق ذاته وحلمه بأن يصبح فنانا مشهورا، غير أن حلمه هذا تحطم على بوابة الغدر والخيانة.

ففي ظل توتر العلاقات الإنسانية، نجد الشخصيات الروائية تتدفع نحو الآخر بحثا عن الذات وعن الجنة المفقودة في الوطن الأم، تبحث عن عالم الخلاص من الجحيم المعاش، وهو الأمر الذي جعل من بعض الروائيين الجزائريين يقدمون صورا ومشاهد عن الهجرة الفردية والجماعية، فالبحث عن تغيير المكان بالنسبة لهذه الشخصيات هو تغيير الحالة من وضع مأساوي مزري إلى حال أفضل، وكثيرا ما أحدث ذلك «شرخا في البناء الأسري والروابط العاطفية بين الأفراد ولا سيما فئة الشباب، كما أن هذا التصدع طال أحيانا البناء الاجتماعي لهيكل الحياة الأسرية والقبلية وعلاقات الأفراد»² وكذا الجماعات.

وهذا ما نلاحظه في رواية "شرف القبيلة" يقول الراوي عن هجرة شباب القرية: «كانت القبيلة ترى في هجرة أبنائها علامة إخلاء "الشعبة السعيدة" التي تسكنها، فقد هاجر القبيلة عمر بن حسن أكبر نبيل ومبروك بن طفيل الابن الأصغر للولي المؤسس، و"أحمد الريحاني" ولم يتوقف تنازل عدد ذكور القبيلة: كان الجميع يعرف أنه لكي تستمر القبيلة

¹ – Yesmina Khadra: *À Quoi rêvent les loups*, p167.

² – عبد القادر شرشار: بناء الآخر والهنالك في الرواية المغاربية، ص 167.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

يتوجب على أفرادها التخلي بالقوة، ووضع مصير القبيلة، لا بيد أكثرهم حكمة، أولئك الذين يتلافون الخلافات والمنافسات العصبية، وبذلك فقد كان الجميع يعتقد بأن المصائب التي يمكن أن تصيب القبيلة لا يمكن أن تأتي إلا من الأجانب»¹، فالعلاقة بينهما محكومة بالعداء والكراهية.

إذن هذه الرحلة نحو الآخر محفوفة بالمخاطر، فغالبا ما تنتهي بالفشل، فتصطدم الذات بالحقيقة التي لا مفر منها، والتي مفادها أن الآخر ليس هو الجنة الضائعة، وليس هو المنقذ، وإنما هي رحلة بحث يائسة عن ذات ضائعة، لا يمكن أن نجدها في الآخر وإنما يمكن للآخر أن يساعدنا على فهمها وهذا ما يسهل الطريق لإيجادها، غير أن عملية البحث هذه تجري مصحوبة بمشاعر القلق والإحباط الذي يكشف عن مأساوية الرحلة نحو الآخر بحثا عن السعادة الوهمية والأمل الضائع.

إذن فمختلف تمظهرات العلاقة بين الذات والآخر، نجدها ماثلة في ثنايا الثقافة الإنسانية لاعتبارات «دينية وتاريخية وجغرافية إذ يغدو الأنا رمزا للوطنية المسحوقة المقاومة في مقابل الآخر الذي هو رمز التعدي والهيمنة بمختلف أنواعها وهو موقف اصطنته الأنا عن الآخر»²، إذ أن كل حضارة راقية تنشئ علاقة تراتبية أو هرمية تستعيد من خلالها ما عداها من الثقافات المهمشة لتنفرد بالتفوق والقوة في تجلياتها السياسية والعلمية والاقتصادية والعسكرية «فمن طبع المتفوق أن يحافظ على تفوقه وتقدمه المادي والفكري ومن طبعه أيضا أن يتمركز لتقوم حوله الهوامش الثقافية على سبيل الإذعان والاعتراف بالشوكة والعظمة وأن يبسط سيطرته على جميع الأطراف التي يتحكم فيها أو يصبوا إلى امتلاكها»³، وهو أمر طبيعي مادام في سياقه الصحيح.

¹ – Rachid Mimouni: *L'Honneur de la tribu*, p135.

² – محمد شوقي الزين: الذات والآخر، كتاب مشترك بين دار الضفاف ببيروت ودار الأمان الرباط، ودار الاختلاف الجزائر، د.ط، د.ت، ص09.

³ – بوعلام صوافي: محددات الأنا والآخر، ص20.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

إن الذات في حاجة دائمة إلى الآخر، والآخر هو بدوره في حاجة دائمة للذات بعيدا عن فكرة صدام الحضارات التي جاء بها "صامويل هانتجتون" والذي يقول: «ومع ذلك فإن العرب والصينيين والغربيين ليسوا جزء من أي كيان ثقافي إنهم أصحاب حضارات، وهكذا فإن الحضارة هي أرفع تجمع ثقافي للبشر وهي أشمل مستوى للهوية الثقافية لا يفوقه من حيث تحديده للهوية الثقافية إلا الذي يميز الإنسان عن غيره من الأنواع الأخرى، ويمكن تحديدها أو تعريفها بكل من العناصر الموضوعية مثل اللغة والتاريخ والدين والعادات والمؤسسات»¹ وكذا بالتمايز الذاتي .

فعلى الرغم من الدعوة إلى الذوبان في بوتقة الإنسانية الجامعة الملغية للفوارق والاختلافات، وعلى الرغم من أنه لا يمكن أن ننكر وجود مواطن اتفاق بين الذات والآخر وقد يرتبط هذا الأخير بعلاقات حميمة طيبة مع الذات، إلا أن الأمر يظل معادلة وهمية كاذبة، لا أساس لها من الصحة، لأن الآخر ما سمي آخر إلا لأنه مختلف دوما عن الذات معاكس لها، وصلته بها قائمة على الخلاف والنزاع ومختلف أشكال الصراع والتوتر، وحب الذات لدى كليهما يجعل كل واحد منهما معارض للآخر .

ج- الآخر الأهلي:

الذات والآخر من المسائل التي طرحت وتطرح في المنظومة الفكرية والفلسفية والأدبية، والرواية هي أكثر الأنواع الأدبية احتفاء بها، من حيث هي ظاهرة ثقافية و«الثقافة نقطة تقاطع الذات مع الآخر دون الأخذ في الاعتبار ثنائية التأثير ولا ثنائية الأخذ والعطاء»²، ثم كونه الفن الأقدر على تجسيد ملابسات الحياة، والخوض في «قضايا

¹ - صامويل فليب هانتجتون: الإسلام والغرب وآفاق الصدام، تر: مجدي شرشر، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، ط1، 1995م، ص09.

² - حمودي محمد: جدل الأنا والآخر في المتن الجزائري المعاصر، بوح الرجل القادة من الظلام لإبراهيم سعدي أنموذجا، الملتقى الدولي حول السرديات أسئلة الهوية في الخطاب السري، المركز الجامعي، بشار، 2010م، ص 237.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

الهويات والخصوصيات الحضارية بما يستتر من إمكانات في إعادة تشكيل المرجعيات الواقعية والثقافية وإدراجها في السياقات النصية»¹ المناسبة لها.

فهذه الأعمال التي تقدم الذات "الأنا" في علاقتها الاجتماعية والسياسية، في البلد الواحد والشعب الواحد والأمة الواحدة، وداخل هذه الذات تظهر صورة الأنا والآخر، قد تكون الثنائية المرأة / الرجل، الغني / الفقير، الحاكم / المحكوم، الأمي / المتعلم، يقول عبد القادر شرشار: «غير أن جدلية الأنا والآخر، لا تعني بالضرورة الأنا العربية وأن الآخر يمثل الغرب، ففي "إبراهيم الكاتب" لإبراهيم عبد القادر المازني، نرى أن الآخر يمثل الريف، وقس على ذلك الأنا في رواية "الحرافيش" "لنجيب محفوظ" حيث يمثل الأنا ساكن الحارة، والآخر هو سكان الحارات الأخرى»²، فالآخر هو دائما المختلف عن الذات .

وعلية فالروائي الجزائري يقدم في نصوص إبداعاته صورا تعكس الواقع المعيش الذي يحكم ويؤصل لخصوصيات المجتمع الجزائري لحظة استعادته لمقومات السلطة والتحرر ووقت الدخول في معتركات البناء، والعلاقة بين الذات والآخر داخل المجتمع الواحد، حيث تشتد الصراعات وتتلون بين السر والعلن في مجابهة صريحة وحفية تهوى السيادة والقيادة وتأبى الخنوع والدونية.

ج-1- الآخر الأهلي المتطرف:

إن العلاقة بين النص الأدبي والواقع علاقة ضبابية، وخاصة أن القارئ في الكثير من الأحيان لا يبتعد عن أيديولوجيته ومنطلقاته الفكرية والثقافية، ولأن الفعل الثقافي الواعي «يتأسس وفق فكرة الحوارية وتقبل الرأي المخالف دونما تخف وراء النص الأدبي أو وراء القراءة من أجل تصفية حسابات أيديولوجية ضيقة»³، فإن سبر أغوار النص لا يرقى إلى المستوى المطلوب، وربما يعود ذلك إلى خوف الروائي من الوقوع في الأحكام الجاهزة

¹ - حمودي محمد: جدل الأنا والآخر في المتن الجزائري المعاصر، ص237.

² - عبد القادر شرشار: كتابة الآخر في الرواية العربية المعاصرة، ص151.

³ - بوعلام صوافي: محددات الآخر والآخر، ص138.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

«والتصنيفات الرعناء»¹ التي تجعل النص ينأى عن الجمالية والشعرية كونه يصبح نقلا حرفيا للواقع، وبذلك تنتقي عنه صفة الأدبية.

فأدب الأزمة كما اصطلح على تسميته سقط في كثير من نصوصه في فخ الواقع «والأحكام الجاهزة ضد الآخر دون تحسس لوجوده ومحاولة لفهم منطلقاته وأسباب سلوكه ومن ثم متطلباته، بوصفه إنسانا حرا»² يحتاج إلى الحوار والمعاملة بالحسنى إذا ما أريد التفاهم معه.

والملاحظ على الأعمال الأدبية التي أرخت لفترة العشرية السوداء ظهور شخصية الآخر المتطرف، حيث تتبعت هذه الأعمال تظهر هذا الآخر، وأبانت السياق السياسي والاجتماعي والثقافي الذي أوجد هذه الشخصية في الواقع ومن ثم في النص السردي حيث «يصير النص الأدبي عنصرا من عناصر الواقع، وليس صورة له أو انعكاسا له»³.

ففي ظل الأزمة التي عصفت بالجزائر في مطلع العقد الأخير من القرن العشرين «برزت ثقافة التطرف والتطرف المضاد لدى قسم كبير من الجزائريين»⁴ بشكل جلي لافت للنظر، وقد نجم كل ذلك عن التحول بعد أحداث أكتوبر 1988م، إذ بدون مقدمات تفاجأ المواطن بالوتيرة السريعة للانتقال من النظام السياسي الموجه إلى نظام تعددي منفتح فسرعة الأحداث وتلاحقها نشر الفوضى والتطرف، وعدم تقبل الرأي المخالف من هنا نشأت الأزمة التي سيطرت عليها لغة العنف، وأحكمت سيطرتها مخلفة دمار البلاد والعباد والأدب «بوصفه فعلا ثقافيا يرصد الظواهر ويضفي عليها بعدا فنيا جماليا، لم يترك الأزمة

1 - بوعلام صوافي: محددات الآخر والآخر، ص 138.

2 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3 - حسن الواد: قراءات في مناهج الدراسات الأدبية، دار سراس للنشر، تونس، ط1، 1985م، ص32.

4 - بوعلام صوافي: محددات الآخر والآخر، ص138.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

تمر دون محاولة مقاربتها فظهر ما يسمى بأدب الأزمة وأدب المحنة، وخاصة في جنس الرواية¹، التي احتفت به واهتمت به اهتماما كبيرا.

سنحاول في هذا المقام صب الاهتمام على الآخر المتطرف لا كشخصية دينية بالتركيز على المظهر والدين فقط، وإنما بالتركيز على شخصية الآخر المنعك «من رق المحرمات الثقافية التي تكبلها، أقوال المحرمات الثقافية وليس الدينية»²، فمن المتعارف عليه أن الآخر هو المخالف الأجنبي في الأيديولوجيا أو في اللغة أو الدين، حتى ولو كان قسما من الذات ينتمي إليها، إذ أنه وفقا «للمعيار الماركسي تتمثل الذات في البروليتاريا في حين يتمثل الآخر في البرجوازية الوطنية والاستعمار أو الإمبريالية»³ في حين ترى أن «الليبرالية فتحبس الأنا فيها والآخر في الشمولين حيث تستند الشمولية إلى أيديولوجية واضحة، وذات نظرة شاملة لكافة نواحي حياة البشر، فضلا عن سعيها الدائم إلى هدم المجتمع المدني برمته»⁴، في محاولة لاكتساب سلطة كاملة على حياة المواطن.

ولعل السمة البارزة هي الحضور المكثف للآخر المتطرف في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية التي اشتغلت على تيمة العنف، بحيث حاولت الكشف عن دور السياسي «بكل توجهاته في حياة الجزائريين مع التركيز على المتطرف الديني بوصفه عايش الضياع الاجتماعي والضياع الثقافي والفكري مما أحدث لديه اختلالا في البنية الفكرية والنفسية بفعل الإحباط»⁵ الذي ناله جراء فشل الشعارات الشمولية التي ترفعها بعض التنظيمات حيث حدث تصادم حاد بين القوى الصاعدة شعبيا وبين السلطة الشعبية، وهو الأمر الذي أدى إلى

¹ - بوعلام صوافي: أشكال الكتابة الروائية بين 1990م-2000م، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة وهران، 2006م-2007م، ص22.

² - حازم خيرى: الآخر في مواجهة الذات العربية، دار مصر، المحروسة، القاهرة، مصر، د.ط، 2007م، ص27.

³ - المرجع نفسه، ص29.

⁴ - فرانسيس فوكوياما: نهاية التاريخ وخاتم البشر، تر: حسين أحمد أمين، مركز الأهرام للتر: والنشر، القاهرة، مصر، د.ط، 1993م، ص37.

⁵ - بوعلام صوافي: محددات الأنا والآخر، ص142.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

خلخلة المفاهيم، فبرزت ظاهرة العنف التي نمت لتتطور من العنف اللفظي إلى الإكراه في «تصنيف الناس والحكم عليهم، فإذا لم تكن معي فحتما أنت ضدي»¹ ليلبغ العنف أقصى درجاته وهو القتل.

لقد وجد الفرد الجزائري نفسه في مفترق الطرق إما اتباع التيار المتطرف أو الموت لأنه خالفه، ومن بين ضحاياه الطبقة المثقفة يقول الراوي في رواية "تيميمون" «فيما كانت عصابات الحشاشين تفرض وجودها من خلال العنف فلا تقتل إلا المثقفين الأبرياء والمواطنين البسطاء عشوائية وعمياء وما إن أعود إلى الجزائر حتى أتيه وأفقد توازني وحس الواقع، كنت أغير مسكني مرتين في الأسبوع وأعيش في حالة حذر وخوف واحتراس رهيب»²، وكذا قوله: «تسبب انفجار قنبلة وضعها الأصوليون في مطار الجزائر العاصمة في مجزرة خلفت تسعة قتلى وأكثر من مائة جريح في حالة خطيرة»³، وهو مشهد يظهر أن الإنسان أصبح يمارس القمع دون «أن يعلم، ويتجلى ذلك في عملية تغيب الآخر ورفضه بشتى الوسائل حتى بالقوة، وذلك من أجل غاية سياسية ضيقة»⁴، منحصرة في السيطرة وفرض الذات.

إن الانقلاب الذي شهدته الجماعة يثير في النفس التساؤل حول انتماء هؤلاء الذين لا يظهر عليهم أبدا أنهم ينتمون لهذه المدينة أو لهذا البلد، فلا علاقة تربطهم به ولا رابط بينهم وبين أجدادهم، ولعله السبب الرئيسي في انقلاب كيان الشخصية المنتمية للجماعة طبعاً إنه الآخر، الذي يهدد هويتها على الدوام، مما جعل ردها عليه يكون عنيفا متطرفا، توسلت فيه التفسير من الآخر في جل خطاباتها، فهذا الآخر المعادي لها يشكل مع السلطة الحاكمة آخرا يمارس تهديدا لها لذا فلا فرق بينهما ماداما وجهان لعملة واحدة.

1 - بوعلام صوافي: محددات الأنا والآخر، ص142.

2 - رشيد بوجدر: تيميمون، ص70.

3 - المصدر نفسه، ص64.

4 - بوعلام صوافي: أشكال الكتابة الروائية في الجزائر، ص200.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

فكل تهديد لوجود الكيان يجعل الجميع في دائرة الرفض، بسبب الصراع القائم بين الجماعة والسلطة، واستخدام الأولى كافة الوسائل والأجهزة لقمع الثانية بغية كشف تطرفها ومنطلق الصراع هو رفض السلطة الحاكمة الجماعة كشريك سياسي له الحق في اعتلاء مقاليد الحكم، وبهذا يتأكد عجزها عن فهم تفكير المواطن الذي تساس أموره، معبرة عن صورة الجماعة الرامية إلى إحكام القبضة على الحكم ومن ثم بناء الجماعة الدينية.

إن الذات الباحثة دوماً عن كيانها الضائع وسط الفوضى تكتشف أثناء توغلها وسط الجماعة أن ما يظهر توحداً في مظهرها الخارجي يخفي في جنباته انقساماً وانفصلاً يقول الراوي: «بنفس الصفات: بحواجب منخفضة أكثر من تفكيرهم، الرأس الحليقة النظرة الجامدة، اللحية المنتفشة، بهم غضب وعنف لا يتراجعون أبداً للخلف يستغلون الظلام للتجمع والتدرب على مساحات خالية أو في الغابات، هنا تتحرر الألسن ويبدأ الكلام عن السيوف والسواطير وعدة الحرب وكتائب مبهمة»¹، حيث أن البنية الفكرية لهذه التنظيمات مختلفة مما يجعل منها جماعات يقول الروائي في رواية "بماذا تحلم الذئاب؟" «برزت الكثير من الجماعات التابعة للفييس ومنها "جامعة الهجرة والتكفير" الجناح الأكثر تطرفاً في الحركة والتي بنت لنفسها سمعة مشؤومة يقوم أتباعها بالتغلغل في الحركة داخل الشرائح الاجتماعية الفقيرة، بعمليات التجنيد في أوساط المعذبين والمكبوتين، باستهواء الآخرين بحماسهم وعزمهم، يصفونهم في كل مكان»²، وهذا التعدد والاختلاف فتح الباب على مصرعيه للتعدد الفكري المحكوم بقاعدة النقل لا العقل، ليطفو الاختلاف على السطح.

والاختلاف هنا لا يعني قبول المخالف للجماعة ومصالحها وإنما الأمر يستدعي التنافس إلى حد الاقتتال داخل الجماعة من أجل السيادة والسيطرة ترجح فيه كفة الفريق المدعوم بالسلاح وسيلة التغيير الأولى «الجيش الإسلامي للإنقاذ هو عش العقارب يا ابني

¹ - يasmine خضرة: بماذا تحلم الذئاب؟، تر: عبد السلام يخلف، دار سيديا، سلسلة فسيفساء، مطبعة مورغان، 2014م، ص ص 121-122.

² - المصدر نفسه، ص 121.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

إنهم بغاة، أي راضين، إنهم يلعبون كل أشكال التواطؤ ويغازلون حتى إبليس إذا ما سمح لهم بأن يلمسوا ركنا من عرشه، هؤلاء الناس متقلبين وديماغوجيين ومهرة في الحسابات، إنهم انتهازيون مقنعون في ثوب الخيرين، ذئاب في جلد أغنام، قارئین للسعد ولا يملكون من هدف سوى تنويم الضعفاء فوق الأشواك وإيهامهم أن المعجزات تقف أثناء النوم، إنهم أبشع من الطاغوت الذين هم حلفاء لهم، إنهم يوظفون الدين من أجل غايات تجارية وبفاوضون من أجل الحصول على حصتهم من الكعكة مع اللصوص الرسميين ولا يهتمهم الباقي...»¹

يعري النص الوجه الآخر للمتطرف، وينزع عنه قناعه ليظهر وجه الحقيقي إنه وجه مغلف مبطن بالدين، لقد تسربل الكل برداء الدين متخذاً منه مطية لبلوغ السلطة تحقيقاً لمصالحهم ولا يهتمهم ما سببوه للذات، فقد أبادوا العقل وأباحوا كل الشعائر مادامت توصلهم إلى الهدف المنشود.

وفي هذا الصدد تقوم مليكة مقدم بنقد الإسلام السياسي من خلال "الفيس" كما هو الشأن في هذا المقطع الذي يفضح المتطرفين الإسلاميين الذين عملوا على استخدام واستغلال معتقدات الناس وجهلهم لبث الرعب والهلع، حيث ورد في المقطع التالي نعتهم بأوصاف من قبيل أمراض مميتة ومزمنة، ووصفهم بالجراد كناية عن شراحتهم وإحداثهم للدمار أينما حلوا، غير أن سلطنة لا تتخدع بهم لأنها أكثر من عرف فيهم كرههم النساء المتجذر منذ طفولتها: «هم-الجميع هنا يقول هم؛ حينما يتعلق الحديث بجماعة الفيس. إنهم في الآن نفسه جراد، جذري وتيفوس، سرطان وجذام، طاعون سيدا الأذهان، إنهم مرض مستوطن انبثق من أعماق البؤس والهلع، اللذين تكيسا داخل قدرية وجهل البلاد.

¹ - ياسمينة خضرة: بماذا تحلم الذئاب؟، تر: عبد السلام يخلف، ص315.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

-هم لا يخيفونني! مهما كانت العمامة التي يتسترون تحتها اليوم، إنهم ليسوا إلا وجوه الحقد التي رعبت طفولتي، إن الأنظمة والأحزاب تعيش تهرم وتموت، أما كره النساء فيبقى لاصقا بالذهنيات، يتغذى بالهزائم ويتقوى»¹.

فالمتطرف شخصية متعصبة لرأيها تحتكر فهم الدين وتلغي الآخر المختلف عنها وتهدد بتصفيته، تعيش في الماضي ملغية الحاضر كونه بدعة، يتنامى تطرفها منتهايا إلى القتل والاقتتال يقول الراوي: «أننا مللنا سيركم وأننا لن نطيع أبدا حساباتكم، لن نعود إلى أشغالنا العادية، إلا بعدما يفهمون للمرة الأخيرة بأننا لا نريدهم، بأن لنا من التدريب ما يمكننا من أخذ زمام أمورنا بأيدينا دون مساعدة منهم، لقد ولى عهد الآثام. لقد استعادت أرضنا قداستها من جديد، لم يعد لهم مكانا بيننا، ما داموا يرفضون اتباع طريق الله، فليذهبوا إذن إلى الجحيم»²، وكذا قوله: «تمدد على الرصيف رجل وجهه نحول الأسفل ورأسه مهشمة-لا ينظر، صرخت زوجة عمر في اتجاه ابنها.

-دعاه ينظر، قال الأب، يجب أن يتعلم كيف تحدث الأشياء في بلاده، هل رأيت يا موسى؟ هذا ما حصل لأعداء الله، نظر الطفل مطولا إلى الجثة الهامدة.

-أبي، إنه ينزف.

-حتى الكبار يجرحون أنفسهم حين يتدحرجون قالتها الأم في محاولة يائسة، حين أقول لك احذر حين تجري في الشارع كي... .

-ما الذي تقصينه عليه يا امرأة؟ هذا الحقير لم يتدحرج، انظر جديا يا ولدي لقد أطلقوا عليه النار، إنه كافر، ومارق، عاقبه المجاهدون، لقد قتلوه...لقد أعدموه!

الرجل الذي تم اغتياله دركي بزي مدني، ابن الحي»³، فهذا السلوك العنيف الذي طال الأطفال، يؤكد مدى تطرف أعضاء الجماعة، ومدى رفضها للآخر وعدم قبوله.

¹ - مليكة مقدم: الممنوعة، تر: محمد ساري، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2008 م، ص136.

² - Yesmina Khadra: À Quoi rêvent les loup, p92.

³ - Ibid, pp 148-149.

إن هذه الجماعات المتطرفة مؤلفة من الشباب الكادح، الذي عانى من الظلم، إنه شباب ينتظر الفرصة التي تتاح له ليثبت ذاته إنها مغامرة يدخلها باحثاً عن ذاته التي مزقتها الأزمات ليجد نفسه أمام تهديد آخر ومستغل آخر، إنه الآخر الأهلي المتطرف الذي سيحكم قبضته على هؤلاء من أجل استغلالهم يقول الراوي: «لقد طلبناكم لأننا على علم بكل ما تعانونه على مدار اليوم... لقد وقع اختيارنا عليكم أولاً بسبب استقامتكم، ثم لأنكم بحاجة إلى العمل لتلبية حاجات أسركم»¹، فالآخر المتطرف بفعلته هذه دمر القيم الثقافية والإنسانية.

والشخصيات المتطرفة هي شخصيات جمعها الفشل الذريع في الحياة الاجتماعية والانكسار السياسي، فدفعهم ذلك للانسحاب من الحياة الطبيعية واللجوء إلى العنف والتطرف، لتتحول إلى ذوات لا تعي ما تفعل، ولا تدرك نتائج فعلها فهي لا تفكر «في العالم الخارجي إلا عدواً مباحاً، ولا تعتقد معه صلة إلا من خلال فعل القتل»² والتدمير.

هناك أمر يجب الإشارة إليه هو صورة نساء الجماعات المتطرفة إنهن يجسدن مبدأ الاختلاف والمغايرة، بحيث لهن لباس خاص وشكل خاص وطقوس خاصة في المشية والخروج من المنزل: «سعل "عمر زيري" وهو يفتح باب منزله، السعال هو طريقة إخطار المارة بخروج النساء لذا عليهم التنحي من الطريق... زوجة عمر شكل إنساني تقريبي منقب بتشادور»³، فالراوي يقدم نساء الجماعة في صورة قاتمة باهتة فقدت بريقها، إنهن نساء حبسن داخل لباس أسود فرض عليهن، لا تملك المرأة الحق في مناقشة القرار أو إبداء الرفض لأنه متى رفضت ستدفع حياتها ثمناً لذلك.

كما حدث "لحنان" أخت "نبيل" لأنها رفضت الانصياع لأوامر أخيها بترك العمل ووجوب ارتداء الحجاب لكنها تمردت فكانت جثة هادمة بضربات سكين أخيها في المظاهرات التي نظمها النسوة «حوالي مائة امرأة حملن اللافتات ورحن يلتصقن ببعضهن ببعض في الساحات تحت النظرة الساخرة للعابرين، هجم نبيل على الحشد، دفع بمرفقه وعنف كي يشق له طريقاً... الشيطانة! هل تتحداك؟ هذه البغية تتجراً على التحقير من

¹ – Yesmina Khadra: *À Quoi rêvent les loups*, p144.

² – الشريف حبيلة: الرواية والعنف، دراسة سوسيونصية في الرواية الجزائرية المعاصرة، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2010م، ص265.

³ – Yesmina Khadra: *À Quoi rêvent les loups*, p147.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

سلطتك... شق جمع النساء مثل كاسحة للجليد وراح يفتش ويفتش. في لحظة تخيل نفسه وهو يحمل قاذف اللهب ويحرق جماعة البغيات... أسقط امرأة أرضاً، دفع الممرضات ضرب كل من حوله مثيراً بداية ما يشبه الهلع، من وراء مجموعة من المتظاهرات رأها. كانت حنان هناك واقفة، مقولبة داخل التنورة التي يملكها لمحتة متوجه نحوها... أدخل يده في شقة قميصه، أغلق قبضته على الخنجر... فاجرة، فاجرة... طعن تحت الثدي، هناك حيث تختبئ الروح الضالة، ثم في الخاصرة وبعدها في البطن»¹، إذن المتطرف لا يفرق بين القريب ولا البعيد المهم عنده أنه مخالف لما يعتقد، هذا يكفي لكي يبني ذواتاً بل مجتمعاً بأكمله.

إذن الآخر الأهلي المتطرف شخص ركب مطية الدين ليبلغ أهدافه، فقد كشفت النصوص عن زيف هؤلاء وتدينهم الشكلي الذي حصر في الاهتمام بالمظهر، والشغف في استعادة الماضي القديم لا في شكل الحياة فحسب وإنما في كافة المجالات، ليصبح الواحد منهم أسير الماضي الذي يختارونه هم، فينتقون منه ما يخدم فكرهم ومصالحهم غير أن الراوي ومن خلفه المؤلف على علم بزيفهم وزيف تدينهم ها هو "سيد علي الشاعر" يحذر نافع وليد منهم «احترس من أولئك الذين يأتون كي يكلموك عن أشياء هي أهم من حياتك. إنهم يكذبون يريدون استعمالك. يكلمونك عن مثل عليا. عن تضحيات جسام ويعدونك بالمجد الأبدي مقابل بعض القطرات من دمك، لا تصغ إليهم، تذكر دوماً هذه الجملة، لا وجود لشيء يعلو على حياتك هي الشيء الوحيد الذي يجب أن يكون له معنى لديك لأنها الثروة الوحيدة التي هي ملك فعلاً»².

وهنا يتجلى موقف الراوي الاستنكاري الراض لكل أشكال الممارسة الصدامية والعنف الدموي الذي مارسه المتطرف باعثاً في الذات الرعب والخوف، فعلى الرغم من انتماء المتطرف لوطن الذات وتقاسمه معها العادات والتقاليد وربما تجمعها بها علاقات قرابة إلا أنه ضرب بعنف من غير هوادة لا لشيء إلا لأنه يأبى قبول الآخر المخالف له.

¹ – Yesmina Khadra: *À Quoi rêvent les loups*, p116.

² – Ibid, pp 96-97.

ج-2- الآخر الأهلّي الانتهازي:

النص هو المجال «الذي يمارس فيه كاتبه الانزياح الدلالي لينفتح أمام آفاق القراءة عن طريق اللغة المكثفة التي تعدو مثل الجبل الجليدي»¹ الذي يخفي خلفه غموضاً، فهناك العديد من النصوص التي اشتغلت على التاريخ ولكنها ليست روايات تاريخية متخصصة وإنما هي روايات تهتم بفكرة الصراع بين الأجيال التي خلفها الواقع، حيث نجد جيل متمسك بشرعية ثورية اكتسبتها من مشاركتها في الثورة يرى نفسه الأحق بالحكم، وأجيال الاستقلال التي تعلمت وتأثرت بالنموذج الغربي في التداول على الحكم، وهذه التيمة نجد لها حضوراً في أغلب الروايات التي صدرت في العشرية السوداء، فمن رحم الأزمة ولد جيل حاول كسر الممنوع وذلك بالاشتغال على جل المواضيع التي قد عدت من الطابوهات لدى الأجيال السابقة.

فإذا كانت شخصية الخائن والعميل للمستعمر قد حضرت بغزارة في روايات الثورة فإنه هناك شخصية أخرى لا تقل أهمية عن سابقتها سجلت حضورها في المتون السردية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، غير أن حضورها كان محتشماً نظراً لعدم التفات الروائيين لها إنها شخصية الآخر المستغل الانتهازي الذي يتحين الفرص ويستغل الظروف محاولاً أن يبدو من أعضاء الثورة لينتقلد بعد الاستقلال المناصب، فالظروف كانت إلى جانبه ووضعه مصادفة على مسرح الأحداث، ليصبح واحداً من الثوريين، مما يمكنه أن يتقلد مناصب للحكم فما هو الراوي في رواية "السيمورغ" يبرز نموذجاً لهذه الشخصية يقول: «كان هناك إسكافي راح يتعاطى التجارة المشبوهة ولم يعمل سوى في الأشياء المشبوهة، وبمعجزة وجد نفسه غداة الاستقلال يجلس على رأس فرع بنك الدولة»²، فلقد منحته الصدفة منصبا مرموقا.

¹ - بشير بويجرة: الأنا والآخر، منشورات دار الأديب، وهران، د.ط، د.ت، ص 129.

² - محمد ديب: السيمورغ، تر: عبد السلام يخلف، ص 180.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

أما الصراع التاريخي فيجسده "محمد" أحد شخصيات "شرف القبيلة" محمد الذي غادر القرية باتجاه فرنسا ليعيش هناك ردحا من الزمن ها هو اليوم يعود لينال حظه من القسمة، سينصب واليا على قرية الزيتونة يقول الراوي: «بما أنه طلب منا تقديم مرشح، فقد رشح "محمد" بالإجماع وبعد أسابيع على ذلك عاد إلى الزيتونة بلباس كافي... يشبه الجنود الذين حاربناهم»¹، إنه الآخر ممثل السلطة المركزية المحلية التي حاولت الهيمنة والسيطرة على القبيلة، بحيث أن الاختيارات الجديدة للمتعضشين إلى السلطة ترسم حدود التمثيلية الهادفة للاندماج السريع في سلك المتهافتين على السلطة يقول الراوي: «لقد عرفت جهات العالم السبع وعبرت البلدان التي يمشون فيها على رؤوسهم وتلك التي يأتي فيها الشتاء صيفا والصيف في الشتاء، وتلك التي يكون فيها الليل نهارا، والنهار ليل، ولا يمكن لسكانها إلا أن يموتوا بالجنون، وقد أصابتهم عدوى الضحك»²، وكذا قوله: «من سيقود البلد بعد الآن؟ أولئك الذين سيختارهم الشعب.

أناس مثله ومثلي، كجلول الحداد وعيسى الأعرج أو جورجو... هل يقدرون؟ وهذا ما يقلق»³، فالكل أصبح طامعا طامحا إلى السلطة، إنهم ينتظرون الفرصة ولن يضيعوها أبدا.

إن أحلام قرية الزيتونة تتبخر ومحاولتها لاستعادة شرفها المغتصب تفشل لأن "عمر المبروك" رمز السلطة المركزية سيحكم عليها بالتكر نهائيا لميثاق الشرف اليومي يقول الراوي: «عليكم أن تعلموا بأن الثورة لم تتساكم ذلك ما أعلن عنه خلال قدومه، ولم نكن نعرف ما كان ينتظرنا»⁴ وكذا قوله: «لا يمكن القول بأنكم نسيتم، وتخلت عنكم الثورة من الآن فالمستقبل بين أيديكم، وسنبني جميعا هذا البلد، ونجعل الازدهار يهيمن عليه، وسيتورد

1 – Rachid Mimouni: L'Honneur de la tribu, p25.

2 – Ibid, p71.

3 – Ibid, p151.

4 – Ibid, p11.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

كل ما حولكم وتعود ابتسامات الأطفال كما كانت في الماضي إلى الشعبة السعيدة»¹، هو إذن خطاب السلطة المركزية كما عرفته جزائر بعد الاستقلال لينفجر انتفاضة عارمة مدمرة في أكتوبر.

إن تسلط الآخر الأهلي يظهر في الرواية من خلال "عمر المبروك" الانتهازي الذي جند الكل لصالحه ولضمان خدمة مصالحه يقول الراوي: «إذا تذكرت دروسي، لن يكون عليك خلال الانتخابات المقبلة التظاهر بحملة ففي جميع ملاحق الجماعة، سأوزع أمكنة اختلاء سحرية، تخرج بالضرورة اسمك كيفما كان التصويب المدلى به»²، يصور هذا المقطع حال قرية الزيتونة التي أصبحت تحت سطوة عمر المبروك وجبروته.

لقد أحكم "عمر المبروك" قبضته على السلطة، فأصبح هو الأمر الناهي، ليحدد لعبة الديمقراطية الموهمة بحرية الاختيار ولكن الحقيقة غير ذلك، فأهل القرية أمام هذه الوعود المعسولة التي تصطدم بأبسط الأشياء القريبة من قريتهم، والمتمثلة في استرجاع أراضيهم التي غادرها المعمر وأمتها الدولة، بحجة أن رسومهم قديمة وأنها لا تعطيهم الحق في أراضي منتزعة أو بيعت أو تخرى عنها أصحابها، وضمت قانونيا إلى ممتلكات الدولة، هذه الأخيرة التي اقترحت عليهم العمل في أراضيهم كعمال فلاحين، إنها قمة الاستغلال وقمة الانتهازية التي تعني اغتنام الفرص من أجل تحقيق مكاسب وأهداف قد تكون غير شرعية بطرق بعيدة كل البعد عن المبادئ والقيم الإنسانية النبيلة، لتتحول لنوع من اللصوصية.

فالانتهازي لا يهتم الذات ولا ما يلحقها المهم بلوغ الغاية، لكن هذه الصفة لما تكون موجودة في المثقف الفنان لا يمكن قبولها فهذا "مراد بريك" فنان ومثقف صديق قديم لنافع وليد، يستغل فرصة ملاقاته لهذا الأخير وعلمه بأن "نافع" يتحرق شوقا للذهاب إلى فرنسا لتحقيق ذاته وحلمه فينصب عليه ويأخذ ماله يقول الراوي: «ما يحز في نفسي أكثر هو أن

¹ – Rachid Mimouni: *L'Honneur de la tribu*, p95.

²– *Ibid*, p108.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

أرى فنانا يغير وجهته بمائة وثمانين درجة، مراد بريك، محتال... ممثل موهوب ينحط للقيام بمثل هذه السلوك المشينة؟ أنا خجول من أجله ومن أجل السينما، هذا عمل بشع بشع... يبدو أنه تحايل على زملاء آخرين»¹، فالراوي هنا ينتقد الآخر، من خلال استهجانه لهذه الطرق غير السوية والأصولية التي تتوسل وتتحين الفرص لاستغلالها أبشع استغلال مدفوعة بحب الذات وتحقيق المصالح الشخصية.

إن "أنا" السارد الساخطة على هذا الآخر "الشيوخ الأصوليون" وأتباعهم الذين صمموا وصرحوا بأنهم سيناضلون، لأنهم يرفضون الحكم المالك للسلطة، فهو يثير فيهم حالات من الاشمئزاز والغثيان، هو الآخر المقنع الذي وإن كان ينتمي إلى سكان وأهالي هذه المدينة إلا أنه ملعون ومستتكر يقول الراوي: «للشيوخ معرفة جيدة بقول الأشياء، حتى أن أولئك الأشياء لا ينتبهون إلى تلك اللافتة التي تحمل الشعارات الإسلامية وقد عوضت لافتات المطعم الصغير... بالطبع في بلاد يعد فيه تغيير الرأي والنفاق شيئاً بسيطاً، فلا "عمر زيري" ولا مطعمه الوسخ يستأهلان التوقف عندهما»²، فإيراد مثل هذه الشخصيات "عمر المبروك" "عمر زيري"، "السيد راجا" في السرد دليل واضح على نقد الذات للآخر المخالف لها والحامل لقيم منافية للقيم الأصيلة التي نشأت وترتبت الذات في كنفها.

إذن هو الآخر المعاكس الحامل للأفكار المسبقة وللمؤامرات الدنيئة الذي يشكل لنفسه هوية للاختلاف عن طريق التحايل والتلاعب بالامتلاكات والذهنيات، والاختلاف المقصود هو «الذي يبعد الموجود وينقله نحوه، كما هي عبارة "هيدغر" في الهوية والاختلاف، وهذا لا يعني أننا أمام توحيد لا يصلح بين الأضداد وإنما يعرضها أمامنا متباينة مجتمعة في لحظة الحضور ذاته وأمام وحدة لا تتوخى لحظة التركيب واختلاف لا يرتد إلى التناقض وهوية لا تؤول إلى تطابق»³، هوية الآخر في مقابل هوية الذات التي

¹ - ياسمين خضرة: بماذا تحلم الذئاب؟، تر: عبد السلام يخلف، ص 187.

² - المصدر نفسه، ص 148-149.

³ - محمد رسول: محنة الهوية مسارات البناء وتحولات الرؤية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، دار فارس للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2002م، ص 34.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

نجمت عن الشعور بالقهر والعدوان، ونتاج عدد من الأزمات والهزات التي أحدثتها جملة من التحولات في النظم الاجتماعية والسياسية والثقافية، وهو الأمر الذي تسبب في خلق مفاهيم جديدة ذات طابع سلبي مثل التمايز والغير والاختلاف، وهي في شموليتها تدل دلالة واضحة على العنف من حيث هو «مفهوم لا ينفك منذ أول أمره مقترنا بعدة مفهومية خاصة... فإنه لا ضير من الإدلاء بجملة من الملاحظات الأولية متعلقة بعلاقة العنف بتلك المفهومات وهي بخاصة الحق والقانون والسلطة والقوة».¹

فالقانون المصادق عليه من قبل أطراف عليا متعلقة بالسلطة قد يخضع لغايات تحمي حقوق الأقوى من الانتهازيين عوض أن يمثل قواعد ثابتة هدفها سلامة المواطن، وهو الأمر الذي تعبر عنه رواية "شرف القبيلة"، قرية الزيتون تضررت من ممارسات عمر المبروك، هذا الأخير بسلطته المجسدة للقوة والعنف بافتعال قوانين تهدف إلى تمكنه من خدمة مصالحه واستنزاف خيرات الشعب المغلوب على أمره، فبعد أن سن قوانين تمكن من خلالها من الاستيلاء على أراضي قرية الزيتون بقوة القانون، هذه الأخيرة التي إذا ما فكرت في رفع شكواها إلى الدوائر العليا، فهي تصطدم ببيروقراطية منع الزيارة والقوانين المتعسفة التي تغلق أحد مقاهي القرية بسبب تافه، إن الأمر شبيه بما كان يحدث بالأمس فأخر اليوم شبيه بآخر الأمس، لا فرق بينهما يقول الراوي: «يشبه قضاة اليوم قضاة الاستعمار، فهم يستعملون نفس اللغة»²، وفي هذا دليل على غياب التواصل بين الذات والآخر المحلي الذي أصبح يشكل خطرا على الذات أكبر مما كان عليه الأمر بالنسبة لعدو الأمس.

ومجمل القول أن الذات على الرغم من العلاقة العدائية التي تربطها بالآخر سواء كان غريبا أو أهليا، إلا أنها تظل في حاجة ماسة لتواجهه ولا يمكنها الاستغناء عنه، فبناء الذات وفهمها يعتمد على فهم الآخر.

¹ - فتحي المسكيني: الهوية والزمان، تأملات فينومولوجية لمسألة النحن، دار الطباعة للنشر، بيروت، ط1، 2001م، ص77.

² - Rachid Mimouni: L'Honneur de la tribu, p155.

المبحث الثاني: رحلة البحث عن الذات في الآخر

تتطلق الرحلة مع الراوي في رواية "محمد ديب" "السيمورغ" أثناء وقوفه متأملا لمشهد الطيور المهاجرة، حيث يقول: «كانت تمضي، كانت تمضي. هناك في العلو، ليس على ارتفاع كبير»¹، فهذه عادة موسمية لدى الطيور، فحركة طيرانها تستلزم رغبة في المغادرة أو خوف من شيء معين، إلا أن طيرانها هذا لم يكن بعيدا عن المكان الذي كان يقف فيه الراوي، وهو الأمر الذي جعله يتساءل عن سبب هذا الجنوح إلى الأرض عند كائنات كيفت أجسامها مع فضاء الجو أهو تذمر من الجو أم هو تذمر من الشمس أو هو حنين إلى مكان الولادة والفناء؟

إذن بدأت الطيور الرحلة التي كانت مدفوعة لها، فهناك شيء ما قد ناداها يقول الراوي: «هناك شيء ما تكلم في مكان ما حدثهم جميعا، لم يكن ذلك ممكنا لكنهم سمعوه يتكلم عن بعد ويركضون نحوه من بعيد، هناك في العلو في الأجواء»²، فهذه الاستجابة الجماعية في زمن محدد ومكان غير محدد تظهر مدى عظمة الفاعل فعلى الرغم من عدم تعارف الطيور إلا أنها استجابت للنداء المجهول استجابة فورية جماعية يقول الراوي: «طيور لم يعاشر بعضها بعضا أبدا بل كانت تتقاتل فيما بينها، ذهبت جنبا إلى جنب. لا لم يكن الأمر طبيعيا، حتى أن الفصل لم يحن بعد»³.

فهذه الطيور التي يحكمها قانون الغابة البقاء للأقوى، اجتمعت ووحدت كلمتها على الهجرة على الرغم من أنه لم يكن قد حان موسم هجرتها بعد وهو فصل الصيف، وهو الأمر الذي أشعر الراوي بالدهشة والحيرة وهو يقف مشاهدا متفرجا على هذه الطيور معاتبا الشمس التي لم يعرها يوما اهتمامه، محاولا فهم الدافع الذي نمت عزائم الطيور وحملها على المضي والتقدم إلى الأمام، مستخفا بما تنازلت عنه وخلفته في طريق سفرها الطويل نحو المجهول

¹ - محمد ديب: السيمورغ، تر: عبد السلام يخلف، دار سيديا، الجزائر، ط1، 2011م، ص15.

² - المصدر نفسه، ص15.

³ - المصدر نفسه، ص18.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

يقول: «لمعت الشمس وعاد إليها بريقها كما كان الحال في الماضي، كما لو أن أمرا لم يحدث، لست مباليا بك، كما لو أن أمرا لم يحدث، احتفظ نور النهار بشيء من العتمة بحلقة كسته من على الظاهر، بيد أنها، أي الطيور ذهبت بعيدا، راحت تركض آخذة معها ظلالها بعيدا إلى حيث يستحيل أخذها، ذلك ممكن حقا أمنحك تذكرتي، تركض مخلفة دائما ظل ظلها وراءها، أتان منتسبة إلى حيوانات صغيرة تفر تاركة ذيلها وراءها تترك في قلبك ما يشبه الأمل واليأس».¹

يتحول الراوي إلى طائر فيلتحق بالركب ليقاسم الطيور نصيبها من المشقة بعد أن كان متفرجا معلقا على ما يراه وهو موجود على الأرض يقول: «مدينة "السيمورغ" هنا وهام هنا، من هم؟ نحن! نحن كإوز العاصمة كما سبق للقدماء أن قالوا»²، وهذا يعكس مدى تطلع الراوي إلى الارتقاء والسمو الذي تتمتع به الطيور دون غيرها، باعتبارها حرة في الأجواء بعيدة عن مواطن الذل والهوان "الأرض"، فراح ينسب لهاته الطيور والتي صار واحدا منها، ما نسب قديما إلى طيور الإوز التي أنقذت روما النائمة من "غارة ليلية شنها الغاليون les Gaulois لتقدم قربانا للآلهة الزواج الرمانية جونون Junon ويحتفظ بها في الكابيتول le Capitole"³، فهل يا ترى هذا معناه أن الراوي ينشد من يخلصه ويخلص أبناء جلدته مما هم فيه؟ أم هو المخلص؟ فهل من المعقول أن يكون آملا وقربانا في ذات الوقت؟ يلقي الراوي نظرة على ما حل بأصحابه فيقول: «بقي منا إثنا عشر من آلاف الذين ذهبوا. ماذا؟ أصحح ما كتبت: من ملايين الملايين، بالأحرى! يا للهيئة التي أبدو عليها أنا كذلك، تبا كالأحدى عشر البقية، فراخ بائسة حقيرة، بي يصل عددها اثني عشر، تحمل ريشا فوق العظام، تتخذ من ذلك الفجر البازغ معبرا لها».⁴

1 – Mohammed Dib: Smorgh, p13.

2 – Ibid, p13.

3 – Nouveau petit Larousse illustre, libraire Larousse, paris, 1949, p710.

4– Mohammed Dib: Smorgh, p14.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

لقد اختار "ديب" هذا العدد "اثني عشر" لما له علاقة بما جرت عليه العادة في التقاليد المسحية والتي أصبحت محل تقليد لدى المجتمعات الأخرى في بعض النشاطات التجارية كما هو الحال في المبيعات من الأواني والألبسة أين يكتسي هذا العدد la douzaine طابعا مميزا، كما يعتقد أن له علاقة بحواري المسيح عيسى عليه السلام، أضف إلى ذلك توظيفه لدى شعوب عديدة منذ القدم.

يتطلع الراوي إلى تكملة العدد المجسد للفداء منذ أزمنة سحيقة متوجها صوب مطلع الفجر وهو يحلم بعهد جديد عهد المولد للرفاق من أجل دخول القلاع المحصنة، قلاع الذات المنغمسة في فكرة الخلود، التائهة في فلك العالم الصغير عالم الأبدان الضعيفة والنفوس الحائرة.

ينتقل الراوي إلى الإعلان والبوح بسر لم يسبق له أن باح به من قبل يقول: «إن كان من الواجب قول الحقيقة، فإنني لم أكن فيما مضى على أحسن حال مع ذاتي، تغيرت، لن أقول لا، لكنني سأبقى دائما من أكون ب.ا.ع (S.N.P) إني ب-ا-ع حتى وإن جهل الآخرون، الأحد عشر ذلك بلا اسم عائلي، لقيط معتوه، ذلك هو اسمي، لم أعرف نفسي بغير ذلك الاسم أبدا، لأن الأمر كذلك، أمين»¹، وهذا دليل على تصالح الراوي مع ذاته بعد تحوله إلى طائر يطمح إلى ما هو أبقي، غير أن هذا لم ينسه الاعتزاز بماضيه الذي جرّده من اسم يعرف به، ليحوّله إلى مهاجر بلا عنوان، مسافر بلا قبيلة ينتمي إليها، إنه في الحقيقة يأسف لماضي الذات ويسعد بمستقبل الاسم، بل أكثر من ذلك يدعو لاسمه المفقود بأبدية الزوال.

فالحدود الفاصلة بين الأزمنة تمحى عند الراوي وجماعته، فالماضي كالحاضر ولحظات الترقب شأنها شأن أزمنة السفر، والخوف يتلاشى كلما تباطأت عجلة الزمن ويحدث هذا فقط عندما تنتقل الزعامة والسلطة من الجسد إلى الروح التي جعلت الكمال قبلة

¹ – Mohammed Dib: Smorgh, p15.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

لها حيث يقول: «ستنتظر الأبدية أو بعض لحظات لن تخيفنا، ما قيمة ذلك مقارنة بما بذل من وقت للوصول إلى السيمورغ».¹

يواصل الراوي وجماعته الرحلة إلى أن يصلوا المدينة وهامهم يخوضون حوارا مع الحاجب، ليتمكنوا أخيرا من أخذ موافقته للدخول لمقابلة السيمورغ، يلجون غرfa كثيرة هاهم قد توقفوا في غرفة ليجدوا أنفسهم أمام المرأة، فيرعب الراوي لما ألم به: «يغيب أحدا عن النداء، لا يظهر على الصورة، إنه أنا».²

فغياب صورته من على المرأة والتي من المفروض أن تكون حاضرة، يدفعه للتساؤل كيف تثبت صورته في الواقع وتختفي في مرآة الواقع؟ أهذا راجع لغياب اسمه أم لأنه ليس سيدا لمنزله؟ وهذا لم يكن حاله بل كان حال بقية الطيور يقول متحدثا على لسانها: «ونتشغل كلنا، وقد أصيب كل واحد منا بالذعر نتيجة اختفاء صورته في الشاشة الشيطانية، ننشغل بالبحث عن صورنا مقتلعين ما تبقى من ريش، كم سندوم المهزلة؟ لا فائدة من المسألة بعد الآن»³، فلقد تحولت رحلة البحث التي بدأتها الطيور إلى رحلة البحث عن الذات المفقودة وبهذا يتحول مركز الاهتمام فبعد أن كان منصبا على مقابلة السيمورغ يتحول إلى محاولة لاسترجاع الذات الضائعة.

إن ما يطبع رحلة البحث عن الذات كما يبدو هو الشك والحيرة حول حقيقة الذات فها هو الراوي يدهش لحقيقة مروعة، وهي قدوم ما لم يكن قد خطر بباله يوما يقول: «إنه شيء عجيب متحرك ومتحول، إنه جمال غريب من طبيعة قريبة منك. ومن أنت؟ أو بالأحرى من أنت وأنا، وأن ب.ا.ع منفعل أتعلمون: يمر المجهول مجتازا أحلامك ليأتي إليك

¹ – Mohammed Dib: Smorgh, p17.

² – Ibid, p19.

³ – Ibid, p20.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

أيها الشخص المسكين يا من يفتح عينه جيذا فجأة فلا يصدق أن يراه قادما مبتسما، إنه هو إنه أنا، إني السيمرغ»¹.

إذن تعود ذات الراوي الضائعة في هيئة تبعث الحيرة والدهشة فيه وتزيده إرباكا لكنها رغم كل ذلك تفك عقده، فهو يدرك الآن أن صورته قد اتحدت مع صورة السيمورغ لترقى إلى درجة الكمال، ومن المفترض أن يحدث هذا لباقي الذات، فرحلة البحث المتعبة التي خاضتها الطيور هي رحلة من طبيعة أخرى موضوعها البحث عن ذات مفقودة في فضاء مرآوي لا حدود له.

ينتقل الروائي للحديث عن شيء آخر في خضم رحلة البحث عن الذات، يقول الراوي: «القصيدة مرآتنا عندما نرغب في ذلك لكنها بحق مرآة مظلمة لأناس غامضين نحن من يمثلهم، ولا نضع قناعا إلا لينظر إلينا، تعرف القصيدة ذاتها بذاتها، لكن لن يجديها ذلك في شيء، بنفس القدر الذي لن يجدينا أمر التعرف على ذاتنا في المرأة، ولا التعرف على أنفسنا بذواتنا»².

إذن الخل لا يكمن في المرأة وإنما يكمن فينا، فكل ما هو موجود فينا غموض يحجبه غموض، وقناعنا زيف-نحن زيف، وليست القصيدة مؤشر إدراك لصاحبها فالغموض صفة ملازمة لصيقة بعمل الأديب الذي ساهم في إضفاء ميزة الواقعية على عمله.

ينتقل السارد للحديث عن الذات والقدر في معرض حديثه عن تأملاته بما وصفه بالشيطاني (Diabolique) حيث راح يعلل أسباب لجوء إنسان اليوم إلى أسلوب الافتراض Virtuel والاستتساخ Chonage، يقول بنبرة تهكمية ساخرة: «كيف تم الوصول إلى ذلك؟ بأي ذكاء تائه؟ أكون مرد ذلك تخوف فصيلة البشر المفاجئ في البقاء، وعلى وجه الخصوص

¹ – Mohammed Dib: Smorgh, p20.

² – Ibid, p22.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

فصيلة الغربيين الدنيا؟ لم يكن الإنسان دوما هنا، يدرك الإنسان ذلك جيدا، ولد الإنسان مزودا بقدر، إنه قدر ذاته، كيف تجرأ على الإفلات من قدره؟ وكيف يستطيع فعل ذلك؟ إنها رغبة منه في أن يفلت من نفسه إن استطاع ذلك! ومع ذلك يظن أنه متحكم في زمام الأمور منذ فترة وجيزة، يظن أنه وجد منفذ الخروج أو المسلك أو الهروب الحسن في الافتراضي تحت هيئة مستنسخ. مستنسخ لا غير ذلك، بلى، الإنسان مكر! إنه تقريب مثيل للقدر الذي ينحدر منه والذي بوسعنا أن نقول إنه ترقى تحت هيئة التفكيرية الإنسانية، أيمن أن يكون بمثل تلك السذاجة مع كل ذلك الذكاء؟ وأن يكون قد فقد كل احترام للنفس بقدر ذلك الاستعراض الفاخر وأن يكون قد هوى إلى أسفل سافلين جالبا لنفسه قدرا من المجد؟ وأن يقدم على اللعبة التي يجعل فيها من الخاسر رابحا بذلك القدر من الطيش والغفلة؟ أن يخسر بمثل ذلك القدر ظانا أنه رابح بنفس القدر؟ من المؤكد أن يكون الإنسان بحكم كونه إنسان مصابا بمرض مرده الذات¹، إذن الإنسان يحمل وسيلة ضياعه بيده، تلك الوسيلة التي رسمها عقله الموجه إلى الحيلة والصناعة، رهانه في ذلك تحدي القدر ومحاولة الهروب من ذاته.

فالتحدي الذي رفعه الإنسان محصور في حدود عالمه الصغير عالم الذات الذي ما فتى يحاول الإفلات منه، إلا أنه لا يمكنه ذلك، لقد تأكد أن كل شيء يكمن فينا، وأن رحلة البحث عن الذات مرهونة بنقطة انطلاق أساسها التطلع، وهي النقطة التي تكبر في مخيلة ووجدان الإنسان فتجعله يندفع موجهها من قبل رغبات مخيفة تقوده إما إلى الفناء، وإما إلى التقدم.

يحاول "ديب" في موضع آخر عقد مقارنة بين المدن والآثار ليتوصل من خلال ذلك إلى الكيفية التي يتم بها معرفة الذات والاهتداء إليها، ففي نصه "مدن زرقاء" يتحدث عن المدن الجزائرية والمدن الأمريكية الميته ويجري مقارنة بينهما جاعلا بالإمكان منح الحياة

¹ – Mohammed Dib: *Smorgh*, pp24-25.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

للآثار كونها تقف شاهدا على حضارات متعاقبة اندثرت لبلد هو بلده الجزائر ذلك لأن في عودته إلى تلك الآثار عودة إلى الذات حيث يقول الراوي: «وأنا أعيد صعود شوارعها لا أعيد الصعود إلا إلى نفسي وناحية ذاتي».¹

إن الراوي يؤمن بإمكانية سلب الحياة من المدن الزرقاء وهي المدن الأمريكية ذات المعمار البهي كونها من غير تاريخ فهي جوفاء وبالتالي هي فارغة، فموت هذه المدن سببه النسيان والغياب «بمجرد أن يؤول مصير مدينة إلى الإفلاس وتصبح محل هروب، وتغدو منتصبة في مكانها ومرفوضة بشكل من الأشكال»²، أما الحياة التي تعم الآثار الجزائرية مبعثها الذاكرة والحضور الدائم وهو ما يجعل «الجزائريين يقتنعون بمدنهم طالما لم تفرط فيهم»³ فهي دائمة الحضور في ذاكرتهم بما تحمله وما تحيل عليه.

فأمام تبدي الذات وغيابها يصبح الفضاء ببعديه الزماني والمكاني علامة اهتداء وهو حال الآثار الجزائرية التي ترمز إلى فضاء العيش وضياح الذات وإيجادها في الوقت نفسه وكل ذلك يتبدى عبر استنطاق الماضي ومخالفته الحياة العالقة بذهن الراوي بقدر علوقها في صخور المدينة الأثرية التي تخفي رموزا إنسانية، فالمدن الأثرية بالنسبة لنا تعد عاملا من عوامل انبعاث الذاكرة والعودة إلى الذات.

¹ – Mohammed Dib: *Smorgh*, pp28–29.

² – *Ibid*, p32.

³– *Ibid*, p32.

المبحث الثالث: الأنثى بين سيطرة الآخر ومحاولة إثبات الذات

لقد كانت المرأة ولا زالت في التصور غير العادل الأقل أهمية في ثنائية الآخر (الرجل) الذات (الأنثى)، في ظل العنف والبحث عن الذات الإنسانية المسلوبة راحت المرأة تشق طريقها، والجة عالم الكتابة الروائية لتثبت نفسها، إيماناً منها بأن الآخر لن يقدر عكس مشاعرها الأنثوية والتعبير عنها لا شيء سوى لكونها «مخلوقاً قاصراً رغم الثقافة والتعليم والمسؤولية (...)» فصفا الأنوثة تشكل قيذا للمرأة¹، وهو الأمر الذي جعلها تحمل على عاتقها لواء تحرير المرأة من الخضوع للسلطة الذكورية المتوارثة بين الأجيال، والعاملة على اضطهاد النساء. فالمرأة المبعدة سعت لرصد واقعها المهمش والمعتم، وكشف أزقتها المتقلبة وإضاءتها، لتتحول بذلك إلى ذات نصية.

"فسيمون دي يوفرار" تجعل «تعريف المرأة، وهويتها تتبع دائماً من ارتباط المرأة بالرجل، فتصبح المرأة الآخر، (وموضوعاً ومادة)، يتسم بالسلبية بينما يكون الرجل ذاتاً سمتها الهيمنة والرفعة والأهمية»²، وهو ما أرق المرأة الكتابة، وجعلها تحس بأن هناك ما يهدد وجودها، وينذر بخطر هلاكها ويعمق شعورها بالاغتراب وعدم القدرة على تحديد كينونتها، وعدم القدرة على الإجابة على سؤال الهوية المتمركز حول الذات «أن أعرف من أكون يعني أن أعرف الموقع الذي أحتله»³، وهذا ما يمكن المرأة من تحديد هوية جديدة نابعة من الذات.

تؤكد الناقدة "لويس إيرلفاراي" حاجة المرأة لتمثيل ذاتها وتكوينها لتتغلب على عجزها «أنه ينقصها شيء ما (سواء بالمعنى الاجتماعي أو الجنسي)، وهو ما يمتلكه الرجال وتستحق النساء بكل إنصاف أن تحصل عليه المكانة الاجتماعية والحياة العامة، والحكم

¹ - صالح مفقودة: المرأة في الرواية الجزائرية، دار الهدى، عين مليلة، ط1، 2005م، ص27.

² - حفناوي بعلي: مدخل في نظرية النقد النسوي وما بعد النسوية، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2009م، ص98.

³ - مجموعة من الأكاديميين العرب، الفلسفة النسوية، إشراف وتحرير عبود المحمداوي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2013م، ص342.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

الذاتي والاستقلال والهوية المنفصلة»¹، لأن المرأة حسب -إيرلفاري- تحمل ذاتا منكرا ومجموعة في الخطاب الأبوي.

لقد حاولت الكاتبات من خلال هذه الروايات الاحتجاج ضد الاجتماعي والسياسي، والرفض الكلي للنظام الاستعماري من جهة، وللسلطة الذكورية من جهة أخرى كما تعد «الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية في المغرب العربي انتصار يقينيا للاستعمار ففي طريق مواجهته والتصدي له، تمكن هذا الأدب من الوصول إلى النضج والعالمية»²، كون أعمالهن غزت الساحة الأدبية والإعلامية في ذلك الوقت، حيث حملت هذه الإبداعات أحاسيس ومشاعر، الغضب، الثورة، الرفض، فكانت الكتابة النسوية في الفن الروائي خاصة نقلا لخبايا النفس وانفجارا لصمت دام طويلا.

فالحديث عن الآخر الرجل في مقابل الذات المرأة، هو حديث عن ثنائية متضادة الأطراف، أحدهما الذات المرأة الخاضعة لسلطة الآخر على اعتبار أن التاريخ والثقافة والعرف والتقاليد يرجح كفة الهيمنة لصالحه في مقابل تلاشي الذات الأنثوية تحت جناحيه. إن المرأة تقدم محاولة جدية لاكتشاف الذات بعيدا عن الأنماط الجاهزة والمتوارثة وذلك عبر ولوجها عالم اللغة والكتابة الروائية، باعتبارها أقدر الأجناس الأدبية على استيعاب هموم المرأة وتقريغ انشغالاتها الذاتية والموضوعية، مانحة إياها الفرصة لإعلان حضورها المستقل عن الآخر، والإعلان عن أنها المبدعة، بإعادة تشكيل لغة تتناسب وطموحاتها. لقد أصبحت المرأة المبدعة تنافس الرجل في ارتياد عالم الكتابة بمختلف أجناسها خاصة الرواية متخذة من وجودها المضطهد ومن علاقاتها الجنسية بالآخر موضوعا رئيسا في بلورة كتاباتها.

¹ - جون لينشه: خمسون مفكرا أساسيا ومعاصرا من البنيوية إلى ما بعد الحداثة، تر: فاتن البستاني، مراجعة محمد بدوي، دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2008، ص330.

² - Jean Dejeux: *Situation de la littérature maghrébine de Lange française*, p139.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

فالمرأة في العقلية الذكورية المهيمنة الكائن المستضعف الذي لا يقوى على حماية نفسه، ولا يتمثلها إلا بالانطواء تحت رحمة الآخر الذي ينظر إليها على أنها شيء من الأشياء الخاصة به، وهو ما أسهم في عبودية المرأة الجسدية أو الاقتصادية أو الأسرية وبالتالي ركنها على الهامش بحكم هيمنة قيم ومعتقدات وأفكار وسلطات متحيزة تتعامل مع المرأة جسدا ومتعة.

فمن المؤكد أن المرأة خلقت عالمها الكتابي بجسدين «جسد بيولوجي محسوس وجسد لغوي، نلمس مفردات جسدية المرأة وبيولوجيتها، كما نلمس مزية هذا الجسد، ومجازاته التي تتركها الألفاظ المشعة في النص»¹، المرأة تنسج عالمها الأنثوي عبر اللغة، لأن الكتابة عن الجسد بالنسبة لها «اكتشاف لجسدها بوصفه قيمة تستمد منها غناها، ويجب استرداد حريتها وملكيته له باعتباره عنوان هويتها الأنثوية، وأساس كينونتها ووجودها»²، لذا نجده يحتل مساحة واسعة في الكتابة الروائية لدى المرأة الكاتبة، باعتبار الجسد مساوي للهوية الأنثوية عند المرأة.

وفي هذا الصدد تبرز روائية جزائرية أخذت على عاتقها البحث في قضايا المرأة بواسطة الحكي من أجل تغيير المنظومة الثقافية، وتحرير المرأة من سجن القمع والظلم الواقع في حقها، بالإضافة إلى أنها أنثى عانت بسبب جنسها كثيرا، فقضية المرأة في الأعمال الأدبية والروائية بشكل خاص تتناول مشكلة خضوع المرأة واضطهادها (...) أما معالجة الأصناف الأدبية لموضوع المرأة فيتميز بالحرية في التناول والجرأة في الطرح وإغفال الصورة المثلى للمرأة كما يتخيلها الروائي.

¹ - الأخضر بن السايح: سرد المرأة وفعل الكتابة، دراسة نقدية في السرد وآليات البناء، دار التتوير، الجزائر، 2012م، ص 176-177.

² - مفيد نجم: الجسد في السرد النسوي: "استعادة القيمة الغائبة للذات" علوية صبح، نموذجا، مجلة نزوى، صدرت عن مؤسسة عمان للصحافة والنشر والإعلام، العدد 72، 2012م، نسخة إلكترونية <http://www.nizwa.com>

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

إنها آسيا جبار أو فاطمة الزهراء التي ارتبط أدبها بالمقاومة والاستقلال، لتخوض بعدها دروبا جديدة من أجل البحث عن خلاص المرأة الجزائرية خاصة والتي تتلاقى مشكلاتها مع المرأة في العالم العربي.

تعالج الروائية في رواياتها "بعيدا عن المدينة" قصص مجموعة من النساء حاربن من أجل افتكاك حريتهن، حيث قاومن بشراسة الأنظمة الذكورية التي سعت لطمس معالم تواجدهن بالمدينة وشبه الجزيرة العربية، وقسمتها إلى أربعة فصول أولها بعنوان: "الحرية والتحدي"، حيث يبرز التحدي في قصة الملكة اليمينية التي استطاعت بدهائها أن تحرر قومها من حكم أسود وكذلك سلمى ابنة شيخ غطفان والتي أعتقتها السيدة "عائشة" رضي الله عنها، غير أن هذه الأخيرة ارتدت بعد وفاة الرسول ﷺ وقادت جيشا وقف يحارب جيش المسلمين إلى أن قتلت على يد خالد بن الوليد، وقد ترك مشهد مقتلها أثرا في نفسية خالد ليثير نوعا من الإعجاب لصمود هذه المرأة، وقد اختارت الكتابة عبارات تليق بتصوير هذا المشهد:

«بسلاح في اليد، وحتى بسلاح غير ظاهر، إنها قادرة، بنظرة عينيها، وبضحكتها المستفزة التي تقول: "اقتلني" وهذا ما سحر خالد على الرغم من قدرته على قتلها هذه المرأة. تسقط سلمى أمام القائد وربما بكفية تريد فيها إخضاعه.

سلمى تعني "أنقذ" هي إذا تحية ملكة بني غطفان المختارة».¹

أما الشخصية الثانية التي حملت السلاح في وجه سلطة المدينة هي سجاح المدعية النبوة هاته المرأة التي تمكنت من حشد عدد كبير من القبائل في وجه خالد الذي أحس بخطرهما ومدى توقعها للانعتاق هذا الشوق للتحريّر يمثل تهديدا لسلطة المدينة.

«من جديد، امرأة عاصفة هائجة، بصعوبة تتحول السماء إلى سماء مشرقة، وهذا غريب بالنسبة لرجال خالد فحريتهم غير المسيطرة عليها مهددة من طرف امرأة».²

¹ – Assia Djebar: loin de medine "Filles d'Ismaël", Enag édition, Algérie, 2 ed, 1991, p 341.

² – Assia Djebar: loin de medine "Filles d'Ismaël", p47.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

لتجد نفسها في نهاية المطاف وحيدة منبوذة من طرف مناصريها فتختفي بمدينة الموصل مع ثلة من أتباعها، وتقول الروايات أنها أسلمت بعد ذلك، وما تضيفه الرواية لسجاح في ثورتها التمردية من أجل الحرية، تفوقها في فن الخطابة، والذي يعد سلاح أخطر من السلاح الحربي، فـ «قوة سجاح الأساسية وذات الأثر الباقي عبر الزمن تكمن في بلاغتها وفصاحتها وقدرتها الفائقة على إدارة الكلام، وإتقانها الجيد للغة العربية نثرا ونظما».¹

أما الفصل الثاني المعنون بـ: "خاضعات غير خاضعات"، فقد حوى قصص مجموعة من النساء على صور مختلفة، بعضهن قبل بحياة الهامش عن قناعة أو على مضمض وأخريات حتى وإن كن يحملن بعض الروح التمردية إلا أنهن يبدين بعض الطاعة. ومن اللواتي حواهن جدار الصمت، من أطلقت عليهن الكتابة "من تزوجن بعد المعركة، والأمر هنا يتعلق بأم تميم التي ظلت مجردة من كل حضور وفعالية، فبعد مقتل زوجها "مالك بن نويرة" على يد "خالد بن الوليد" يقودها قدرها إلى خيمة قاتل زوجها كزوجة لتجد نفسها موضع تنافس بين "خالد" و"عمر"، لتقاطع قدرها مع زوجة أخرى كان لها بالغ الأثر في تراجع مكانة "خالد": «الزوجة الجديدة بدت أكثر إثارة في نظر القائد لا لكونها الأجمل (...) أو ربما بكر (...)» إذ كانت هذه الزوجة أكثر مالا من أرملة "مالك"، فلكون المهر الذي طلبه والدها يقدر بمبلغ باهض² لكن الغريب في الأمر انه تم إغفال أي مؤشر حولها فحتى اسمها بقي مجهولا.

بعدها تأتي قصة المطلقة، ممثلة في ابنة النعمان التي كانت فريدة بين قومها بني كندة والتي ظلت موضوعا للرغبة، التي وجدت في طلاقها خلاصا من ظلم زوجها وتحررا

¹ – Assia Djebar: *loin de medine "Filles d'Ismaël"*, pp 47-48

²– *Ibid*, p107.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

من السلطة الذكورية التي لا ترى فيها سوى جسدا للمتعة، ف «شبح امرأة أصبحت حرّة، حرية مضاعفة جاءت من رفضها لسلطة الزوج وبالتالي سلطة الرجل».¹

في الضفة المقابلة تتقل لنا "آسيا جبار" صورا لأولئك النسوة غير المطيعات، بدءا بمغنية الأهاجي "كرامة النصرانية" و "المكافحة"، وكل واحد منهما كانت لها طريقتها الخاصة في التمرد، غير أن مغنية الأهاجي حمل حضورها طابع رمزي، فقد بلغت أغانيها المتحدية للسلطنة المدنية الآفاق، ألهمت حماس المحاربين، فأشعارها كانت تردد في خيام بني كندة وحلفائها في حضرموت وما جاورها وتعظم خطرهما كونها كانت تغني أشعارها، ف «أشعارها متناقلة بين الناس، أعمالها المثيرة للجدل مشهورة خارج قبيلتها، إنها كثيرة ومتقنة.

مغنية الأهاجي أصبحت الجزء المحبوب في المقاومة، فكان الشعر من الأسباب المهمة والقوية في شهرتها، فالشعر العربي يحتل دوما مكانة مهمة... هذه المرأة المبدعة التي شكلت أشعارها خطرا كبيرا أضف إلى ذلك أنها تغنيها».²

ولكن للأسف ألقى جيش خالد عليها القبض، وكلف مهاجر بن أمية بتعذيبها وذلك بنزع أسنانها الأمامية، وقطع يديها في مشهد رهيب، أظهرت فيه المرأة جلدا منقطع النظير جعل جلادها يغتاض منها وهي تلعن تحديها لكبريائه.

«سأغني بيدي، سألعنهم بيديا، بيديّ المقطوعتين، أغني، لن يستطيعوا تطويق صوتي...».³

وعلى الرغم من شهرة هذه المرأة ومعرفة قومها لها إلا أنه لا يعرف لها اسم حتى المؤرخ الطبري لم يذكر اسمها، وإنما عرفت بأوصافها المتمثلة: «امرأة مشهورة شاعرة، شاعرة مقهورة إن لم يكن اليوم فبعد اليوم وكذا الحدث بعد الحدث هذا الذي ضمن سحر رباعياتها التي قاومت الزمن وتجمعت كلها ضد العدو.

¹ – Assia Djebar: *loin de medine "Filles d'Ismaël*, p131

² – *Ibid*, p133.

³ - *Ibid*, p138.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

هذه المرأة المبدعة تجعل من شعرها خطرا وتزيد من خطره في كونها تغنيه أيضا»¹.
غير أن مجهولية الاسم لم تشكل عائقا أمام المرأة، ولم تمنعها من أن تمنح لنفسها وجودا خالدا، خلود الكلمة فقد تمكنت من أن تعرف عن ذاتها بشعرها، وتتحدى به سلطة الذكر.

لقد كانت رواية "بعيدا عن المدينة" رواية صوت النسوة اللواتي لفهن النسيان واللاتي أغفلن من قبل التاريخ لتأتي الكاتبة في محاولة منها لتميط اللثام عن بعض هذه الحثيات فقد اختارتها الكاتبة فضاء لرصد واقع المرأة المسلمة في بيئة حديثة العهد بالإسلام حيث لا زالت قوانين الجاهلية تفرض سلطتها على المجتمع، بالرغم من الجهود الحثيثة لرسول الله صلى الله عليه وسلم لغرس روح هذا الدين في قلوب من اعتنقوه.

ففي الفترة الحرجة من تاريخ الإسلام بعد وفاة رسول الله ﷺ وخلاف المسلمين حول من يتولى الخلافة، يبرز تيار معارض صوت نسوي رفض الانصياع والانقياد، رفض الرضوخ لسلطة المدينة ممثلة في "أبي بكر الصديق ﷺ"، إنها "فاطمة الزهراء" التي أعلنت تمردا على الهيمنة الذكورية الساعية للالتفاف حول أهم إنجاز حققه الإسلام لصالح المرأة والمتمثل في "الحق في الميراث".

يتعدى الميراث كونه مسألة مادية إلى كونه قد أعاد للمرأة العربية بعدها الإنساني حيث لم يكن ينظر إليها في الجاهلية إلا بوصفها تابعة للرجل، جزء من ممتلكاته سواء أكانت حرة أو أمة فلاحق لها ولا حرية لها في التصرف فيما يترك لها، وإنما محيطها الذكوري هو من يتكفل بذلك.

لكن الشرخ يحدث عندما تتعرض "فاطمة" لمحاولة حرمان من حقها الإلهي، نتيجة تفسير "أبي بكر الصديق ﷺ" لأحد أحاديث الرسول ﷺ والذي مفاده أن الأنبياء لا يورثون وما يتركونه هو صدقة، الأمر الذي جعل "فاطمة" ترفض رفضا مطلقا ما اتفق عليه المجتمع

¹ – Assia Djebar: loin de medine "Filles d'Ismaël", p133.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

الذكوري واصفة ذلك بأنه عودة إلى الجاهلية تقول: «أنتم كحد السكين على أعناقنا لأنكم تطالبون بعدم حقنا في الميراث، أنتم من دعوناكم المجاهدين تريدون تطبيق شريعة الجاهلية في حقنا».¹

وقد دام الخلاف بين الطرفين مدة طويلة كان المسجد مسرحا للجدل والاختلاف، غير أنه وبعد أيام يذهب "عمر بن الخطاب" و"أبي بكر الصديق" رضي الله عنهما إلى "فاطمة" في محاولة للحصول على موافقتها، إلا أنهما يحصلان على موافقة علي وكأن المسألة يمكن حسمها بين الرجال لتمثل أمامهما متجاهلة إياهما مؤكدة أن ما كسر لا يمكن إصلاحه ليتطور الموقف متحولاً إلى سجال بينهما، يحاول كل طرف فيه دحض حجج الخصم.

وهنا تبرز الذهنية الانتقادية لـ "فاطمة"، فتحاول إفحام خصمها بأن ذكرته بحديث آخر لرسول الله ﷺ يؤكد فيه أنه من يؤذي "فاطمة" فقد أذاه، فتجاوز ذلك إلى تحليل المسألة وفق منظور فقهي يبرز تعمق فعلي للقضايا الدينية «ألم يقل الله على أحد رسله يرث عني وعن عائلة يعقوب، أعلم جيداً أن النبوة لا تورث لكن ما عداها مسموح ويتوارث، قل لي لم أكون أنا وحدي من يحرم من ميراث والدي، هل قال الله في كتابه أن كل الناس يرثون من آبائهم سوى "فاطمة" ابنة "محمد"؟ أكشف لي هذا الحصر في كتاب الله وسأكون مقتنعة»² وهو جواب جعل "أبو بكر الصديق" ﷺ يشعر بالعجز عن تحمل الموقف الذي زرع الشك في الأساس الذي بنى عليه تفسيره للحديث النبوي فيقرر التخلي عن الخلافة، وبذلك نلاحظ أن كل «تسرب للمؤنث إلى الساحة الإسلامية يهز هذه الساحة ولعبتها، كما يمس مصداقية كل الفاعلين خاصة البارزين منهم».³

¹ – Assia Djebar: *loin de Médine "Filles d'Ismaël"*, p81.

² – *Ibid*, p86.

³ – فاطمة المرينسي: سلطانات منسيات نساء حاكمات في بلاد الإسلام، تر: فاطمة الزهراء أزرويل، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط2، 2006م، ص45.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

لقد شكلت قضية تحرر المرأة قضية محورية في الرواية إذ مثلت الهاجس الذي سعت مختلف النماذج النسوية لتحقيقه في فضاء يضيق بأحلامهن، لتأخذ المسألة أبعادا مختلفة باختلاف الشخصيات وسياقاتها، لكنها في أغلبها تصب في وعاء الرغبة في التحرر من الوصاية الذكورية.

فها هي الكتابة تجعل للتحرر بعدا مكانيا في قصة "أم كلثوم" حيث شكلت الحرية لديها هاجسا تسعى جاهدة لتحقيقه إذ أنها ترتحل من مكة إلى المدينة للالتحاق بمحمد ﷺ بعد أن أسرت إسلامها، لتعلن بعد ذلك تمردا على السلطة الأسرية ممثلة في أخويها اللذين سعيا لاسترجاعها، وبهذا تكون قد ثارت على النظام الاجتماعي الجائر الذي حرم المرأة من حقها في تقرير مصيرها وفرض عليها الوصاية الذكورية.

تقف "أم كلثوم" في تحد لرغبة أخويها، في تحد وإصرار أمام جموع المسلمين مذكرة الرسول ﷺ بمكانة المرأة في الجاهلية «يا رسول الله لست سوى امرأة وتعلم أن وضع المرأة هو دائما وضع الكائنات الضعيفة»¹، وكأنها أرادت القول بأن الإسلام لم يحرم المرأة، فلا فرق بين الجاهلية والإسلام، لينزل الله بعد ذلك آياته لحماية النساء المهاجرات في سبيل الله. يتكرر الموقف مرة أخرى عندما تقرر التحرر من سلطة زوجها "الزبير بن العوام" بعد عجزها مبادلتها المشاعر ذاتها مرددة مرارا وتكرار «سأرحل... يجب أن أرحل»²، وبهذا تكون قد أعلنت عدم خضوعها لأي سلطة تعوق تحررها وتحرمها من العيش مهاجرة في سبيل الله.

تخصص الكاتبة جزءا للحديث عن هذه القضية في "المحررة" متمثلة في بريرة التي تتحول من شخصية مغمورة لا ملامح لها إلى شخصية ذات وجود قائم بحد ذاته بعد أن حررتها "السيدة عائشة" رضي الله عنها، فعاشت حياة كريمة في البيت النبوي واضعة نصب

¹ – Assia Djebar: loin de medine "Filles d'Ismaël, p167.

² – Ibid, p175.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

عينها هدفا واحدا ووحيدا وهو خدمة البيت النبوي وقد خيرها صلوات ربي عليه بين العيش بمفردها والعيش مع زوجها الذي أعتقه سيّده، ترددت لكنها أجابت: «حرة ككائن حي، حرّ كامرأة، أستطيع بنفسني أن أختار أي رجل أريد أو أن أحيا بمفردي أو...»¹، بهذا تؤكد الكاتبة على أن الإسلام قد أعاد الاعتبار للمرأة بوصفها كيان اجتماعي له مطلق الحرية في تقرير مصيره.

ويظهر هذا المنحى بشكل آخر في "الأصوات" التي توزعت بين ثايا النص الروائي حيث توالى أصوات نسائية سردت تفاصيلها مكملة للمتن الروائي حول الفضاء الخاص بالنساء، غير أن الملفت للنظر أن جميع هذه الأصوات ترفض مبدأ الوصاية في سعيها لتقديم نفسها بعيدا عن الانتساب إلى محيطها الذكوري، سواء تعلق الأمر بالأب أو الزوج أو حتى الأبناء، ويمكن ملاحظة ذلك في قول "جميلة": «اسمي "جميلة"، أنا امرأة من المدينة، لا يهم اسم والدي، إخوتي أو أبنائي...»²، فوحده الإسلام من يمثل الهوية المرجعية لتلك النسوة.

لقد حاولت آسيا جبار من خلال هذه الأمثلة أن تبين أن المرأة قد استطاعت أن تجد حرّيتها المفقودة في كنف الدين الإسلامي الذي جعل منها كائنا إنسانيا بآتم معنى الكلمة وجعل له حقوقا وواجبات، معارضة بذلك كل متعصب يحاول حرمان المرأة من أبسط حقوقها.

إن رواية "بعيدا عن المدينة" عبارة عن مساءلة للتاريخ من أجل البحث عن الذات عبر الذاكرة الجماعية، محاولة التعريف بحقيقة التاريخ التي لا يمكن فصلها عن المرأة فالإلى جانب التاريخ شكلت المرأة العنصر الأساسي في أعمال "فاطمة الزهراء" أو ملاين، حيث رافقتها في بحثها الدائم عن نفسها، جاعلة منها الشخصية المحورية في جميع نصوصها

¹ – Assia Djebar: *loin de medine "Filles d'Ismaël*, p225.

² – *Ibid*, p125.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

متخذة من عناوين تلك النصوص فضاءات رمزية للتساؤل حول المرأة ووضعها على جميع الأصعدة.

فقد استندت الروائية إلى ما لعبته المرأة من دور هام لم يشر إليه في فترتي فجر الإسلام وكذا ضحاه، وهذا كان كافيا للتساءل في روايتها هذه عن بواعث إيقاف صوت المرأة لتضعنا أمام صورة المرأة العربية الراغبة اليوم في استرداد حقها المسلوب منها واستعادة مجدها المفقود عملا بالمبدأ الذي ينص على اختلال توازن المجتمع بل ضياع قيمته إذا ما غيّبت المرأة عنه.

لقد عملت "آسيا جبار" على البحث في ذاكرة نساء الجزائر من أجل إعادة الاعتبار للنساء والجزائر معا، وهو الأمر الذي شكل لديها هاجسا قويا دفعها إلى الاعتراف بهذا في أحد تصريحاتها قائلة: «تسعى كتاباتي لإعادة تأسيس ذاكرة النساء، إنها كما يبدو لي، سبيل بقائنا».¹

وما يمكن قوله إن الكتابة عند "آسيا جبار" توافق عملا في أوج حالة تشكله يطبعه تفكير مستمر حول عملية الإبداع التي تستمد دلالتها من ذات الكاتبة والذات الجمعية وتستلهم موضوعاتها من وضع المرأة الجزائرية بصورة خاصة والمرأة العربية بصورة عامة ذلك الوضع الذي راحت هي تسعى لقلبه على كافة أوجهه، تنتقل برشاقة وحكمة بين حقول الأدب والفن، وتخوض في سبيله مغامرة الكتابة بلغة الآخر عبر نص حياة تجمع فيه شظايا ذاكرة لا تعرف لنفسها مرجعية سوى كلمة المرأة المكبوتة.

تطالعنا كاتبة أخرى وضعت قلمها في خدمة قضية المرأة إنها الروائية مليكة مقدم بروايتها الموسومة "الممنوعة"، هاته الروائية التي عاشت آلام الروح وعذاب الفؤاد، لأن الآخر قتل روحها بصمته وجفاء حروفه، حطم آمالها في الحياة، لتتخذ من الكتابة صوتا

¹ - عزيز نعمان: آسيا جبار مسيرة حثيثة على خطى التاريخ والذاكرة، مجلة الخطاب، العدد 16، مخبر تحليل الخطاب، تيزي وزو.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

وتتنفسا تصرخ فيه لتبوح بمشاعرها تقول في نصها: «لم يكفيك تعذيب نساءك ورميهن في الشارع؟»¹، فالكتابة عندها نابعة من ذاكرة مثقلة بالتمرد، والبحث عن الحرية، وهي تكتب دون خوف متحدية الممنوع، في روايتها "الممنوعة" التي تفوح بعطر الرفض والتمرد فخلاصها كان من حروف عملها وحركة قلمها.

فبالجوء إلى الكتابة هو رفض للاستعباد، والصراع بقوة، وإعلان عن عدم الخنوع لسلطة الذكر، وهو الأمر ذاته بالنسبة "لآسيا جبار" التي تتطلق من قلق دائم حول وضع المرأة تكتب التاريخ بدءا من الذاكرة «وهو الخوف من النسيان لتبقى الشخصيات التاريخية حية»² لهذا الغرض بالذات أولت عناية كبرى للتاريخ في أعمالها الروائية، أضف إلى ذلك حاجتها للكتابة باعتبارها تحدي للأعراف الجادة، وحصن منيع من العواصف المميته فكان «صوت النساء هو كتابة بوعي ذاتي، ومحاولة محصنة لممارسة الحياة الأدبية هي مشروع وبداية من دون نتيجة من الصمت لتتحول الكتابة جروح النساء في كلمات بأصوات الماضي لتكون أنا الكاتبة معبرة عن نحن النساء»³، بمعنى أن صوت النساء هو عبارة عن صرخات وغضب لقوى داخلية تصدر عن المبدعة، أصوات أقرب إلى مناجاة النفس، إنها معاناة أنثى تحمل أصوات الماضي.

لقد مكّنت الكتابة النسوية، المرأة من البوح بجراة، والكف عن عوالم المسكوت في مجتمع ذكوري، وذلك حين عزّت أفكاره السيئة التي يمارسها ضد الأنثى، ووسيلة للكشف عن الهوية البشرية، إنها كتابة الذات الراغبة في التحرر من غربة الأمس، من هموم أثقلت كاهلها لتدفعها لتحدي الصعاب، والوجود كتابة وتصويرا.

¹ - مليكة مقدم: الممنوعة، ص174.

² - Fatima medjad: Histoire et mémoire des femme dans L'ouvre d'assia Djebare, Synergies Algérie, N° 1, 2007, p129.

³ - Najiha Regaieg: L'amour la fantasia d'assia Djabar, de l'autobiographie à la fiction revue Itinéraire et contacts de cultures, paris, Le Harmattan et université paris 13, N°27, 1Semestre, 1999.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

ومن خلال «الحكي تسمع المرأة صوتها المكتوم، وتسمعه عميقا لوجودها كذات مفكرة فاعلة ومتواصلة»¹؛ بمعنى أنه عليها أن تصرخ لتقول أنا هنا، مما يحتم عليها كمبدعة «أن تتبش في الذاكرة وتستعيد طعم الذكريات، وتعيش حالة التجاء عاطفي وفكري لإزاحة قبح الواقع في محاولة للتشبث بالنفس»²، وهو ما يعرف بالحنين إلى الماضي، ماض يعاد حكيه عن طريق الاسترجاع والاستنكار، مع معاودة رسمه بالاعتماد على التخيل، لتبدأ مرحلة مساءلة الذات، وهو الأمر الذي يدخل المبدعة في حوار مع نفسها أثناء الكتابة. إن التجارب الإبداعية شجعت كاتبات الجزائر باللسان الفرنسي لتوجيه كتاباتهن للبحث عن الذات، فكانت هذه التيمة مركز البحث في أعمالهن الروائية، فالبحث عن الذات عندهن يمثل قطيعة مع التقليد الثقافي.

فرحلة البحث عن الذات عند "مليكَة مقدم" تظهر من خلال شخصياتها النسائية اللواتي يبحثن عن هويتهن، بحث أنثى عن أناها النابع من شعور المظلومات في مجتمع ذكوري مثقل بالرؤى الضيقة الاختزالية للمرأة إذن منطلق البحث هو الشعور بالظلم والقهر الذي تعانيه المرأة في مجتمع تحكمه العادات والتقاليد الجائرة، فهذه "دليلة" واحدة من شخصيات رواية "الممنوعة" لمليكة مقدم تعبر عن كرهها لهاته التقاليد التي تمثل تهديدا للبنات دون الذكور، وتجعل عبء المرأة يقع على الرجل؛ باعتباره هو من يتحمل العار عنها، فتكون السبب في انفصاله عن المجتمع ليعيش ذليلا، إنها تلحق المرأة باعتبارها قاصرا بالرجل تقول: «إن الحب هنا لا يوجد إلا في الأغاني الناس هنا يشربون الشاي ويستمعون إلى الأغاني، وينهارون كلية بسبب الأشياء مستحيلة التحقيق»³، فالنظام الاجتماعي التقليدي لا ينصف المرأة ويحد من حريتها ويضغط على الرجل؛ لأن فرص إقامة

¹ - مجموعة من الكتابات والكتاب: الكتابة النسائية، محكي الأنا، محكي الحياة، منشورات اتحاد الكتاب، المغرب، د.ط، 2007م، ص7.

² - المرجع نفسه، ص80.

³ - مليكة مقدم: ممنوعة، تر: محمد ساري، ص152.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

علاقات سوية بين الجنسين منعدمة ، ليعيش كل منهما كبتا يلجئهما إلى الأمانى التي لا تتحقق أبداً، لتتعمق المأساة ويركن كل من الرجل والمرأة إلى وحدة قاتلة.

تعلن "دليلة" تمرداً حينما تجهر بغضبها؛ «أنا لا أشعر بالعيب أمتلى بغضب له مخالف، لا أنظر إلى الأرض، أنظر إلى الناس في عيونهم، وحين أسأم من عيونهم المتعفنة آتي هنا وأنظر إلى الأحلام كي أنظف عيني»¹ ففي مجتمع جائر يحيط المرأة بسياج من الممنوعات يلخصها في لفظة "العيب" جاعلاً من كل فعل أو قول يصدر عن المرأة عيباً تختنق الحريات، وتشعر المرأة بحاجتها إلى التمرد، وهو الأمر الذي أغضب دليلة من هذه التقاليد العمياء التي لا تفرق في الحقيقة بين ما يجوز وما لا يجوز، وهوما جعلها تتبرأ من هذا العيب متمسكة بفرديتها وحريتها كإنسان كامل الحقوق.

فالأحلام عند دليلة تعد أداة للتمرد على هذه الممنوعات تقول: «حلمت بأني الطبل طبل أنثى، كنت أمشي بأزقة طمار وأضرب على البندير، أضرب وأضرب في الأزقة، ينظر إليّ الرجال والأطفال، وكل العيون تلتهمني أصرخ بقوة، بقوة كبيرة جداً، وتتفجر العيون مثل الزجاج الذي يتكسر...»² بهذه الطريقة تعبر دليلة عن امتعاضها ورفضها لإقصاء المرأة من الفضاء العام.

في خيالها تتسج مثلاً أعلى لتحررها، إنها تتخذ من أختها سامية مثلاً الأعلى هذه الأخيرة التي هاجرت إلى فرنسا بعد رفضها الزواج على الطريقة التقليدية ورفضت معه الانصياع إلى الأوامر، رفضت البقاء حبيسة البيت، أرادت بإرادة وإصرار إكمال دراستها انتزاع حريتها في التجول، على الرغم من أن كل هذا كلفها تبرأ عائلتها منها ومحاولة إخوتها قتلها إلا أنها لا تبالى ما دامت تنشد الحرية التي تمكنها من إيجاد ذاتها المسلوبة.

¹ - مليكة مقدم: الممنوعة، تر: محمد ساري، ص152.

² - المصدر نفسه، ص153.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

إن تيمة المشي "في الشارع" «عند الكاتبات الجزائريات ترمز عندهن إلى الحرية ضد تيمة "الاحتجاز" في حيز البيت الضيق إنه تعبير عن حاجة المرأة للهواء والشمس، وتحدي التقاليد التي تحكم خروجها من قبر البيت إلى قبر اللحد، يتحول هذا الفعل إذن في المجتمع الذكوري إلى تمرد حقيقي ومقاومة من الدرجة الأولى»¹، تؤكد سلطانة تمرداها على المجتمع وتقاليده بخروجها معلنة عدم مبالاتها بنظرات الرجال، بل أكثر من ذلك إنها تتحداها تقول: «خرجت من المستشفى وتجولت بلا هدف لمدة قصيرة فقط، بسرعة حركت حمى العيون لا مبالاتي، تسائلني وتقاطعني حشد من العيون، ريح سوداء، برق ورعود، لا أتجول أشق كتلة من العيون، أمشي ضد العيون، بين نيرانها»²، فهذا المقطع يبين العنف الممارس من طرف الشارع والمتمثل في فعل النظر، إذ أنه بمجرد خروجها إلى الشارع تتعرض لضغطه لذا أكدت الروائية على هذا في مواضع كثيرة من الرواية محاولة توجيه النقد لهذا الفعل الذكوري الذي يحاول إقصاء المرأة من الفضاء العمومي تقول: «أنظري يوجد رجال هناك يلتهموننا بعيونهم.

-ينظرون إلينا.

-سامية هي التي تقول ذلك، الناس هنا لا ينظرون، إنهم يلتهمون، يلصقون عيونهم بجلدك يمتصون دمك مثل العلقة، مثر الجراد، على كل جسمك ثيابك، ويخلقون كريات في صدرك ويخلطون رجلك كي تسقط.

-تتبعثر.

-نعم، تتبعثر، تقول بأن، مع كل موانع الصحراء، ومحرمات الله، وتقاليد أمهاتنا البالية، مع كل المجاعات وكل الضمات، يتمركز البؤس في العيون وتسكن جهنم في البؤبؤ، تقول بأن

¹ - سامية إدريس: تمثيل الصراع الرمزي في الرواية الجزائرية -دراسة في علم اجتماع النص الأدبي-، منشورات الاختلاف، الجزائر، منشورات ضفاف، بيروت، ط1، 2015، 139-140.

² - مليكة مقدم: الممنوعة، تر: محمد ساري، ص85.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

العيون حارقة ومحركة بسبب هذا الجحيم»¹، وفي هذا المقطع دليل على ما يعانيه الرجال من كبت تحوّل إلى عدوانية ترسم حدود العلاقة بين الرجل والمرأة، غير أن سلطنة تتحدى هذه الهيمنة الذكورية.

وقد يتحول الصراع بين الأنثى المتمثلة في "سلطنة" المتمردة وبين التقاليد والتعصب الديني، إلى عنف مادي، يظهر من خلال رشق مكان إقامتها بالحجارة، وثقب إطارات سيارة "ياسين" الفتى الذي أغرمت به، خاصة بعد أن عرفت هويتها الحقيقية في القرية، لقد أوشك ذلك الفعل على قتلها لولا الوقفة التضامنية لنساء القرية لحمايتها من الإسلامويين، وهي وقفة تعد صورة من صور التمرد من قبل النساء على الممارسات الجائرة لرجال الفيس، إنهن يمثلن تمرد النساء الجزائريات الحقيقيات تمدح الروائية هذا الفعل عن طريق الوصف الذي جاء على لسان "صالح" والذي يحمل ما يشبه النقد لتصور سلطانه: «إن النساء هنا كلهن مقاومات، يعرفن أنهن لا يقدرن على مواجهة مجتمع ظالم ووحشي في أغلبه، بشكل مباشر لذلك سلكن دروب المعرفة والعمل والاستقلال المالي، يقاومن تحت ظل رجال راكدين يائسين، لا يسلكن طريق التحريض غير المفيد وفوق ذلك خطير مثلما تفعلين، يموهن ويختفين كي لا يسحقن، ولكنهن يواصلن الزحف والتقدم»²، فالروائية بنقدها لتصرفات سلطنة توجه نقدا لجميع النساء مثيلاتها، فعلى الرغم من مناداتها بحرية المرأة وضرورة استردادها لذاتها ولمكانتها وحصولها على كامل حقوقها، إلا أنها لا تحبذ المواجهة الصريحة المكشوفة والتحدي السافر والاستفزاز لأن ذلك يعرضهن للكسر، إنها تؤمن بالمقاومة المفيدة التي تتأى عن المواجهة المباشرة.

ترسم الروائية لوحة أخرى لمقاومة المرأة، وبحثها عن ذاتها، عن طريق توحيد نساء القرية اللواتي ثرن على الوضع الذي لا يحتمل، لم يعد بمقدورهن السكوت والرضوخ لآبد من

¹ - المصدر نفسه، ص 103.

² - مليكة مقدم: الممنوعة، تر: محمد ساري، ص 130.

الفصل الثاني ————— الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

إطلاق العنان للصوت المكتوم، لابد من الانتفاضة وهذا ما تؤكد على لسان واحدة من مجاهدات القرية: «يكفي أنا تحملنا ثلاثين سنة رجال الحزب الواحد، لا نريد أن نسقط ثانية في استبداد أكثر شراسة، استبداد الأصوليين، ما يظن هؤلاء المتدينون المزيفون؟ هل هم أبناء لإله جديد كنا نجهله إلى حد اليوم؟ خارج بدعيون هذا كل ما في الأمر.

إن كلامهم ووجودهم شتيمة لذكرى أجدادنا ولديننا ولتاريخنا إن التي تكلمت من قدماء المجاهدات، امرأة لا تفهم كيف انحرف الاستقلال وأسقط كرامتنا وحقوقنا رغم أننا رفعنا السلاح من أجلها»¹، فالمرأة تذكر بحقها في هذا الوطن، الذي أسهمت في تحريره، لكنها تأسف لذلك الاستقلال الذي بمجرد تحقيقه تم استبعادها، إنها ترفض استبداد الأمس وكذا اليوم؛ لأن كل هذا ملأ نفسها قهرا وغضبا.

إن المرأة عملت عبر فعل الكتابة المكافئ للمقاومة إلى التمرد على سلطة الرجل، في محاولة جادة لإثبات ذاتها من خلال ممارستها حريتها في جميع الميادين.

¹ - مليكة مقدم: الممنوعة، تر: محمد ساري، ص176.

الفصل الثالث

محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

المبحث الأول: المثقف (intellectuel) الذات الغائبة المغيبة

1- مفهوم المثقف

2- أنواع المثقف

3- المثقف في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

4- تغيب المثقف

المبحث الثاني: الوطن القيمة المفقودة

المبحث الثالث: الهوية أزمة الذات

المبحث الرابع: الإرهاب قتل الذات

1- ماهية الإرهاب

2- رواية الأزمة الجزائرية والإرهاب

3- تصوير مشاهد الإرهاب

4- شخصية الإرهابي

المبحث الخامس: العولمة تهديد للذات

المبحث الأول: المثقف (intellectuel) الذات الغائبة المغيبة

توطئة:

لقد اتخذت الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية من المثقف فاعلا رئيسيا وذات محورية تخضع لحالات وتحولات البنية السردية، وقد ركزت الرواية في فترة التسعينات على النخبة المثقفة التي يعرفها "ماكس فيبر" «مجموعة من الأشخاص التي تمكنهم قدراتهم ومواهبهم الخاصة من النفاذ إلى منجزات ذات قيمة ثقافية»¹، وتركيز هذه الروايات على المثقف الحداثي يرجع إلى كونه من الشخصيات التي تتميز بكونها شخصيات «حية وغنية ومتحركة صعودا وهبوطا، ضعفا وقوة، أملا ويأسا، صمودا وسقوطا، إنها شخصيات درامية بالمعنى الكامل»²، فالصفات التي وسمت روايات هذه الحقبة هو ذلك البناء الدرامي القمعي لشخصية المثقف إذ أن المثقف في رواية الأزمة يتعرض لمختلف أساليب القمع والإرهاب المادي والفكري وهو نموذج للإنسان الجزائري الذي قهرته سنوات العنف.

فالرواية في فترة التسعينات جعلت الكاتب باعتباره مثقفا يلجأ إلى الكتابة، هروبا من الواقع، معلنا تحديه لكل ما هو موجود، إذ أن فشله في التصدي لهذه الأزمة بكل ما تطرحه من مشاكل لم يثن عزمته، بل حفزه الوضع على كتابة رواية أفرغ فيها جميع مكبوتاته حيث تناول فيها عدة ثيمات كالموت، القهر، الظلم جاعلا منها موضوعا لروايته باعتبارها التيمات التي انتشرت والتي عانى الروائي منها، لذلك قرر أن يتحدى، أن يرفض أن يقاوم عن طريق الكتابة.

قبل الخوض في موضوع تغيب المثقف يجب أولا أن نخوض في بعض المفاهيم لتوضيحها.

¹ - عاطف عصيبات: أزمة المثقفين العرب، دراسة تحليلية في الأنتلجيسيا العربية، الدار العربية للكتاب، (د.ت، د.ط)، ص170.

² - نزيه أبو نضال: السمات الفنية في رواية القمع العربية، مجلة فصول، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، م12، ع3، 1993م، ص 128.

1- مفهوم المثقف:

من المفاهيم التي كثر حولها الجدل، وتتوعدت حولها الآراء، وربما يعود ذلك إلى اختلاف اللغات، وتداخل المفاهيم.

أ- المعنى اللغوي:

اشتق لفظ المثقف «من الفعل الثلاثي ثَقَّفَ، وَثَّقَ الشيء ثِقَافًا وَثَقُوفًا وَثَقُوفَةً، حَدَّقَهُ وَرَجَلَ ثَقِفَ وَثَقِفَ وَثَقَّفَ: حَازَقَ فهِمَ.

ويقال ثَقِفَ الشيء، وهو سرعة التعلم، ابن دريد: ثَقِفْتُ الشيءَ حَدَقْتَهُ وَثَقُّنُهُ إِذَا ظَفَرْتُ بِهِ... وَثَقَّفَ الرَّجُلُ ثِقَافَهُ أَي صَارَ حَازِقًا خَفِيفًا.

وَالثَّقَافُ خَشَبَةٌ تَسْوَى بِهَا الرِّمَاحُ، وَحَدِيدَةٌ تَكُونُ مَعَ الْأَقْوَاسِ وَالرِّمَاحِ يَقُومُ بِهَا الشَّيْءُ الْمَعُوجُ»¹.

وكلمة المثقف في اللغة اللاتينية هي ترجمة لكلمة الفرنسية Intellectuel التي يرجع تاريخها إلى أزيد من قرن، و«لفظ Intellectuel مشتق من "Intellect" الذي معناه العقل أو الفكر، وبالتالي فهو يدل عندما يستعمل وصفاً لشيء، على انتماء أو ارتباط هذا الشيء بالعقل كملكة للمعرفة، أما عندما يستعمل وصفاً لشيء فهو يحيل إلى الشخص الذي له ميل قوي إلى شؤون الفكر، وإلى شؤون الروح»².

ب- المعنى الاصطلاحي:

لقد ارتبط ظهور لفظة المثقف باسم ضابط فرنسي من أصل يهودي اسمه "ألفريد دريفوس Alfred Dreyfus"، نفي سنة 1894م إلى غوايانا، لأنه كان جاسوساً لصالح ألمانيا نتيجة الحقد الشديد والكره الذي كان يكنه الفرنسيون لليهود بسبب سيطرة هؤلاء على الحياة المالية والشؤون السياسية الفرنسية، فانقسم المجتمع الفرنسي والنخبة المثقفة إثرها إلى

¹ - أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، مج9، د.ط، د.ت، ص19، مادة ثقف.

² - ينظر: محمد عابد الجابري: المثقفون في الحضارة العربية، محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط2، 2000م، ص23.

الفصل الثالث ————— محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

مناصر لـ "دريفوس" ومعاد له وبذلك عرفت الساحة الثقافية الفرنسية بزوغ ظاهرة جديدة تمثلت في نزول عدد من علماء الفكر والأدب الفرنسي أمثال "إميل زولا" "أنا تول فرانس" و"مارسيل بروس" و"ليون بلون" إلى حلبة الصراع وإلى الساحات العمومية، «احتجاجا على قرار المحكمة مطالبين بإعادة النظر في قضية "دريفوس"، فأصدروا بيانا حمل توقيعاتهم نشر في جريدة الفجر الفرنسية سنة 1898م تحت عنوان بيان المثقفين Les manifeste des intellectuels¹ وكل هذا بغية رفع التهمة عنه وإطلاق سراحه ورد اعتباره .

وعليه يرجع الفضل إلى هذه الحادثة في إطلاق كلمة المثقفين Les intellectuels فهي تعد شهادة ميلاد للمثقف التي أخذت فيما بعد بعدا تهكميا صاخر لدى المعارضين الذين رغبوا في محاكمة "دريفوس"، كما هو الحال بالنسبة لنابليون والإيديولوجيين.

ومفهوم مصطلح المثقف ارتبط عند منظره الأول الفيلسوف والمفكر الإيطالي الماركسي "أنطونيو غرامشي" "Antonio Gramsci" بدوره وكذا بالنشاط الفكري الذي يقوم به الفرد، شريطة أن يسهم في بناء المجتمع وتغييره وترقيته، «فكل من يعمل اليوم في حقل مرتبط بإنتاج المعرفة أو بنشرها هو مثقف حسب مفهوم غرامشي»²، فالناس عنده كلهم مثقفون، غير أنه لا يمكنهم تأدية الدور نفسه الذي يؤديه المثقف الحقيقي في المجتمع.

إذن المسألة ليست متعلقة بالكم المعرفي ولا بالإنتاج الفكري الأدبي الذي يقدمه المثقف، بقدر تعلقها وارتباطها بدروه الفعال والقيادي الذي يسهم به في تغيير المجتمع والعمل على تقدمه وإصلاحه والوقوف حصنا منيعا ضد هيمنة السلطة بكافة أشكالها وتعسفها، أضف إلى ذلك إسهامه «في تعبئة المجموعات الصاعدة وبلورة مطامحها وأهدافها»³ من خلال تمثيله لهذه الفئات الاجتماعية والدفاع عنها.

¹ - ينظر: محمد الشيخ: المثقف والسلطة دراسة في الفكر الفلسفي الفرنسي المعاصر، دار الطليعة للطباعة والنشر،

بيروت، ط1، 1991م، ص65.

² - إدوارد سعيد: صورة المثقف، تر: غسان غصن، دار النهار للنشر، بيروت، د. ط، 1996م، ص26.

³ - محمد عابد الجابري: المثقفون في الحضارة العربية، ص20.

فإدوارد سعيد يصّر مؤكداً في قوله: «إن المثقف هو فرد له في المجتمع دور علني محدد لا يمكن تصغيره إلى مجرد مهني لا وجه له، أو عضو كقوة في طبقة ما لا يهتم إلا بأداء عمله، فالحقيقة المركزية بالنسبة إلي كما أعتقد هي أن المثقف وهب ملكة عقلية لتوضيح رسالة، أو وجهة نظر، أو موقف أو فلسفة، أو رأي، أو تجسيد أي من هذه أو تبيانها بالفاظ واضحة لجمهور ما، وأيضا نيابة عنه، ولهذا الدور محاذير، ولا يمكن القيام به من دون شعور المرء بأنه إنسان مهمته أن يطرح علنا للمناقشة أسئلة محرّجة، ويجابه المعتقد التقليدي العقائدي (بدل أن ينتهجها)، ويكون شخصا ليس من السهل على الحكومات أو الشركات استيعابه، وأن يكون مبرر وجوده تمثيل كل تلك الفئات من الناس والقضايا التي تنسى ويغفل أمرها على نحو روتيني، ويقوم المثقف بهذه المهمة على أساس المبادئ»¹، ولا يشترط "غرامشي" ارتباط هؤلاء المثقفين بطبقة اجتماعية معينة، ولا تشكيلهم لـ«طبقة مستقلة بل إن كل مجموعة اجتماعية لها جماعة من المثقفين خاصة بها، أو هي تعمل على خلقها، وظيفتهم القيام بدور أداة الهيمنة ووسيلة السيطرة وتحقيق الانسجام»² التام داخل المجموعة.

إذن "غرامشي" لم يحدد جماعة ويخصها بهذا الاسم، لأن المثقف عنده هو كل منتج وناشر وموضح للمعرفة، في حين يرى "جوليان بندا" أن المثقفين جماعة قليلة ومحدودة من أهل العلم والمعرفة، وهم «عصابة صغيرة من الملوك والفلاسفة الذين يتحلون بالموهبة الاستثنائية وبالحس الأخلاقي الفذ (أمثال سقراط، وسبينوزا، وفولتير)، ويرى أن هؤلاء يشكلون طبقة مثقفة، ممن هم حقا مخلوقات نادرة [...] ويذهب إلى أن المثقفين الحقيقيين الذين لا يهدف نشاطهم أساسا إلى تحقيق أغراض عملية، وكل الذين ينشدون السعادة في ممارسة فن ما أو علم ما، أو في تأملات ميتافيزيقية، أي باختصار في التحلي بمزايا غير

1 - إدوارد سعيد: صور المثقف، ص28.

2 - محمد عابد الجابري: المثقفون في الحضارة العربية، ص20.

الفصل الثالث ————— محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

مادية»¹؛ بمعنى أن المثقف يختلف عن باقي الناس كونه يتجرد من المادي ليهتم بالميتافيزيقي، عبر البحث عن السعادة في الفن والأدب.

فمفهوم المثقف يختلف باختلاف الفلاسفة والمفكرين، وكذا اختلاف الأزمان وتنوع الرؤى وتضارب وجهات النظر، حيث يرى "ماركس فيبر" أن المثقف هو كل من «يحمل صفات ثقافية وعقلانية مميزة، تأهله للنفاذ إلى المجتمع والتأثير فيه بفضل المنجزات القيمة الكبرى»²، أما "بارسونز" فيعتقد «أن المثقف هو الشخص المتخصص في أمور الثقافة ويضع اعتباراتها فوق الاعتبارات اليومية المعتادة، بينما يرى "لويس فوبير" أن المثقف هو المتعلم والمهني من الطبقة الوسطى الذي يختلف عن يعمل بالصناعة والتجارة»³ سواء تعلق الأمر بالطبقة العليا أو بالطبقة الدنيا .

غير أن هناك من يحصر هذه الصفة في خريجي الجامعات والتعليم العالي، أو من تحصلوا على قدر كاف من التعليم في إحدى المجالات العلمية والمعرفية...وفي هذا الصدد يقول صاحب المعجم النقدي لعلم الاجتماع «نحن مدعون إذن إلى الافتراض بأن المثقفين موجودون عند المهنيين والمدرسين ومسؤولي المنظمات العامة والخاصة وفي هذه الحالة نستطيع الحديث عن المثقفين بواسطة التأهيل. ولكن المثقفين منظور إليهم بهذا الشكل يبقون مجموعة كامنة. فثمة الكثيرون من حاملي الشهادات الذين يتمتعون بعد قضاء وقت طويل في الجامعات بأهلية أكيدة، أو أنهم يمارسون مسؤوليات تقنية أو إدارية عالية جدا، لا يدعون صفة المثقفين، ويفاجأون أو أنهم يصدمون فيها لو نسب إليهم ذلك»⁴، وعليه لا يمكن حصر الصفة في حامل الشهادة فقط أو المهني الذي لا يهتم إلا بأداء عمله بل هو

1 - إدوارد سعيد: صورة المثقف، ص 28.

2 - أيمن طلال يوسف: التفاعل الإيجابي بين المثقف العربي وقضايا الأمة إدوارد سعيد أنموذجا، مجلة الفكر السياسي، العدد 26، السنة الثامنة، 2006م، ص3.

3 - مصطفى مرتضى علي محمود: المثقف والسلطة دراسة تحليلية لوضع المثقف المصري في الفترة 1970-1995م، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1998م، ص25.

4 - ر. بودون وف. بوريكو: المعجم النقدي لعلم الاجتماع، تر: سليم حداد، ديوان المطبوعات الجامعية، بيروت، ط2،

2007م، ص487.

الفصل الثالث ————— محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

صاحب النظرة الثاقبة والناقد الموجه، الحامل لرسالة والمنتبني لرأي وموقف نبيل يسعى من خلاله إلى تحقيق أهداف وغايات نبيلة لصالح الفرد والمجتمع معا.

2-أنواع المثقف:

لقد حاول الكثير من الدارسين والفلاسفة تصنيف المثقفين حسب رؤاهم الأيديولوجية وتوجهاتهم الفكرية والسياسية، فـ"جورج لوكاتش" مثالا يقدم تصنيفا واقعيا ممزوجا بالمادية الجدلية حيث يصنف المثقفين إلى المثقف المثالي كما في رواية "دونكيشوت" لسيريفانتيس" حيث نجد الذات أصغر من الواقع، والمثقف الرومانسي حيث الذات أكبر من الواقع كما في رواية "التربية العاطفية" "فلوبير"، والمثقف المتصالح الذي يتكيف مع الواقع كما في رواية "سنوات تعلم ملهم" مايستر" لغوته.

ولكن "لوكاتش" «يدافع عن المثقف الإيجابي الاشتراكي الذي يتمثل في "تولوستوي" الذي ألف روايات ذات البطل الجماعي الإيجابي»¹، أما "أنطونيو غرامشي" الذي له فضل السبق في تصنيف المثقفين فقد صنف المثقف إلى صنفين: المثقف التقليدي والمثقف العضوي:

أ-المثقف التقليدي:

وينتمي إلى هذا «الصنف رجال الدين والمعلمين والإداريين والمهندسين والمحامين... ممن يواصلون أداء العمل نفسه من جيل إلى جيل»² ويتميزون بقدرتهم على الاستمرار والتواصل لقوة أفكارهم وكفاءتهم ولا يرضون التراجع عن قيمهم ومبادئهم «حتى ولو بقوا معلقين بدون أرضية طبقية يرتكزون عليها»³ فهم «يقدمون أنفسهم ويصورون ذاتهم على أنهم مستقلون عن الطبقات الاجتماعية ويؤكدون في خطاباتهم وتصوراتهم على كونهم استمرارية تاريخية لعصور الفلسفة الذهبية ورجالها كسقراط وأفلاطون»⁴، ويضرب عمار

¹ - جميل حمداوي: تصنيف المثقفين، ستار تايمز، <http://www.startimes.com/F.aspx?t=9433287>، ص2.

² - محمد عابد الجابري: المثقفون في الحضارة العربية، ص22.

³ - عمار بلحسن: أنتلجنسيا أم مثقفون في الجزائر؟، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، ط1، 1986م، ص43.

⁴ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

الفصل الثالث ————— محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

بلحسن في ذلك مثالا «بالمثقفين الإصلاحيين أمثال "ابن باديس" الذين يمثلون استمرارية تاريخية للمجتمعات الإسلامية»¹ والعربية.

وهؤلاء كانوا في الأصل «عضويين لطبقات اجتماعية سابقة سادت في زمن معين، وداخل نمط إنتاج معين كذلك، فذهبت ربحها وانحلت أنظمتها، وبقوا شاهدين على مجدها وتراثها الثقافي والروحي... واحتفظوا باستمراريتهم التاريخية ذلك الحطام الثقافي الاجتماعي الذي بقي من انفجارات كتلة تاريخية سابقة وماضية»²، ويعملون على الدفاع على الفئات الاجتماعية المحافظة التي آلت إلى الزوال، ويؤمنون بالثبات والاستقرار وعدم التغيير، لكن بإمكان المثقف التقليدي أن يصبح عضويا بتخليه عن الأفكار الأيديولوجية الوهمية التي يعتقدونها ويتبنى أفكارا جديدة تساهم في تطوير المجتمعات.

ب- المثقف العضوي:

ويتمثل في ذلك المثقف الإيجابي الذي يسمح لنفسه بالاحتكاك بطبقات مجتمعه والمساهمة في إخراج أفراد هذا المجتمع من براثن الظلم والفساد، ومن سيطرة الأيديولوجيات الزائفة، إنه مثقف «يعمل على إنجاح المشروع السياسي والمجتمعي الذي يعنى بحاجات الطبقة الكادحة ويلبي حاجاتهم الجوهرية»³، فهو إذن لا يتصف بالانرجسية والفردانية في خدمة مجتمعه، ففي حين «يناضل المثقف التقليدي عن حقوق تمثل طبقته وتهدف لتحقيق مكاسب ذاتية على المستوى العام والخاص، ويعيش في برجه العاجي يناضل المثقف العضوي بذلك لدى "غرامشي" ليشمل كل من يمارس عملا تربويا ثقافيا أخلاقيا...، فمناضل الحزب والمعلم والصحفي، والأديب مثقفون لكونهم يبذلون عملا ذهنيا، يتعدى كثيرا كمية ونوعية العمل اليدوي الذي يؤديه الشغيلة اليدويون مثلا [...] (فيتجاوز غرامشي بذلك) المضمون الضيق الذي أعطاه "ماركس" والذي يقتصر على مبدعي ومفكري "الأوهام وصناع

¹ - عمار بلحسن: في الأدب والأيديولوجيا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص62.

² - المرجع نفسه، ص43.

³ - محمد جزائري: أزمة مثقفي البرجوازية السعودية، تاريخ النشر: 23-03-2011م، تاريخ الزيارة: 27-03-2011م،

ص1. <http://www.alarabiya.nt/writers/2011/03/23/142642.html>

الفصل الثالث ————— محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

الأفكار والأيديولوجيات فقط»¹، ويحاول التوفيق والربط بين البنية التحتية والفوقية للمجتمع إذ أن «الوظيفة الأساسية لكل مثقف عضوي داخل البنية الاجتماعية هي كونه اسمنا يربط البنية التحتية بالبنية الفوقية ويكون بذلك (الكتلة التاريخية الاجتماعية فهو... وزملاءه يقوم بخلق وتوزيع ونشر الأيديولوجيات من جهة، لضمان انسجامية وعي الطبقة التي يرتبط بها عضوا)»²، من ناحية أخرى.

3- المثقف في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية:

لم يعد موضوع الثورة التحريرية والمشاكل الاجتماعية التي ميزت فترة السبعينات تلقى الاهتمام من قبل الرواية التسعينية، لقد تحول الاهتمام إلى وصف الصراع الأيديولوجي القائم بين الفئات المثقفة ومختلف الاتجاهات، مما وسّمها بطابع القلق والتوتر والخوف والرغبة في الانتقام، وكذا الصراع بغية تحقيق أهداف ترمي إليها شخصيات وأبطال هذه الروايات.

فهذه الروايات قامت بتجسيد المأساة الوطنية، ورسم ملامح معاناة المثقف الجزائري في ظل الصراعات الدائرة رجاها بين مختلف أطراف المجتمع، مما أضاع المثقف وجعله يغيب فقد دوره الحقيقي في النهوض والإسهام الفاعل في تغيير الأوضاع وبناء مجتمع راق، فالدور الحقيقي الذي يقوم به المثقف «لا يظهر في الأوضاع الهادئة أو العادية، بل يتجلى في خضم تمزق المجتمعات، والمثقف هو الشاهد على تمزق المجتمعات وبالتالي هو الذي يعيش ويستوعب في داخله تمزق مجتمعه»³، وعليه أن يؤكد هويته ويثبت وظيفته الاجتماعية، وأن يعمل على تغيير نظام مجتمعه إلى الأحسن والتأثير على السلطة بقراراته وأفكاره.

لقد تعرضت معظم الروايات التي ظهرت في هذه الفترة لوضعية المثقف ومعاناته وما يتعرض له من اضطهاد وقهر، فلا يكاد يخلو نص من حضور لصورة المثقف التي تنقص

¹ - محمد جزائري: أزمة مثقفي البرجوازية السعوديين، ص 1.

² - عمار بلحسن: في الأدب والأيديولوجيا، ص 52.

³ - فلاديمير ماكسيمكو: الانتلجانسيا المغاربية المثقفون أفكار ونزعات، تر: عبد العزيز بواكير، دار الحكمة، الجزائر،

الفصل الثالث ————— محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

في كثير من الأحيان دور البطل، حيث كشف الروائيون عن الشخصيات المثقفة من خلال انطباعاتهم عن أحداث أكتوبر وتقييمهم لأبعادها السياسية والاجتماعية، فتوصلوا إلى أن المشاكل التي تعاني منها هذه الشخصيات متشابكة متشابهة، يجمعهم همٌّ أكبر تمثل في تمزق وطنهم.

إن الشخصيات المثقفة التي سجلت حضورها في هذه الروايات تنوعت بين السلبية والثورية والإشكالية، فبعضها يبدأ ثوريا مناهضا معارضا، إلا أنه سرعان ما يعجز عن تخطي الصعاب التي تعيق تقدمها وتمنع في الوقت ذاته سير أحداث الرواية نحو محور البناء، كما أن هذه الشخصيات ساهمت في عمليات الهدم أكثر من مساهمتها في عملية البناء، فكان قرارها التراجع والاستسلام بدل التقدم والتضحية في كثير من المشاهد الروائية فقد تراجع المثقف وانعزل متقوقعا على نفسه متخفيا في منزله، أو هاربا إلى مكان آخر يرى أنه الأنسب والملائم له من أجل تحقيق ذاته وإثباتها.

4-تغيب المثقف:

لقد لقيت صورة المثقف الحداثي مكانا لائقا في الإبداع العربي عامة والجزائري الحديث خاصة سواء أكان ذلك في مجال الرواية أو الشعر، ويعود حضور الشخصية المثقفة كشخصية محورية في أغلب النصوص السردية التي ظهرت خلال الثمانينات، إلى التغيير الذي حدث على صعيد وعي الكاتب بعد انهيار الأيديولوجيا الاشتراكية، أو أيديولوجيا كتاب الثمانينات التي كانت عموما تتناول الشخصية في صورة خصم إيديولوجي وبالتالي حليف (العالم، فلاح...)، أما مرحلة التسعينات فأصبح الكاتب فيها يرى الواقع بنظرة فئوية نخبوية، نظرة مثقفين مهددين بالموت كل لحظة «فكالإعصار المدمر عمت موجة الإرهاب مختلف أقطار البلاد وكان الفاعل الثقافي الهدف المفضل والمطلوب من لدن هذه القوة الهدامة العمياء، وفي مثل هذا الموقف وجدت الذات الكاتبة نفسها في ملتقى قوى مضادة، معادية ومختلفة بيد أنها تشترك في محاولة تهميش المثقف وإسكاته على أقل

الفصل الثالث ————— محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

تقدير»¹، وذلك أن المثقف «شب عن الطوق واستطاع في حالات كثيرة التأثير على التفكير العام في بلاده ولكنه بهذا الدور خرج لكي يواجه عددا هائلا من الضغوط لا حصر لها القديم منها والجديد خاصة منها شيوع الاستبداد»²، السياسي والإرهاب الفكري.

ومن هذا المنطلق عملت رواية المحنة الجزائرية المكتوبة بالفرنسية والتي عالجت مسألة استهداف المثقف بوصفه يعيش قمعا تعددت أسبابه واختلفت تجلياته وتنوعت أساليبه يطغى فيه الإرهاب وسلطة القمع كنفي العقل والوعي الفكري ونفي الحريات الفردية، فالنفي وفق هذا التصور «لا يقتصر على قضاء سنوات يضرب فيها المرء هائما على وجهه بعيدا عن أسرته يعاني إلى حد ما أن أصبح محروما على الدوام من الإحساس بأنه في وطنه»³ كونه يعيش مأساة ويكابد معاناة.

لقد هيمنت على روايات المحنة المعاناة الفردية للمثقف، الحامل لقيم حداثة والذي بدأ ينفصل عن المجتمع، فالمسافة بينه وبين هذا المجتمع بدأت تتسع، والهوة زادت فانقطعت بذلك كافة السبل لتحقيق مشروعاته «لقد انقطعت لغة الخطاب بين المثقف والسلطة فوقفت ضد تحقيق مشروعاته، سواء بتدجينه، أو بإرهابه وإبعاده عن ساحة التأثير الاجتماعي، لكن الأزمة أن المثقف العربي رضي بهذا الدور الموسوم له، والمثقف الذي نقصده هو ذلك الذي يحمل هما معرفيا ويريد به إصلاح العالم، ولذلك لم يغير المثقفون الواقع العربي بقدر ما ساهموا في تثبيت دعائمه وإقامته أوتاده، وإلا فالنفي والسجن والاعتقال هو البديل من قبل المجتمعات والسلطة»⁴ المسيطرة عليه.

فالمثقف في بلدنا يعيش حالة هستيرية للاضطهاد والحسرة والخوف، ويواجه الموت في كل وقت في ظل الجماعات المسلحة التي أحكمت قبضتها على المجتمع مبرهنة «أن

¹ - حسان راشدي: ظاهرة الرواية الجديدة في الجزائر، مرحلة التحولات، 1988-2000م، أطروحة دكتوراه دولة في الأدب والعلوم الإنسانية، جامعة قسنطينة، 2001م، ص235.

² - أحمد بهاء الدين: المثقفون والسلطة في عالمنا العربي، ص 24-25.

³ - إدوارد سعيد: المثقف والسلطة، تر: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2006م، ص92.

⁴ - أيمن عبد الرسول: في نقد المثقف والسلطة والإرهاب، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2004م، ص94.

الفصل الثالث ————— محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

خلافها مع السلطة في قضية استرجاع الشمس لم يكن إلا خدعة استعملتها لنهب خيرات السكان وتقتيل من يقف في وجهها»¹، وكذا سلطة النظام الحاكم الذي اعتاد ممارسة القمع حتى أصبحت صفة لصيقة به ولازمة من لوازمه ضد مجتمع مصاب بالصدمة ومتقف يدفع ثمن أفكاره، ذلك أن النظام يؤمن بفاعلية الإنسان المدرك لحقائق واقعه ودوره في تحريك التاريخ خاصة بالنسبة للمثقف كونه يملك وعيا تاما بالواقع والتاريخ يمكنه وبشكل أفضل من تسيير المجتمع وتثويره عبر مراجعة التاريخ والتأمل المتأني الفاحص في الحاضر بروح فلسفية نقدية وهو الدور غير المباشر الذي على المثقف القيام به.

غير أن المثقف وفق هذه الصورة لا يرضي النظام الذي يستأثر بالوعي لنفسه ويمنعه عن كل من يقع خارج دائرته باعتبار المثقف وفق هذا المنظور يشكل تهديدا لوجود النظام واستمراره ولهذا كان من الضروري القضاء عليه وتغييه وذلك بالتخلص منه بمختلف الطرق.

ففي رواية "تيميمون" ترد أخبار اغتيال المثقفين فيها قد «اغتيال الأستاذ "بن سعيد" هذا الصباح على الساعة الثامنة بمنزله من طرف عصابة إرهابية من الإسلاميين وحدث ذلك بمراى ابنته البالغة عشرين عامه»² فهذا الذي اغتيل هو أستاذ، رمز التربية ومصدر العلم فالإرهاب يوجه رصاصة نحو أهل العلم والتثوير من أجل فرض حالة من الظلامية والضبابية وكذلك أيضا مقتل رمز آخر من رموز الثقافة «صحافي فرنسي يغتال من طرف إرهابيين إسلاميين بالقصبة في الجزائر العاصمة»³، فالضحية من رجال الإعلام، واحد من الذين يطلعون الرأي العام على الأحداث والمستجدات رمز من رموز الحرية والتعددية، نافذة يطل من خلالها الناس على العالم.

¹ - بن جمعة بوشوشة: التجريب وسؤال الحداثة، الملتقى الدولي الخامس للرواية عبد الحميد بن هدوقة، وزارة الثقافة، ولاية

برج بوعرييج، الجزائر، ط5، 2002م، ص 265.

² - رشيد بوجدر: تيميمون، ص27.

³ - المصدر نفسه، ص77.

الفصل الثالث ————— محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

وكذا مقتل "الطاهر جاووت" «الكاتب الكبير "طاهر جعوط" يغتال برصاصتين في رأسه من طرف ثلاثة إرهابيين وهو يقود ابنته إلى المدرسة»¹، فأعداء الثقافة والأدب والفن والعلم يقتلون كاتباً كبيراً كان يقود ابنته إلى المدرسة، صورة أخرى من صور تغيب المثقف صورة أخرى من صور الفضاة والوحشية.

وردت أيضاً مشاهد لتغيب المثقف عن طريق القتل في رواية "بماذا تحلم الذئب؟" أول مشهد هو مشهد مقتل المحامي على يد نافع وليد «لقد قتلت أول رجل يوم الأربعاء 12 جانفي 1944م على الساعة 7 و35 دقيقة صباحاً، كان محامياً، خرج من بيته متوجهاً نحو سيارته تسبقه إليها ابنته صاحبة الست سنوات بصفيرتين صغيرتين تحملان أزهاراً زرقاء صنعت من شريط أزرق ومحفظة على الظهر [...] بيتسم المحامي لكن في نظرتة مسحة مأساوية تمام مثل حيوان مطارِد [...] أخرجت مسدسي وأسرعت للحاق به، توقف ووقف أمامي وجهاً لوجه، في لمحة البصر فر الدم من وجهه وانمحت ملامحه [...] كان جسمي يهتز من الرأس حتى القدمين مع صوت كل طلقة رصاصة، ما عرفت كيف أتوقف عن الرمي لأنني ما عدت أدرك دوي الانفجارات أو صرخات الصبية، كنت أشبه بالنيزك اجتزت جدار الصوت، حطمت نقطة اللارجوع. لقد سقطت للتو جسداً وروحاً في عالم مواز لن أعود منه أبداً»² وكذا قوله «أول ضحاياها كان أستاذة الدكتور في الرياضيات، أرمل من دون أطفال»³ وأيضاً «هكذا تمكن "الروحي" من تحضير قائمة بأسماء الأساتذة "الملحدين" وعلى رأسهم كفليـه الذي قتله عشية بلوغه سن الخمسين»⁴ فالمثقف وفق منظور هؤلاء وصف بالملحد، وجعلوا منه شيوعي، فراحوا يطفؤون الأنوار ويشيعون الظلمة باغتيالهم العلم

¹ - رشيد بوجدر: تيميمون، ص130.

² - Yesmina Khadra: *À Quoi rêvent les loups*, p15.

³ - ياسمينة خضرة: بماذا تحلم الذئب؟، تر: عبد السلام يخلف، ص264.

⁴ - المصدر نفسه، ص265.

الفصل الثالث ————— محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

والثقافة يقول الراوي: «شيوعي ساقط، أعلن قائلًا. قطب نافع حاجبيه حين تعرّف على صورة السينمائي رشيد دراق. هل أنت متأكد من أنه شيوعي».¹

كذلك الأمر بالنسبة للشاعر أحد شخصيات رواية "بماذا تحلم الذئاب؟" هذا المثقف الذي أثر الانعزال ورفض الدخول في الصراع الفكري والسياسي القائم بين مختلف الأطراف المتناحرة لذلك لم يحصر نفسه في الانتماء إلى حزب سياسي معين أو إلى مجموعة ذات مصالح معينة، بل كان انتمائه إلى وطنه ، وفي هذا عملية تغييب للمثقف، ف "سيد علي" غاب بالحياة عندما انعزل ثم غيبه الموت لما اغتالته أيادي الغدر لقد أحب الجزائر يقول: «قد أكون شخصا حالما بدون جدوى ومثل "القريبو" الإفريقي، شاعرا ساحرا مندهشا بارتدادات عبقريته لكن مهما حادت نقاط معلمي فإنه من المستحيل أن أتخلى عن فكرة أن البحر الأبيض المتوسط في البداية ينبوع ماء».²

"فياسمينة خضرة" اختار شخصية المثقف الشاعر والفنان كونهما الأكثر إحساسا وشعورا ووعيا من الإنسان العادي، ف "سيد علي" يجسد طبقة المثقفين الوطنيين، ويرصد تاريخ المثقف الذي يعاني ويسعى إلى التمرد على الواقع المعقد والمتناقض فهو يملك معرفة بالناس يقول ناصحا لنافع بالابتعاد عن الحركة الإسلامية: «احترس من أولئك الذين يأتون كي يكلموك عن أشياء، هي أهم من حياتك، إنهم يكذبون يريدون استعمالك يكلموك عن مثل عليا عن تضحيات جسام وبعدونك بالمجد الأبدي مقابل بعض القطرات من دمك، لا تصنع إليهم تذكر دوما هذه الجملة، لا وجود لشيء يعلو على حياتك، هي الشيء الوحيد الذي يجب أن يكون له معنى لديك لأنها الثروة الوحيدة التي هي ملكك فعلا»³، لقد تضافرت جملة من الأسباب التي أسهمت في عزل الشاعر المثقف، الذي عملت الحركة الإسلامية

¹ - ياسمينة خضرة: بماذا تحلم الذئاب؟، تر: عبد السلام يخلف، ص 265-266.

² - المصدر نفسه، ص 132-133.

³ - المصدر نفسه، ص 135-136.

الفصل الثالث ————— محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

على تغييبه وذلك بقتله وتوجيه رصاصة للثقافة باغتيال أحد رموزها، وكذلك فعلت مع يحي عازف المندلولين.

أما شخصية المثقف في رواية "تيميمون" فقد عاش بطل الرواية اغتراباً داخل وطنه وبين أهله ينبذ الكل حتى والده الإقطاعي، وكذا ينبذ الإرهاب ويرفضه يقول متحدثاً عن والده: «ذلك الإقطاعي الكبير والثري والقدير والمنافق والرهيب وقد اشتهر في المدينة بكثرة عشيقاته وعريدته ومجونه»¹، هرب من العاصمة إلى "تيميمون" من كل ما هو موجود فيها إنه يرفض هذا العنف يقول: «وأصبحت حياتي المتعثرة لا تطاق، فأرفض كل هذا العنف المخيف وهذا الإرهاب المتوحش. كما تضيق نفسي بكل هذه المناورات السياسية والسرقات المالية والمعاملات "المافيورية". فيما كانت عصابات الحشاشين تفرض وجودها من خلال العنف فلا تقتل إلا المثقفين الأبرياء والمواطنين البسطاء. بطريقة عشوائية وعمياء... فلا أفارق حقنات السيانون الخمس، أحملها كل يوم في جيبتي. من يدري؟ لعلني سأجراً وفي يوم من الأيام على زرد إحداها... لكن ما أتفه مذاق العدم»²، لقد رفض الخوض في المسائل السياسية أو المشاركة في أي حزب، التزم الحياد معلناً عدم انتماءه، فاختار المنفى النفسي الذي كان أشد ألماً وعنفاً من السجن.

فالروائي لم يعد يرغب في مسايرة الأحداث ولا الاقتناع بما يدور حوله من صراعات وتناقضات ولم يعد مهتماً بالنضال من أجل تغيير ملامح مجتمعه الغارق في الفساد ولا المطالبة بحريته وحقوقه، لم يعد يؤمن بهذه التوجهات المخادعة، ولم يقدر على تجسيد «مثله الأعلى في الإصلاح ويحقق غايته المنشودة بسبب انعدام التفاعل بينه وبين مجتمعه الذي ينتمي إليه»³، أمر أجبره على الغياب والتتحي.

¹ - رشيد بوجدر: تيميمون، ص 134.

² - المصدر نفسه، ص 102.

³ - صالح ولعة: صورة المثقف في روايات عبد الرحمن منيف، مجلة الموقف الأدبي، منشورات اتحاد الكتاب العرب،

دمشق، العدد 386، ص 2003م، ص 07.

الفصل الثالث ————— محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

وإذا ما حاولنا معرفة أسباب هذا الاغتراب وهذه العزلة وهذا الانكفاء على الذات، نجد أنها تعود إلى عجز المثقف عن القيام بالدور الموكل إليه والمهمة الملقاة على عاتقه، وعدم تمكنه من المواجهة والسيطرة على الأوضاع، ورفع الظلم عن مجتمعه وتخليصه من الاستبداد والفساد، كل هذا جعله ينسحب لعجزه عن الاستمرار وشعوره باليأس، فحبس نفسه مجترا صموده، وفي هذا غياب وتغيب له، وحينما حاول الخروج من عزلته ولا انتمائه دخل في اللانتماء آخر أفضع من الأول ليسقط في مهاو الرذيلة، استجابة للهروب من الواقع وعدم التفكير فيه، فكانت هذه الشخصية سلبية برفضها تحمل أعباء الحياة، ورفضها رفع شعار النضال والتغيير، والبحث عن الحرية والديمقراطية.

لقد كان «اغتراب هذه الشخصيات هو نوع من الاحتجاج على سيادة الظلم في المجتمع، فهذه الشخصيات المثقفة غير راضية بمجتمعها وواقعها ورافضة لثقافة المجتمع وأخلاقه وقيمه ومؤسساته، إنها شخصيات أعلنت قطيعتها مع المجتمع واختارت العزلة أو العيش في القبو بعيدا عن الناس»¹، لأن في ذلك راحة لها.

فالمثقف أربعه ما حدث في وطنه الجريح، بسبب حرب لم يكن يتوقعها، لم تعطه مهلة للتدبر والتفكير، لقد أخذته بغتة، فهو مثقف مثقل بالهموم، حائر بسبب الأسئلة المصيرية التي لم يجد لها إجابات، فزاده ذلك تأزما، على الرغم من ذلك تمكن من جمع شتات الروح، وفوضى الفكر وأخرج ذلك حبرا على ورق معلنا أن الكتابة هي الخيار الوحيد لمقاومة العنف بكل أشكاله بأن «يعلن عن اختياره للكتابة ملجأ وسلاحا لمقاومة العنف وأشكاله»²، محاولا التخلص بها من كل ما ألم به.

فموضوع الكتابة الذي اختاره هؤلاء كأحد موضوعاته البارزة فمثلا في رواية "السيمورغ" لـ "محمد ديب"، وهو ما يعرف بـ «الميتاروائي Milafiction كما تسميه باتريسيا

¹ - محمد رياض وتار: شخصية المثقف في الرواية العربية السورية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د.ط، 2000م، ص123.

² - مخلوف عامر: الرواية والتحويلات في الجزائر، دراسة نقدية في مضمون الرواية المكتوبة بالعربية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د.ط، 2000م، ص89.

الفصل الثالث ————— محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

يونغ wongh patritia وهو عندها بنية نص تدخل في علاقة مع النص»¹؛ بمعنى أن يكون النص هو موضوع الرواية وهو الرواية في حد ذاتها، فالميتاروائي أو الخطاب الواصف عند "جيرار جنيت" «سرد واصل mitaricit أي مروي في الحكاية أو حديث الرواية عن الرواية أو الحكاية عن الحكاية»²، فالنص الروائي يتحدث عن إشكالية الكتابة ونقدها واستحضار الشخصيات الروائية في الأعمال الروائية السابقة واستنطاقها، والحديث عن سبب لجوئها إلى الكتابة، وكذا «تضمين مواقف الروائي الخاصة من قضايا الكتابة والقراءة، بحثا عن آفاق جديدة تستطيع أن تستوعب وبطرائق متقدمة تلك التحولات العميقة التي تعيشها الثقافة العربية عامة والرواية الجديدة»³ بشكل خاص.

كما هو الحال مع محمد ديب في رواية "السيمورغ" فالكتابة عنده نشاط إبداعي مرادف للمتعة والمرارة والمغامرة والخضوع والحركة والاستمرارية والالتزام، حيث صرح أنه «على الكاتب أن يكون قبل كل شيء وفيما لأعماله»⁴، فالمغامرة التي نقصدها وليدة الوعي والقناعة التي لا تتحدد رسالة الكاتب بدونهما «لا ينبغي الإقدام على هذه المغامرة بمثل تلك الخطورة إلا إذا كانت لدينا قناعة كبيرة ووعي تام لحمل أشياء معينة في خلدنا، ليس بمقدور غيرنا معرفتها، وإيصالها إلى الآخرين»⁵، فالكتابة وفق هذا المنظور «هي عملية التفكير وجوهره، وهي الوسطة الممكنة لنقل الأفكار»⁶، وإيصالها للغير.

¹ – patritia wongh: metafiction, the theory of sel conscious fiction mathuen, London, 1984, p13.

² – آمنة بلعلی: المتخيل في الرواية الجزائرية، ص157.

³ – عبد المالك أشبهون: الحساسية الجديدة في الرواية العربية، روايات إدوارد سعيد نموذجا، منشورات الاختلاف، الرباط، ط1، 2010، ص195.

⁴ – Jean Déjeux: Littérature Maghrébin de la langue Française, édition Nomaan Sherbrooke, Québec, Canada, 2^{ème} édition, 1982, p166.

⁵ – Mohammed Dib: Smorgh, p86.

⁶ – عبد الكريم الجبوري: الإبداع في الكتابة والرواية، دار الطليعة الجديدة، دمشق، ط1، 2003، ص65.

الفصل الثالث ————— محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

فمغامرة الكتابة لدى المثقف مغامرة ذاتية، تنجم عما يقع فجأة، فهي في حالة ديب يأس ألم به منذ بداياته الأولى يقول: «لم أشرع في الكتابة، في واقع الأمر، إلا وقد تملكني شعور الكآبة وإحساس اليأس»¹، فكانت الكتابة خياره الوحيد للخلاص من هذه المشاعر إنها بحث عن «الذات وعن الدلالة التي ينبغي إعطاؤها للعالم»²، فالكتابة عند ديب مغامرة ثورية هدفها تحرير الإنسان؛ بمعنى أن الأديب يتحرر حينما يمارس فعل الكتابة كما أنه يحرر بها غيره، إذ أنه في نص "سيمورغ" لم تعد هناك حدود تعترض «الراوي عبر رحلات بحثه الكثيرة التي استهدفت الذات الإنسانية عبر مرايا التصوف والأدب والذاكرة والطفولة»³. إذن الكتابة عند ديب هي قضية التزام يجسده الفعل الإبداعي، حيث سعى لترجمة آلام شعبه في وبلغة المستعمر وذلك ما عبر عنه صراحة «الكتابة تمثلت المشكلة بالنسبة إلى في البداية الأولى، في ترجمة وقائع بلد فقير (الجزائر) بلغة الأغنياء (الفرنسية)، وهو ما لم أقدر على فعله في تلك البدايات إلا لقاء قيود معجمية واختلالات تركيبية وتنازلات أخرى ضرورية لكنها شديدة البلاغة في الوقت نفسه، بقيت مرتديا ثوب الفقير»⁴، الكتابة إذن عند ديب ترجمة وفية لواقع الوطن إلى لغة المستعمر، فهي وفق هذا المنطلق التزام تحدى به فرد لم يجد من وسيلة ينقل بها ألم وبؤس أبناء وطنه غيرها هو إذا الدور الذي ينبغي على المثقف القيام به.

"رشيد بوجدره" هو الآخر لم تكن الكتابة بالنسبة إليه إلا وسيلة للتخلص من أزمة الواقع ومن الشعور بالعجز، هذه الأزمة التي دفعت به إلى التخلي عن كل شيء، باعتباره نموذجا للمثقف الإشكالي لم يقدر على الاستمرار والمواصلة والمقاومة، أمام هذه التغيرات وأمام القهر، عجز عن الصمود فسرعان ما سقط منهارا، حيث قرر الانتحار كآخر حل يلجأ

¹ – Mohammed Dib: Smorgh, p67.

² – عزيز نعمان: عزيز نعمان: رواية مابعد الحداثة-دراسة في نص "سيمورغ" لمحمد ديب، منشورات الاختلاف،

الجزائر، ط1، 2013م، ص 170.

³ – المرجع نفسه، ص 171.

⁴ – Mohammed Dib: Smorgh, pp 66-67.

الفصل الثالث ————— محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

إليه المثقف الإشكالي حال بطل روايته الذي حاول مرارا وتكرارا الانتحار بعد استسلامه ورفضه هويته ووطنه وانتماءه ومجتمعه.

فكتابات "بوجدره" تحمل رؤية «فكرية صيغت جماليا، وتغلغلت في كل حدث يعالجه وفي كل نقطة يستخدمها، متفاعلة مع كافة معطيات النص»¹ بصفته نموذج للمثقف الإشكالي الذي ارتبط بسمات وخصائص المجتمع الجزائري، وعيا منه بعمق التناقضات وإشكالات الواقع المختلف، وذلك من خلال معاشة جادة، ذات رؤية متقدمة في كشف وتشخيص مواطن الخلل في حركة الإنسان الجزائري والواقع.

إن التحولات التي شهدتها المجتمع بعد أكتوبر كشفت قناع الأزمة -أزمة الكتابة- وكشفت ثورة الوعي الذي استوعب هموم الإنسان الجزائري والوطن وتطلعاته وطموحاته برؤية إنسانية، هذا الحضور المليء بمختلف التناقضات ومختلف التفاعلات الذي نلمحه في روايات هذه الفترة، فبنية هذه النصوص تعد شهادة مثقف تستند إلى محاولة جادة للكشف عن الآلية التي شوهت علاقات المجتمع ومن ثمة إدراكها، وتخريب البنيان الذاتي للشخصية المثقفة. فأزمة المثقف لم تكن مفتعلة إنها أزمة شخص مثقل بترسبات وتركات الأوضاع السياسية والاجتماعية المضطربة.

وعليه يمكن أن نخلص أن معظم الروايات التي تناولت قضية المثقف تعرضت إلى مسألة إقصائه، فجلها تنتهي حركة السرد فيها باغتيال الشخصيات الروائية المثقفة إما جسديا أو معنويا وفي الأمرين عملية تغييب مقصودة للمثقف بما يشكله من تهديد على تواجد السلطة الظالمة والحركات الإسلامية الجائرة، وفي انعدام أي وسيلة للمقاومة، انسحب المثقف منطويا على نفسه لكن انسحابه لم يكن نهائيا وإنما اختار الكتابة سلاحا يقاوم به على طريقته الخاصة.

¹ - أمجد ريان: صوت صارخ في الشوارع، قراءة في أعمال إدوارد الخراط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، د.ط،

1988م، ص10.

المبحث الثاني: الوطن القيمة المفقودة

يعد الوطن من الأمكنة التي مثلت هاجسا حقيقيا للروائيين، بما يحمل من دلالات الانتماء والهوية، هوية المبدع، وكذا هوية الشخصيات، حيث قدمته الروايات في صورة تخالف المفهوم النظري له أو الصورة التي يجب أن يكون عليها، وطن تنعدم فيه الحرية وطن عملت فيه الفوضى على إزاحة النظام، وطن تنتهك فيه حرمة القانون مؤكدا سطوة القوة وعنفها، وطن ينتزع من الإنسان إنسانيته ويطلق «العنان للعوانية الحيوانية الكامنة فيه يجد بشكله الجديد مجالا خصبا في غياب الدولة»¹ إنه «اللدولة واللاوطن وهو حق القوة لا قوة الحق»²، إنه بمظهره الجديد يجسد اللاوجود .

إذا الرواية الجزائرية المعاصرة تقدم وطنا، هو الوطن الحقيقي المعاش فيه فعلا ويتمثل في النص من خلال اللغة المباشرة الكامنة في لفظتي (البلاد -الوطن) تارة ومن خلال رمزية بعض الأمكنة ك(القرية-المدينة) تارة أخرى.

فحضوره فيها يجسد حقيقة ما حدث في هذه الحقبة الزمنية، يعري حقيقة المأساة التي صنعتها أطراف عديدة، أشارت إليها الروايات مباشرة دون ترميز أو إحياء، ليغدو الوطن وفقها قيمة وجدانية وفكرة مشكلة من طرف الوعي، تعويضا عن المكان المادي المنتهك بسبب تزايد العنف، حيث يتحول إلى سجن ومع ذلك يبقى مستقرا في القلب والعقل، وفي الذاكرة، يحضر على امتداد المدونة حضورا عنيفا، حيث تصوره الروايات موحشا مقفرا لما فيه من اضطهاد وقهر وقتل، فالأمر هنا متعلق بمكان خاضع لسلطة العنف بكل أنواعه وأشكاله ومناابعه، تنتقله الرواية إلى مستوى النص، فتكون شاهدا عليه مؤيدا له.

فالوطن قيمة تسجل حضورها في أغلب روايات زمن المحنة، سواء ما كتبت بالعربية أو الفرنسية، هذه الحقبة التي عرفت اختلال القيم والمفاهيم والعقائد، اختلال أغرق البلاد في

¹ - الشريف حبيلة: الرواية والعنف، دراسة سوسيونصية في الرواية الجزائرية المعاصرة، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2010 م، ص69.

² - زايد عبد الصمد: المكان في الرواية العربية الصورة والدلالة، دار محمد علي للنشر، تونس، ط1، 2003م، ص159.

الفصل الثالث ————— محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

متاهة القتل والضياغ، ليضيع معها الوطن ويزول معناه، فيستعاض عنه بكلمات أخرى من قبيل "الحزب"، "الجهة" كنوع من أنواع الإفراغ، إفراغ الوطن من محتواه وسلبه دوره، وتفكيك وحدة الانتماء، لتطفو على السطح أمورا أخرى مسجلة حضورها البارز، فتطغى سلطة المال جاعلة الفرد يتقهقر، وينطوي على ذاته بعد أن سلب حريته وأمنه وسط فضاء اجتماعي قاهر صنعتة الفوضى.

فها هو الراوي في رواية "بماذا تحلم الذئب؟" يقول: «مالت الجزائر روحا وجسدا في ما لا يحمد عقباه»¹، وكذا قوله: «تحترق مدينة الجزائر بنشوة الجماع مع المتتورين الذين انتهكوا عرضها. حبلت بحقدهم وها هي الآن تمنحهم نفسها للفرجة في ذات المكان الذي تعرضت فيه للتلوث وسط خليجها الملعون للأبد وضعت دون تمالك للنفس بالتأكيد ولكن بغضب امرأة تكتشف بعد فوات الأوان أن والد طفلها هو ابنها»² إنه الوطن يحترق بأيدي أبنائه.

فهذه الصورة التي حملتها الرواية للوطن على الرغم من وضوحها، إلا أنها تخفي في أعماقها أحداثا شديدة العنف، يستشرفها راوي "بماذا تحلم الذئب؟" قائلا: «مدينة الجزائر عليلة. لقد علقت في روثها المتقيح، تنقيأ، تتبرز دون توقف. الجماعات المصابة بالإسهال تهجم من الأحياء الفقيرة في شكل هيجان صاخب، تطلع الديدان من مجاري المياه، فوارة ومدمرة، وتنتشر في الشوارع التي تحرقها حرارة فولاذية، تتمسك مدينة الجزائر بجبالها وهي مشمرة فستانها أعلى من فرجها المتفجر، ترفض المهاترات التي تطلقها المآذن، تتحشأ تتبرم، وهي ملوثة في كل مكان لاهثة، بعينين ذابلتين، بقم سال لعبه، في الوقت الذي أمسك الشعب أنفاسه أمام الوحش الحرام الذي كانت تلده.

مدينة الجزائر تلد. في الألم والغثيان، في الهول طبعاً نبضها يجتر شعارات الأصوليين التي تلو الاستعراضات في الشوارع الكبرى بخطوات غازية»³. وكذا قوله: «أول ضربات الساطور هشت رؤوسهم أوقف الأطفال صراخهم، فجأة فهموا نكبتهم وفروا نحو

1 - باسمينة خضرة: بماذا تحلم الذئب؟، تر: عبد السلام يخلف، ص183.

2 - المصدر نفسه: ص128.

3 - المصدر نفسه، ص127.

الفصل الثالث _____ محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

الأكوخ، كانت البداية، لا شيء سيوقف عجلة القدر، هاجم المفترسون ضحاياهم مثل غليان الليل، السيف يضرب، الساطور يسحق، السكينة تقطع، غطى عواء النساء والأطفال على عواء الريح، تتدفق الدموع أعلى من الدم، تنهار أبواب الأكوخ الهشة تحت الركل، يقتل السفاحون دون تأثر أو شفقة، تقطع سيوفهم للتو سباق الأطفال المجنون وتخرج أرواح المعذبين، عما قليل ستتكدس الجثث في مداخل البيوت، وعما قليل ستملأ الدماء برك المطر».¹

إذا فالوطن على هذا النحو يعد ضحية لتآمر مجموعة من اللصوص الذين سرقوا هذا الوطن من ذاته، فالوطن هو الذي تنتمي إليه، واللصوص هم أولئك الغاصبون من سياسيين وإرهابيين -أيادي خارجية-خونة. كلهم اتحدوا لهتك عرضه، فها هو الراوي في رواية "سيمورغ" يقول: «كان هنالك إسكافي راح يتعاطى التجارة ولم يعمل سوى في الأشياء المشبوهة وبمعجزة وجد نفسه غداة الاستقلال يجلس على رأس فرع بنك الدولة، يكفي أحيانا أن تكون من نفس دوار الوزير الذي كان قد حصل على منصبه بواسطة الكلاشينكوف وتستيقظ في يوم ما كي تجد نفسك في مرتبة سامية، حدث منذ زمن طويل أن أفلس بنك الدولة على يد أحد زبائنه الكبار ولا يعرف سوى الله وهذا الزبون الطريقة والأدوات التي حصلت بها العملية مباشرة بعد هذه الخسارة لجأ مديرنا الذي كان منذ حين إسكافيا إلى محلات السارق بنفسه وكسر الأبواب واحتجز السلع».²

فالنص يقدم لنا موقفا عاما مبرزاً صراعاً مرتقبا بين السلطة وآخرين خارج السلطة لا يملكون مصائرهم ولا ذواتهم. خاضعون للسلطة التي تجعل الجميع يتعصب لموقفه السياسي الذي تغذيه المصلحة الخاصة، مما يدخلهم في صراع يجعل ربحي الاقتتال تدور من غير توقف، ليتحول معها القتل من الاستثنائي إلى اليومي، ويكون الضحية الوطن والمواطن يقول الراوي: «عويل الأمهات يؤكد المأساة يضرب الموت في كل مكان كل يوم، كل ليلة. دون

¹ - باسمينة خضرة: بماذا تحلم الذئاب؟، تر: عبد السلام يخلف، ص 364.

² - Mohammed Dib: Smorgh, pp 180-181.

الفصل الثالث ————— محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

شفقة»¹، وكذا قول الراوي في "السيمورغ": «هذه الحرب التي تواصلت لثماني سنوات والتي لا توشك ذكرها على الانمحاء من الذاكرة، رغم هذا، هناك شخص يرتدي ثيابا قصيرة داخل أحد المنازل الباشا، انكشف السر، ها هو يقف وبطنه إلى الأمام، الاعتراف بالنعمة لسلطاننا الخيرة والحريصة على ضمان السلم والنظام عندنا»²، بينما يبقى الجناة في مأمن، لقد حولوا الوطن إلى ساحة اقتتال لأصحاب المصالح، وهو الأمر الذي أفقد الوطن قيمته المعنوية.

بما أن الوطن هو «المعطى المكاني المحوري في مستوى وعي الشخصيات المعنية بما يحدث في ساحته، بما أنها تنتمي إليه فهو يخصها»³، إنها معنية بالعنف الجاري فيه أحببت أم كرهت، لقد طال العنف الكل بما فيهم الراوي البطل المثقف الذي وقف باكيا وطنا مفقودا عصفت به ريح التغيير وهدمته عواصف القتل فأغرقتة في أنهار من الدماء هكذا يسهم الجميع في تفتيت الوطن القيمة والجغرافيا، ثم بعد ذلك يعبرون «عن أسفهم، عن عجزهم عن حماية الوطن أو الحفاظ عليه»⁴، فيكشف الراوي عن وجهة نظر الكتاب ومن ثمة المثقف يقول الراوي: «على الأقل أحس بأن الخطاب موجه إلي، وبأن مستقبلي يشغلهم بأنني موجود. مع الأفلان لم أكن أملك هذا الإحساس. نظامه متعفن ومضاد لكل عمل لا يخدم "الصوص-قراطية" سلطة اللصوص. الفن، المعرفة، العبقريّة الإنسانية تعد كلها انحطاطا خبيثا تقاومه السلطة بطرق العلاج الكيميائي، أرفض أن يتم التعامل معي مثل المرض. أنا فنان»⁵.

وكذا يقول الراوي أن الوطن قد تحول إلى كابوس: «بين يدي رضيع مغطى بالدم، أنا أيضا كساني الدم بما في ذلك عيني، في وسط هذا المستودع الكابوس الذي امتلأ بجثث الأطفال ما عادت الأم تستعطف أحدا، أمسكت رأسها بيديها، غير مصدقة، محتجزة في ألمه

¹ - ياسمينه خضرة: بماذا تحلم الذئاب؟، تر: عبد السلام يخلف، ص210.

² - Mohammed Dib: Smorgh, p173.

³ - الشريف حبيلة: الرواية والعنف، ص 72.

⁴ - المرجع نفسه، ص72.

⁵ - ياسمينه خضرة: بماذا تحلم الذئاب؟، تر: عبد السلام يخلف، ص84.

الفصل الثالث _____ محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

في الخارج ارتمت الجثث وسط هياكل الدواب المبقورة، في مكان على مد البصر، النيران تلتهم الأكواخ وتضيء لنا الحلبة كي نتشبع برويتها، رائحة حرق الأموات تزيد للمأساة مسحة نهاية العالم، كان مهولا لكنه مقدرا».¹

والحال هذه يفقد الوطن «مقابله كقيمة معنوية، ويتحول إلى مقابل اقتصادي، يجلب الربح للمتاجرين به، يصير مصدرا يغتني به السياسي، فيتلاشى المكان قيمة أمام سلطان المال»²، فما هو الراوي في رواية "بماذا تحلم الذئب؟" يقدم لنا صورة أخرى لأولئك الذين امتلكوا المال فراحوا يراهنون على الوطن وكيف فقد عندهم القيمة فأضحى مصدرا للربح لا غير يقول الراوي: «هذا مبلغ مائتي مليون، إنه مساهمتي المتواضعة، إنه شرف لي كي أخدم القضية.

الرجل من أرباب الصناعة الناجحين بالمنطقة، يقدرونه بسبب سخائه ودعمه غير المشروط... لقد حدثني الأمير عن المشكل الذي تواجهه مع بعض المنافسين وكلفني بحله نعم بحق، تحمس رجل الصناعة وهو يخرج طردا آخر من كيسه بالداخل مبلغ مائتا مليون أخرى، هي لتخليصي من أحد المنافسين... أريد فوق كل شيء أن يتم إضرام النار في مصنعه، هكذا أستطيع مضاعفة إنتاجي وأضمن دعما أهم للجهاد، هذا مخطط وعنوان للموقعين، الحراسة ضعيفة جدا وأقرب مركز للجيش يوجد على بعد كيلومترات من هنا. أقترح عليكم حرقهما مع بعض في نفس الليلة... من أجل مائتي مليون سأحرق كل مدينة الجزائر صالح الزاوش».³

وكذا قول الراوي في رواية "السيمورغ": «واحد من أولئك المتسلطين من رجال الأعمال والمنتخبين الذين يحتكرون لأنفسهم وظائف عديدة يشغل منصب رئيس البلدية وحارس الغابة وجامع الضرائب... الخ، لم يرد خبر إلى أحد يدل على وجود أشياء تحدث...

¹ - ياسمينة خضرة: بماذا تحلم الذئب؟، تر: عبد السلام يخلف، ص365.

² - الشريف حبيلة: الرواية والعنف، ص72.

³ - ياسمينة خضرة: بماذا تحلم الذئب؟، تر: عبد السلام يخلف، ص227.

الفصل الثالث ————— محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

لقد قيل فقط بأن حظر التجول آت ولا أحد يجادل في ذلك، هذا هو الأمر بكل بساطة، أنا الذي أوحيت به للأمير، للباشا، لتيemor ذلك الدوار الذي كان يتمتع بتطبيق القانون، ولا يملك أفراد رعيته سوى قول نعم سيدي ومليح سيدي، إنهم طائعين وينحنون بطريقة تعودوا عليها جدا»¹، وفي هذا عملية سرقة للوطن وتخريبه عوض بناءه، ونستشف من هذا رفض الراوي الضمني لهذه الممارسات التي تعمل على تدمير قيمة الوطن.

إن عملية إفقار الوطن تجعله يفقد أهم سلطة لديه وهي المال، وبفقدتها يفقد السيطرة على الوضع السياسي والاجتماعي، فتنتشر الفوضى ويتمرد المظلومون وتصبح القوة مهما كان نوعها (مال-سلاح) هي المتحكم في زمام الأمور، وهي التي تحدد ماهية الوطن وكنهه يقول الراوي: «إذا أردت أن تعرف فإن الحقيقة في مكان آخر. ليس الشعب هو الجحود أو الأمي. النظام هو الذي يفعل المستحيل كي يبقيه بعيدا عن نبل الكائنات والأشياء، يعلمه فقط كيف يتعرف على ذاته في الرداءة بكل أنواعها»²، وكذا قوله: «كلما ذبحت منهم جاءتني الرغبة في المزيد، لا شيء يسكن ألمي، لم أكن أنتظر الليل كي أبشر العقاب كنت أهاجم في وضوح النهار، في منتصف الشارع، تحت أضواء الشهوة، خو، كنت مصرا على وضوح الأشياء، يا هم يا أنا...أحرقت قدرا من المدارس يساوي قدر المزارع، هدمت الجسور ودمرت المصانع، أقمت الحواجز المزيفة ودفعت بدواوير بأكملها إلى النزوح»³ وعلى هذا الأساس يصبح قانون القوة هو منبع العنف على حساب القوانين الموضوعية للحياة «ونواميسها الراضية للفوضى والعنف»⁴، والساعية لإحلال السلم والأمن.

إذن فرحلة البحث عن الوطن تتطلق من حلقة مفرغة تفوح منها روائح الدماء لتركض الذات فيها باتجاه قدرها المجهول، في ظل هذا تلجأ إلى التذكر، فالذات تحشد صور الماضي لتملأ به فجوات الحاضر، غير أن هذا التفتيش والحفر في الذاكرة سرعان ما

¹ – Mohammed Dib: *Smorgh*, p176.

² – ياسمينة خضرة: بماذا تحلم الذئاب؟، تر: عبد السلام يخلف، ص83.

³ – المصدر نفسه، ص304.

⁴ – الشريف حبيلة: الرواية والعنف، ص74.

ينتهي بالاستفاقة على حقيقة مرة، حقيقة هذا الوطن الجريح يقول الراوي: «...حين نقضي أيامنا في تنكير ذاكرتنا ونقضي ليالينا في إعادة تشكيلها مثل لعبة ملعونة لتركيب الصور وبمجيئ الصباح نقوم بخلطها أكثر فأكثر؟ ... كل يوم وكل ليلة، دون توقف...»¹، وكذا قوله: «أن يتذكر الزمن الذي كان يحب فيه التسكع في الشوارع، صخب المطاعم المتواضعة، الموسيقى التي بنبرات الحوزي، حشود الأطفال وهم ينطون في الحقائق العمومية، حاول إعادة تخيل تلك المرحلة التي تفتقر إلى المهابة لكنها ما افتقرت يوما للعفوية، السهرات الجريئة حول فنجان قهوة، الفكاهة التي تتطلق مثل الصواريخ الجواله...ما أبعداها علامات ذاك الماضي، لقد ماتت ووريت التراب»²، وهو الأمر الذي جعل الراوي يغادر واحة الحلم والتذكر ليركن إلى الواقع بهوموم مدركا أنه أفضل من العيش على درج يدوس الواقع بأقدامه، فيخنفه برغبة التشبث بالماضي.

وعلى هذا الأساس فعلاقة الذات بالمكان ليست علاقة اجتماعية فحسب، إنما هي أبعد من ذلك، إنها علاقة انصهار وجودي في المكان وانتفاضة تمزق جغرافية الفضاء المعادل للوطن، وتمحو الحدود الفاصلة بين المكان والذات.

في ظل هذه الظروف يسلب الأفراد قدرة الفعل، فيصبحون كالوطن الذي يفقد قيمته يتشياً، «فيكرس وضعهم كمحكومين مسلوبي الإرادة يعملون على استرجاع وطنهم المسروق لكن ذواتهم عاجزة عن الفعل في وضع يحاولون تغييره في بعض الأحيان من خلال برامج سردية جماعية وفردية»³ تدفع بالأحداث إلى التأزم، فيضيع الوطن.

يتجمع الجميع في مجموعات لكل منها نظام وقيم. تختلف عن البقية، فيتولى السرد تسجيل كل تناقضاتها وصراعاتها الناجمة عن اختلافها، وهنا يغيب الوطن الواحد «الذي يحوي الجميع لينخرط في وضع جديد ساعدت عليه الظروف السابقة، فلا ينتبه الفرد إلى ما يعيش عليه من متناقضات ما فتئت تنمو»⁴ وتتعاظم وتتنوع مؤدية إلى صدمات مسلحة

1 - ياسمينه خضرة: بماذا تحلم الذئاب؟، ترجمة عبد السلام يخلف، ص16.

2 - المصدر نفسه، ص272.

3 - الشريف حبيلة: الرواية والعنف، ص75.

4 - المرجع نفسه، ص76.

الفصل الثالث _____ محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

فتودي بحياة الأبرياء في الطرقات والشوارع ليتمزق الوطن، فتنقاسمه المجموعات المتصارعة مما يخلق لدى شخصيات العمل إحساسا بأنها تقطن وطنا غير الذي ألفته وعرفته وعرفها قبلا.

في هذا الصدد يقول الراوي: «قريبا ستملأ الليالي بالصليل، والخطوات بالهذيان سريا الموت بدأت تحتل الدواوير، تضع النار في البارود، في المصانع، في مؤسسات الدولة وتسقط الجسور ومعها الطابوهات وتحدد الأراضي التي ليست ملكا لأحد»¹، وكذا قوله: «الكثير من الخلافات، وصلت إلى انشقاكات تتخر حبال الحركة... بدأت فروع مسلحة أخرى تحتل الميدان وأثبتت جشعها للتوسع أكثر فأكثر... تميزت بنصب كمائن عظيمة وهجمات خيالية ضد الثكنات العسكرية، حتى أنها تشبه جيوش الحدود والتي تعيش الترقب طويلا ثم تهاجم بلدا مجروحا كي تقضي عليه، اكتشف الأعضاء المؤسسون للفييس أنهم كانوا مجرد ألعوبة فسلطتهم لم تعد لها سطوة والكاريزمات التي كانت لهم بدأت تتهاوى مع الهجمات التي تزيد من شهرة بعض المجهولين، الوقت ليس للكلام الرنان، حلت الموسيقى محل الكلمة وبدأ الشيوخ يتراجعون أمام الأمرء والسياسيون أمام المحاربين... في الداخل كانت الحالة أدهى وأمر، تتدلع النزاعات هنا وهناك وتقضي إلى تشقق درع الجهاد وبعث التيارات في ارتباطات صاخبة، تتربص الجماعات بأدنى فرصة كي تجدد السباق نحو الزعامة، الإيرانيون، الأفغان، الهجرة والتكفير، السلفيون الجزارة، رفاق السعيد مخلوف التابعون لشبوطي الذي أعلن نفسه جنيرالا، تيارات أخرى خفية تعمل بتستر وماكيافيلية وتحرك المياه العكرة كي تسقي الشقاق والغموض»².

فهذه الجماعات محكومة بإيديولوجيات مختلفة هي التي تتولى تحديد معالم مسار الشخصيات وكذا أفعالها كونها تشكل مرجعياتها، لينشطر الوطن بعدد أحزابه مضيعا وحدته وأسباب التواصل بين أفرادها، لتتسع الهوة بينهم، فتعمل كل جهة على إشباع الناس بالخطب

¹ - باسمينة خضرة: بماذا تحلم الذئاب؟، ترجمة عبد السلام يخلف، ص 209.

² - المصدر نفسه، ص 278.

الفصل الثالث _____ محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

والبيانات التي لا طائل منها، بعدها تتحول إلى عمليات الإكراه على التحزب لجهة ما دون غيرها، وقد يصل الأمر في الكثير من الحالات إلى القتل، ومع هذه المعطيات تتنافى خصائص «المكان مع معنى الوطن الذي ألم به الخراب جراء العنف، وضاعت مساحته وتوقفت كل التفاعلات الحيوية القائمة بين أجزائه ليغيب تماما عن أداء أهم وظائفه، التي معها فقد قيمته المرجعية من حيث هو عنوان انتماء لا تتولاها الجماعة أو الجهة أو الحزب»¹، كونه يعد الملجأ والهوية.

إن كل ما ترويه المدونات الروائية في هذه الفترة الحرجة من تاريخ وطن جريح يئن تحت وطأة العنف، تهدف إلى إعطاء صورة واضحة عن الصراع الذي يعيشه الوطن محاولة «إعادة ترتيب نظام القيم المتصل بالمكان وبنياته الثقافية، يعمل الكل على تعديل وقلب أوضاع الوطن، وإلباسه رؤية ما»²، يقتنع صاحبها بأحقيتها وصلاحها على الرغم من عنف أساليبها، مؤدية إلى تغيير نظام البنى الاجتماعية والسياسية للوطن، من خلال الهيمنة العسكرية بعدها تنتقل إلى تغيير هوية المكان والإنسان إجباريا.

وهذا يعد إعلانا واضحا ومؤشرا لبداية فترة حرجة يغلب عليها العنف الدموي، فاسحا المجال واسعا لمشاهد الاقتتال والتدمير والحرق، وحضر التجول، والحضور الدائم للعسكريين في الشوارع والحصار، فيكون الموت المشهد المهيمن على أغلب نصوص المدونة يشكل حضورا تكوينيا على مستوى بنية النص وحركة السرد، يقول الراوي: «البلاد تترنج وأنت تأتي كي ترعجني...أعتقد أنك الوحيد الذي ترغب في مد الأشرعة؟ كلنا نرغب في الهروب من هنا. الكثير من الأشياء غير العادية تحدث في الخارج. الرئيس تمت إقالته. الدبابات تتلف إسفلت شوارعنا، أما الحرس فقد انتشروا في كل مكان وصولا إلى تحت أسرتنا وصفارات الإنذار تمنع عنا غلق الأهداب ولو لدقيقة واحدة، وأنت...الحرب هنا. مألنا الهلاك»³.

¹ - الشريف حبيلة: الرواية والعنف، ص76.

² - المرجع نفسه: ص77.

³ - ياسمين خضرة: بماذا تحلم الذئاب؟، ترجمة عبد السلام يخلف، ص188.

ويبدو جليا أن النص لا يبيّن هذه التجليات لظاهرة العنف من خيال كتابه، وإنما يستعيرها من الواقع المادي الذي هو مرجعه، وتنقلها اللغة إلى المستوى الفني فيغدو المرجعي هو منتج النص حيث «يتخذ شكل الرموز واللغة في هذه الحالة ليست سوى وسيلة لصنع هذه الرموز التي تلتحم بعضها مع بعض لتكون مناظر وحركات وشخوص وتجارب أي أنها أشبه بزجاج شفاف يرى القارئ من خلاله حياته متشابكة مع حياة الناس وأحوالهم»¹، وهذا على المستوى الفني.

فالروايات المعبرة عن عشية الدم تضعنا أمام وطن على الرغم من اتساع مساحته يبدو ضيقا مغلقا تحيط به الموت من كل جانب، محولا إياه إلى قطعة من الجحيم، علاقات أفرادها قائمة على العدااء والنفور والتناقض، «فيتعسكر المكان ليتسنى للسلطة إنتاج وطن جديد وفي المقابل تعمل الجهات الأخرى على صياغة جديدة للوطن بأدوات مغايرة»²، تشترك كلها في عنفها الشديد، يقول الراوي في رواية بما تحلم الذئاب؟: «انكمشت الجزائر على ذاتها وهي تنصت للرب ينهش أمعاءها والشقاء المهيم في عقلها، الظلال التي تلاصق حظائر القصب تزيد من أرقها، هدير أمواج مينائها تمنح إيقاعا لاحتضارها، تعيش مدينة الجزائر حسب رغبات الهلاك فيها، حبيسة حزنها، لا ترتجي شيئا من الناس ولا شيئا من الأم الصديقة لأنها كفت عن الإيمان بالاتساع وبالسما»³.

إذن فرحلة البحث عن الوطن، استقرت إلى رحلة بحث عن الذات، باعتبار التطابق المازج بين الذات والوطن، فكثيرا ما تتماهى الذات في المكان ليشكلا مركبا موحدا يصعب فصل أجزاءه، كون المسألة متعلقة بفضاء الوطن الحامل لبطاقات الهوية والمبين لمشاعر الشخصية، والرافض لأن يصنف ضمن بقية الأمكنة، باعتباره يصف الذات لمعرفتها ويتيح لها فرصة الوجود والتطور والازدهار، لذا فضياعه يعني ضياع الذات وتدميره هو تدمير

¹ - نبيلة إبراهيم: نقد الرواية من وجهة نظر الدراسات اللغوية الحديثة، دار الغرب، مصر، د.ط، د.ت، ص 203.

² - الشريف حبيلة: الرواية والعنف، ص 78.

³ - ياسمين خضرة: بماذا تحلم الذئاب؟، ترجمة عبد السلام يخلف، ص 271.

الفصل الثالث ————— محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

للذات الإنسانية ولتاريخها وكذا عاداتها وقيمها وكيانها، ليصبح هذا المكان المدمر دليلاً على الخلل النفسي والفكري والعائدي الذي أصاب الإنسان في العمق، ودفعه إلى عملية البحث عن السبل الكفيلة بإصلاح الخلل.

المبحث الثالث: الهوية أزمة الذات

لقد حاز موضوع الهوية في السنوات الأخيرة اهتمام عدد كبير من المؤلفات والأبحاث والأنشطة المختلفة، التي انصب اهتمامها على سؤال الهوية فراحت تطرحه من زوايا متعددة وهذا ليس بالأمر الجديد، وإنما موضوع الهوية قديم قدم الإنسانية، وقدم انشغالات الإنسان الاجتماعية والثقافية وتأمله في ذاته وفي ذات الآخرين.

فمسألة الهوية تعد من المسائل التي كثر الجدل حولها في الجزائر في السنوات الأخيرة، حيث «دخلت بقوة ساحة البحث الأدبي والجدل السياسي، وأصبحت من العبارات الكثيرة التداول على الألسن فهي متنوعة وتتعدد في معناها باختلاف الانتماء السياسي»¹. فالهوية لغة مأخوذة من "هو...هو" بمعنى أنها جوهر الشيء وحقيقته، لذا نجد الجرجاني في كتابه التعريفات يقول عنها: «بأنها الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب»².

وفي الفلسفة الهوية حقيقة الشيء المطلقة المشتملة على صفاته الجوهرية والتي تميزه عن غيره وتعرف بالهوية، وتعرف أيضا بمعنى "التفرد"، بالهوية الثقافية تعني التفرد الثقافي بكل ما يتضمنه معنى الثقافة من عادات وأنماط سلوك وميل وقيم ونظرة إلى الكون والحياة. أما في اللغة الفرنسية فإن اللفظ "Identité" مشتق من الكلمة اللاتينية "Idem" التي تطلق على الأشياء أو الكائنات المتشابهة أو المتماثلة تماثلا تاما، مع الاحتفاظ في نفس الوقت باختلاف بعضها عن بعض.

والهوية كما شرحت في قاموس "لاروس" الفرنسي: «تعني مجموع الظروف أو الحثيات التي تجعل من شخص ما شخصا مميزا أو محددا»³، وهذا لا يختلف عما جاء به قاموس "روبير" في تعريفه للهوية إذ يقول: «ما يسمح بالتعريف على شخص بين جميع

¹ - أحمد منور: الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، نشأته وتطوره وقضاياها، ص18.

² - الجرجاني الشريف: كتاب التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1983م، ص314.

³ - le petite la rousse (gronde forme), Dictionnaire – encyclopédique paris France 1995, P 283.

الفصل الثالث _____ محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

الأشخاص الآخرين، وإنما يضيف بين قوسين بأن الهوية: "الحالة المدنية والصفات المميزة للشخص"¹، عن غيره أي التي يتفرد بها عن البقية.

وبناء على هذا يمكن القول أن الهوية: هي تلك المعلومات المسجلة في بطاقة التعريف أو بطاقة الهوية من اسم ولقب وتاريخ ومكان المولد، والنسب العائلي، وعنوان الإقامة بالإضافة إلى العلامات الجسمية المميزة، كما قد يضاف إلى هذه المعلومات المعلومات الدينية والطائفية التي ينتمي إليها الشخص ولون بشرته، كما هو الحال في بعض الأقطار، غير أن هذا التعريف المبهم المركز على التقيد القانوني المنصب على الناحية الشكلية الظاهرة المبنية على بطاقة الهوية، وربما تضيق وسط التعميمات الفلسفية، ويبقى هناك عالم الإنسان الداخلي وما يزخر به من عواطف ومشاعر وأفكار وتجارب في علاقته بالعالم الخارجي، وما يتضمنه من تفاعلات مع بيئته الطبيعية وكذا عوامل الوراثة المنقولة إليه عبر الأجيال التي تؤثر في تكوين شخصيته ولهذا فمفهوم هوية الإنسان يتسع ويزداد تعقيدا ويتشعب إلى تسميات أخرى لها نفس المعنى كالذات، الإينية، الكينونة ليصبح حقا للدراسات في جميع مجالات البحث العلمي المتعلق بالعلوم الإنسانية.

وإجمالاً، فالهوية هي عبارة عن مجموعة من الخصائص والمميزات الأساسية الاجتماعية والنفسية والفلسفية والمعيشية والتاريخية المتشابهة التي تدل بوضوح على حقيقة أو كيان قوم منسجمين متشابهين، تجمعهم هذه الخصائص في ظرف زمكاني فتميزهم عن الآخرين.

فهوية الإنسان أو الثقافة أو الحضارة، هي جوهرها وحقيقتها ولما كان في كل شيء من الأشياء -إنسان أو حضارة- الثوابت والمتغيرات، «فإن هوية الشيء هي ثوابته التي تتجدد لا تتغير، تتجلى وتفصح عن ذاتها، دون أن تخلي مكانها لنقيضها، طالما بقيت

¹ - Le Robert dictionnaires d'aujourd'hui - huit (langue Française , Histoire, géographique, culture, general) ,rédaction dirigé par albainrey , édition Paris, france,1996, p5.

الفصل الثالث ————— محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

الذات على قيد الحياة»¹، بمعنى أن على الإنسان أن يحافظ على ثوابته مهما طرأت عليه من تغيرات.

وتتغذى الهوية من التراث والمجتمع، فهي إشكالية ذهنية وآلية من آليات الدفاع الجمعي، تتكون كما يرى البعض من ضدين هما:

1- البناء على الضد بمعنى أنها تتشكل بناء على الاختلاف مع الآخر.

2- البناء على المماثلة بمعنى أنها تتشكل على التشابه مع الآخر.

ومن ثم فإن الهوية هي جملة من العلاقات المعقدة التي تجعل الصراعات بين الأفراد والجماعات متشابهة في الجوهر ومختلفة في المظهر.

تعد مسألة الهوية في المغرب العربي عامة، وفي الجزائر خاصة أكثر المسائل التي تشغل الروائيين نظرا لاقترانها بحقيقة تاريخية مريرة وقاسية، الأمر الذي حتم عليها إقصاء الآخر وإبعاده من دائرة الأنا، فمفهومها الذي نراه متجليا في الروايات الجزائرية سواء المكتوبة بالعربية أو تلك التي اختارت اللغة الفرنسية حرفا تعبر به هو مفهوم مرن يتسع ويضيق حسب الأحداث والأفكار وحسب العلاقات مع الآخر.

وتمثل الهوية والآخر في الرواية المغاربية عامة والجزائر خاصة مرهون بـ:

أ. مرحلة الاستعمار والثورة: فالهوية هنا مربوطة بالآخر البعيد وهو الاستعمار الأوربي والآخر القريب ويتمثل في الأنا الخائنة للوطن وللمبادئ والقيم.

ب. مرحلة الإرهاب: وهنا القاتل والضحية جزء من الذات، فالآخر هو عين الذات على حد تعبير "بول ريكور"، ومن ثم تصوير الذات مأزومة وجريحة... لأن الآخر شكل لدى الهوية تصدعا تغذى من القتل وكل أنواع الهمجية والضرر.

لا يمكن إغفال الدور الذي يعلّبه الآخر في عملية تصوير الذات لذاتها، ولا يمكن بأي شكل من الأشكال تجاهل الصراع الحاصل بين الذات والآخر، فالآخر حاضر وبكيفية وجودية «إنه يشكل أفقا للذات وأحيانا جزءا من النظرة إلى الذات بغض النظر عن الأشكال

¹ - أنظر: محمد عمارة: مخاطر العولمة على الهوية الثقافية، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ط1، 1999م، ص6.

الفصل الثالث ————— محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

التي يتقدم فيها (شريك، مسالم، غاز، محتل) لذلك فهو يمثل -بشكل مفارق أحيانا- موضوع إغراء ومصدر حيطة وحذر»¹ في وقت واحد.

فتمة تداخل بين بناء الذات من جهة وصراعها مع الآخر خلال هذا البناء من جهة أخرى، وهذا ما تعنيه الأزمة فـ"إدوارد سعيد" «جعل صراع الذات في تحديد هويتها هو بحد ذاته أزمة، وقد جعل مبدأها الحادثة أو بمعنى أكثر تحديد اكتشاف الغرب، وقد عنى بالأزمة الجهد المؤلم أو المفرح في تحديد الذات»²، بمعنى عملية اكتشاف الأنا.

كما يمكن أن تنشأ الأزمة في الهوية نتيجة تعرضها للمتغيرات من حولها، «فيتخللها الخوف الهوسي على هوية مفترضة، عندها تصبح الأزمة ليست في الهوية ذاتها ولكنها في العقل المأزوم غير القادر على استيعاب المتغيرات»³، أي أنها تحدث عند قصور العقل وعجزه عن تقبل المستجدات.

وبحسب "إدوارد سعيد" تزامنت أزمة الهوية والحادثة فـالعالم في عملية تطوره لم يتوقف عند الحادثة، وإنما استمر في هذه العملية، إلى ما بعد الحادثة -نقد المعرفة ورفضها- وامتد ليشمل ما «يعرف بالسوبر حادثة» أو "علم الأفكار الممكنة" التي تحاول الخروج من مفهومي الحادثة وما بعدها، بهدف دراسة العوالم الممكنة التي يتم بناؤها من وجهة نظر مؤلفها على أنها أفكار ممكنة وقد لا يعتقها ولا يؤمن بها مؤلفها ولا أي فرد آخر لكنها قد تسهم على ضوء الممكن فيها في بناء المعرفة وتطويرها»⁴، كذلك الأفكار التي أسهمت في صناعة الذات.

فكل ما يصدر عن الشخصيات الروائية من انزياح في أفعالها، ما هو في حقيقة الأمر إلا محاولة لاختراق الواقع المأزوم والبحث عن آفاق أخرى ممكنة تتشكل فيها الذات

¹ - محمد نور الدين أفاية: الغرب المتخيل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2000م، ص51.

² - الطاهر لبيب: صورة الآخر العربي ناظر ومنظورا إليه، إعداد مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1999م، ص108.

³ - الحميد تركي: الثقافة العربية في عصر العولمة، دار الساقى، بيروت، لبنان، ط3، 2003م، ص18.

⁴ - حسن عجمي: السوبر حادثة "علم الأفكار الممكنة"، بيسان للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2005م، ص13.

الفصل الثالث _____ محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

وتتحدد معالم هويتها، فعلم «الأفكار الممكنة للذات خيارات قد تبدو صادمة إلى حد ما لكنها في الوقت نفسه تعيد ترميم الحقيقة المشوهة وتفضح الإنسان المزيف وتكشف ممرات متعددة يمكن من خلالها بلوغ الحقيقة»¹ حقيقة الذات والهوية معا .

فأثناء قراءتنا لرواية "السيمورغ" "لمحمدي ديب" نلمح ذلك الحضور المضطرب لموضوع الهوية، عبر نصوصها المتداخلة، ويظهر هذا الاضطراب على أكثر من صعيد فعلى الصعيد اللغوي يتجلى من خلال كثرة استعمال "ديب" للفظ "جزائر" كعلامة لغوية كاشفة عن أحد معالم هويته، أما على صعيد الدلالة فإن الصورة التي رسمها عن الهوية تظهر شديدة التحول، فإنه يقف إزاء تصورين متعارضين: الأول يظهر فيه باحثا عن هوية منسجمة مؤدية إلى معالم ثابتة تتحدد في علاقتها مع انتماءاته الفردية والاجتماعية والثقافية والوطنية والعرقية والإنسانية.

أما الثاني فيعرض فيه حال الهوية اليوم وما اعترأها من تهديم وتفكيك بسبب تيارات فكرية جعلت «الذات الإنسانية -على حد قول "لوهمان" Luhman- تفقد كل وجود فعلي»² لها حيث أن التعارض الحاصل بين هذين التصورين من شأنه أن يعكس تعارضا آخر يتجسد من خلال الممارسة الأدبية عند محمد ديب والتي تقوم على مقابلة -في عمله هذا- ما هو حدائي بما هو ما بعد حدائي، وهذا يفسح المجال للقارئ للتساؤل عن مظاهر هذا الجدل الذي أراده ديب «نموذجا لحالة تفتت الإنسانية وتناثرها شظايا»³، فقد أراد من خلال نصوص رواية "السيمورغ" منحنا نموذجا «للأدب الذي يقاوم بطريقته»⁴، مدافعا عن إنسانية دائمة البحث عن ذاتها.

¹ - نهال مهيدات: الآخر في الرواية النسوية العربية في خطاب المرأة والجسد والثقافة، عالم الكتب الحديث، ط1، 2007م، ص38.

² - سليمان الديبراني: ما بعد الحداثة، مجتمع جديد أم خطاب مستجد www.althakafah.net ، 16 مارس 2008م.

³ - فريدة النقاش: قضايا ما بعد الحداثة في الأدب والنقد، www.athakerah.net ، 16 مارس 2008م.

⁴ - المرجع نفسه.

لقد كشف ديب في أكثر من موضع وفي أكثر من مرة عن هوية يسهل على القارئ تحديد معالمها، وذلك بالاعتماد على الحضور القوي لكلمة "الجزائر" في نصوص الرواية دالة على الانتماء الشخصي له في قوله: «في جزائر مسقط رأسي»¹، كذا «بأنك جزائري أو ما الذي يعنيه كونك جزائري»²، «الكثير من إخواني المواطنين الجزائريين هناك»³ وللدلالة على الانتماء الأدبي له ككاتب يقول: «ككتاب جزائريين»⁴، «علاوة على ذلك مازال بعيدا ذلك الوقت الذي تم فيه التنبؤ بموت الأدب الجزائري»⁵.

ففي هذه الشواهد وفي أخرى، يتبدى واضحا تمسك "ديب" القوي بالمبدأ الحداثي المحتكم لمقولة: «الامتثال للهوية»⁶، حيث يصرح بوطنه غير أنه وهو يفعل ذلك يلمح إلى مشاعر الشوق والحنين جراء البعد والإقصاء فهو يسعى إلى «التأكيد على هوية»⁷ أسسها ثابتة تتحدد بالرجوع إلى التركيبية الاجتماعية والثقافية واللغوية لوطنه الجزائر.

وفي مقابل هذه الهوية الثابتة التي أعلن عنها "ديب" في القسم الأكبر من نصوص "سيمورغ"، نجد لها في القسم الآخر صورة شديدة التحول والتغير، وهو ما يمكنه من استجلاءه من خلال مشهدين الأول مشهد النهر الجاري والثاني مشهد ظلام الغيوم، الذي برع "ديب" من خلالهما في وصف الطابع الحركي والخاصية الجدلية لهوية الإنسان في علاقتها مع الذات، وسنورد الصورتين التشبيهيتين اللتين وردتا في نص "سياجات المعنى" من غير أن تفصلهما مسافة كبيرة، بحيث تكون إحداها صيغة شارحة للأخرى ومكملة لها وذلك لتقريب تلك الميزة التي تتمتع بها.

¹ – Mohammed Dib: *Smorgh*, p32

² – *Ibid*, p72.

³ – *Ibid*, p106.

⁴ – *Ibid*, p99.

⁵ – *Ibid*, p99.

⁶ – ياسين الحاج صالح: ضمائر الحداثة المنفصلة والمتصلة والمعقاة، www.dctcre.org ، 17 مارس 2007م.

⁷ – آلان تورين: نقد الحداثة، تر: أنور مغيث، المجلس الأعلى للثقافة الدار البيضاء، المغرب، د.ط، 1997م، ص39.

الفصل الثالث ————— محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

يقول الراوي: «لا شيء أقل تأكيداً من صور هويتنا، ورغم ديمومتها وشموليتها فلا شيء أقل ثباتاً وأقل ديمومة من هذه الصورة... سنكون القاع وتكون هي النهر الذي يسيل وتبقى متجذرة في كل من ديمومتها وعبورها يقول المثل في حديثه عن النهر بأننا لا نستحم في نفس الماء. هذا أيضاً ينطبق على الهوية».¹

وفي لغة شعرية يقول عن الظلال: «الظلال التي تضيعها السحب المسافرة تضيع في الحقول وتتيه في ارتباك عظيم، نحن أيضاً تائهون لكننا ظلالاً لأي سحب نحن؟ نحن تائهون»²، إن ما ينجم عن حركة الماء في النهر هو ذاته ما تحدثه حركة السحب في السماء، فالاضطراب الميزة المشتركة بين الحركتين، فمجرى النهر وظلال السحب تعد انعكاساً أشد اضطراباً لهذه الحركة، إذن الذات وفق هذا المنطلق ظل شديد التحول لا تكون في كل الأحوال عاكسة لصورة صاحبها ولا لهويته وإنما هي شفاقة لعب.

ويمكن القول وعلى غرار ما ذهب إليه مراد يلس إن «خلف تلك الصورة المرآوية تمام مخاوفنا ورغباتنا وهذياننا»³، فجّل المنعكسات التي وردت في نصوص الرواية تحمل دلالة «النزول إلى أعماق الذات وإلى أعتم النقاط فيها»⁴، وهو الأمر الذي يسمو بها إلى الذات الإنسانية الحقة.

إن هذا التحول والاضطراب اللذان يصيبان الهوية يجسدان أحد مظاهر البحث عن ذات موحدة وهو المظهر الذي دفع الراوي -في النص الإطار- إلى جعل نفسه طائراً يتقن لغة الطيور ويسرد فصول رحلتها الشاقة باتجاه ملك الطيور الأسطوري "السيمورغ" وهذا لم يمنعه من تجريد نفسه من اسم عائلي أو نسب يحددانه يقول: «لا أنفي بأنني تغيرت لكنني سأبقى دوماً ذلك اللقيط الذي هو الآن أنا، أنا لقيط مهما خفي هذا على الآخرين، باقي

¹ – Mohammed Dib: *Smorgh*, p75.

² – *Ibid*, p76.

³ – Mourad Yelles: *les miroirs de Janus littératures orales et écritures postcoloniales (Maghreb-caraïbes)*, OPU. Alger, 2002, p20.

⁴ – عزيز نعمان: رواية مابعد الحداثة-دراسة في نص "سيمورغ" لمحمد ديب، ص 154.

الفصل الثالث ————— محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

الاثني عشر أنا من دون اسم عائلي، ولد غير شرعي، نقل، هذا هو لقبى، لم أعرف لي لقباً قط غير هذا»¹، إذن هذه الصورة المبهمة والمجهولة للهوية ستذهب إلى الفقدان، حيث تكون المرأة مسرحاً لذلك الضياع: «ينقص أحدنا لحظة المناداة، لا يبدو في الصورة، إنه أنا»².

فعبر هذه المرأة يقع تحول آخر للراوي، حيث يصبح هو "السيمورغ" الممثل لملك الطيور عند الفرس والرامز للذات الإلهية عند الصوفيين يقول: «أنا اللقيط المتأثر جداً، هل تعلم بأن ذلك المجهول الذي يعبر أحلامك كي يصل إليك، أنت الذي تفتح فجأة عينيك واسعتين ولا تصدق بأنه قادم نحوك بابتسامة. كان هو. أنا هو. أنا السيمورغ»³.

فتحول الذات وضياعها في رحلة بحث عن ذات "السيمورغ"، ما هي في حقيقة الأمر إلى رحلة بحث عن الهوية والروح، وفي هذا دعوة ضمنية من قبل ديب إلى الرجوع إلى الماضي حيث الذاكرة الإنسانية المحملة به، إلى عالم الطفولة الفسيح الأرجاء، إلى فضاءات الأدب والحلم والخيال، كبديل عن الهوية المفقودة.

فعملية البحث عن الذات في الآخر، تعكس أخرية آمن "ديب" بها وسعى إلى تأكيدها عبر نصوصه الكثيرة في أفكار تصب في مجرى الهوية الجمعية التي ترمز إلى هوية إنسانية مبدأها التكامل والتعدد في الوقت ذاته.

إن تغير الذات سواء أكان مرحلياً أو غير مرحلي، طويل المدى أو قصير المدى فإنه في نهاية المطاف يتولد عنه رجوع إلى الأصل، فليس للذات من وجود دون الآخر وليس للهوية من مرجعية خارج سياق الأخيرة.

فالهوية التي ينشدها "ديب"، هي هوية غير منفصلة عن الوضع الإنساني المستجيب للتصور الحداثي القاضي بالتحكم في العالم عبر الأنا الجمعية الموحدة، هذه الأخيرة التي

¹ – Mohammed Dib: *Smorgh*, p19.

² – *Ibid*, p29

³ – *Ibid*, p20.

الفصل الثالث ————— محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

تشكل ذات تضيع بالقدر الذي تعثر فيه على نفسها، ولقد تمكن "ديب" من ترجمة تلك الخاصية التي تقوم عليها الذات الإنسانية بأن جعل من موضوع البحث عنها وتحقيقها أمراً في غاية الأهمية، للصمود أمام مجتمع اللامبالاة السريع الخطى، والذي في مشروعه أفكاراً معادية للإنسانية وملغية لهوية الإنسان.

فما تم رصده في نص "سيمورغ" من مظاهر هوية قوامها الظهور والاختفاء على أساس من الحركة والثبات، الذي يعكس تذبذب صورة الهوية وأزمة الذات الباحثة عنها الساعية لإثباتها، سيستمر ديب في رحلة البحث عن الذات، وبالتالي عن الهوية، فراح يحاور العنصرية والإرهاب والعولمة والافتراضية والاستتساخ، وكلها مظاهر وأعراض تستجيب لـ «مبدأ السلطة والوصاية والهيمنة أي ما يمكن تسميته بمبدأ الاضطهاد»¹ الذي قوامه عدم وجود ثقة بين الناس والاعتزاز المفرط بالذات، أو ما يمكن تسميته عند ديب بالأنانية التي لا يراها عند الأفراد فقط بل «ثمة وجود للأنانية الدول على غرار أنانية الأفراد»²، أنانية متمثلة في حب هذه الدول لمصالحها وسعيها الدائم لصونها.

فالأعراض المشخصة لداء الإقصاء بما تحمله من مشروع معادي للإنسانية قائم على فكرة «لسحق الإنسان وتهميشه»³ وهو ما يفضي إلى تهमيش الذات، وهو الأمر الذي يجعل هوية الإنسان مضطربة، حيث يرفضها ديب لأنها قائمة على «التشتت والتشطي والشعور بالفقدان»⁴ مما يلغي ذات الآخر وهويته.

فالعنصرية كأحد أشكال الإقصاء تتحدد في نص "سيمورغ" كـ «منبر للترف والتفوق»⁵ للذين توجد هما الرغبة في التحكم والسلطة، والأمر لا يقف عند هذا الحد بل يتعداه إلى حد التطرف الذي يجعل من ذلك الشخص العنصري -على حد قول "آلان تورين"- «مسكوناً

¹ - عزيز نعمان، رواية ما بعد الحداثة، ص 159.

² - Mohammed Dib: Smorgh, p88.

³ - فريد النقاش: قضايا ما بعد الحداثة في الأدب والنقد، www.althalerah.net، 16 مارس 2008م.

⁴ - نادية صادق العلي: مدخل لما بعد الحداثة، www.althalerah.net، 16 مارس 2008م.

⁵ - Mohammed Dib: Smorgh, p40.

الفصل الثالث ————— محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

بهويته ولا يرى في الآخرين إلا ما يجعلهم مختلفين عنه... أما الآخر فيبدو بسهولة وكأنه يمثل تهديدا مطلقا، إما هو وإما أنا»¹.

أما الإرهاب فهو صورة متقدمة من صور العنف التي صاغها في قوله: «أحمل القتل في نفسي»² وهي صورة تعكس بصدق فكرة "العنف الذاتي" التي طبعت سلوك الفرد اليوم لتجتاز الذات عتبة الاضطهاد، منمية روح اللاتسامح الديني، وكلها أعراض مشخصة لداء العنصرية، ووباء الإرهاب الذي ينبئ في نزعتة الأصولية عند "ديب" سرطان يدمر مجتمعا أو فريقا أو عائلة، وكذا قوله: «من كثر حبهم لهويتهم، لا يرتاح الفرنسيون أبدا لهوية الآخرين والتي لن يختلفوا لحظة في ازدائها أو الغضب منها»³، فثمة رجوع إلى «الهوية العرقية وهو الطريق الموصل إلى تعصب الهوية»⁴ القائم على حساب هوية الآخر.

يضاف إلى العاملين السابقين العولمة كشكل آخر من أشكال الاضطهاد هدفه السيطرة، من أجل صياغة "العالم والحياة" في معادلة واحدة لا نهائية، تعمل على ترسيخ فكرة الغلبة الهادفة دوما إلى قهر الذات الضعيفة بعد إيقاف حركيتها، بغية إقصائها من دائرة الهوية المركزية المنحصرة في الدول الأورو-أمريكية-التي تريد تشكيل هويات المجتمعات الأخرى وفق ما تريد هي، وذلك بالقضاء على هوياتها الأصلية عن طريق سلاح أخطر لكنه أكثر حداثة وتمدن لأن ظاهره خدمة الأمم.

فـ "ديب" ينتقد هذه العولمة كونها تعد شكل جديد من أشكال الهيمنة الهادفة إلى الاحتلال، ونقده هذا يقوم على ما ذهب إليه "تورين" في قوله: «إن الحداثة لم تعد قوة للتحرير ولكنها صارت مصدرا للاستعباد وللاضطهاد والقمع»⁵ مما يجعل منها «وعيا

¹ - آلان تورين: في الحداثة وما بعدها، مصائر الحداثة، تر: قاسم مقداد ومحمود موعد، www.althalerah.net، 16 مارس 2008م.

² - Mohammed Dib: Smorgh, p65.

³ - Ibid, p96.

⁴ - آلان تورين: في الحداثة وما بعدها، مصائر الحداثة، تر: قاسم مقداد ومحمود موعد، www.athakerah.net، 16 مارس 2008م.

⁵ - عبد الله الغدامي: آفاق ما بعد الحداثة، www.athakerah.net، 16 مارس 2008م.

الفصل الثالث ————— محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

إيديولوجيا مراوغا محتالا»¹ لا علاقة له لا بمسألة إلحاق الشرق بالغرب ولا الجنوب بالشمال، وإنما هي مسألة السيد بالعبد، وهي المسألة التي سجلت حضورها عند "ديب" في كل ما سعى لاستحضاره من رموز في نصوص روايته "السيمورغ" محاولا الجمع والوصل بين هوية الشرق وهوية الغرب عبر رباط الإنسانية الذي يرى أنه من الضروري التمسك به. أضف إلى ذلك الافتراضية واحدة من أشكال التطرف التي تهدد هويتنا وتحاول ضربها في الصميم وهي تعد مظهرا من مظاهر العولمة المنبئة بنقص التواصل بين الناس بسبب التطور الهائل الحاصل في وسائل الاتصال، وهي محاولة للإفقاد الإنسان إنسانيته وذلك بخروجه عن ذاته وعن الآخر وعن هويته.

يجب على الإنسان الحذر من مما يحاك ضده وضد هويته فلا ينبغي أن تتحكم فينا المادة، ولا التكنولوجيا لأنها ليست سوى وسائل مساعدة وليست هي الوجود، وكل تسليم بها يبعد الفرد عن ذاته ويحول بينه وبين الآخر كيفما كانت علاقته بهذا الأخير.

يأتي الاستتساخ كأبشع صور الإقصاء والهدم التي يمارسها الإنسان على ذاته وهويته، من منطلق حديث ديب عن كائن آخر من خلق الغرب هو المستنسخ الذي «سيكون ذلك الشيء ظلا مهما ادعى أو حاول إيهامنا، لا ننتج هذا الظل بل الآلة هي التي تفعل ذلك، النسخة التوأم هو كائن من نفس التركيبة»²، وهو ما ينبئ بعصر جديد يزداد فيه اغتراب الإنسان عن الإنسان وضياح ملامح الهوية المحددة، لينتصر الخداع على الإنسانية.

إذن علينا أن نحذر من كل ما من شأنه أن يمس هويتنا، أو يحدث فيها خللا أو اضطرابا، فالتيارات الفكرية المعاصرة في صراعها وتناحرها فيما بينها متخذة من العلم وسيلة لتحطيم احترام الإنسان لذاته يجب الابتعاد عن فخ الهوية الموهم بأحقية الاكتشاف الجديد

¹ - طيب تيزيني: من الحداثة إلا ما بعد الحداثة، إشكالية ونقد، www.athakerah.net ، 16 مارس 2008م.

² - محمد ديب: السيمورغ، تر: عبد السلام يخلف، دار سيديا، الجزائر، ط1، 2011م، ص215.

الفصل الثالث ————— محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

للذات تحت شعارات العرقية والأصولية الإقليمية والقبلية التي تغذيها حرية لا نهائية وغير مقيدة.

فـ"ديب" يؤمن بهوية متعددة قائمة على مبدأ الانسجام الحداثي، هوية تبنى ويعاد بناءها في سياق تفاعلي حاصل بين الذات بعضها البعض، بمعنى أن الهوية متشكلة في العلاقة الرابطة بين الذات والآخر.

فالغيرية التي عدت من أكثر العناصر استثمارا عند ما بعد الحداثيين، تتحد عند ديب في جو ملؤه التواصل و«الحديث عن الآخر الذي يعني الحديث عن الذات»¹، وقد أعطانا صورة عنها في روايته "لايزا" يقول: «...آخر يشعركم بغيرتكم بدءاً بهويتكم الخاصة، آخر يعلمكم من تكونوا ومن لا تكونوا»²، بمعنى تكوين علاقة مع الآخر مبدأها الانفتاح، دون التماهي والذوبان فمن خلال الآخر يمكننا معرفة مكامن الخلل في الذات والهوية.

وما يمكن استنتاجه هو أن الهوية يجب أن تبنى بناء تفاعلياً دائماً نركبه بتركيبنا مع الغير فهي مثل الأدب، لا يجب أن تعترف بالحدود الضيقة ولا الواسعة بين أفراد المجتمع الإنساني، في مسعاها لجمع ما تفرق دون التخلي عن الحنين لوحدة العالم الضائعة، ومن غير التخلي عن حلم تصالح الإنسانية مع ذاتها.

¹ – Mourad Yelles: *les miroirs de Jenus* , p19.

²– Mohammed Dib: *laiezza*, édition Albin Michel , paris, 2006 , p115.

المبحث الرابع: الإرهاب قتل الذات

يعد مصطلح الإرهاب من أكثر المصطلحات والمفاهيم التي مسها التلاعب بسبب محاولة تعريفها وقولبتها ضمن ما يخدم الدول والحكومات، فأصبح للإرهاب دورا مهما في تحديد العلاقات الدولية، خاصة الولايات المتحدة الأمريكية التي صنفت العالم إلى محور الخير ويضم الدول التي تساندها في حربها على الإرهاب، ومحور الشر ويضم كل الدول الإرهابية.

مصطلح الإرهاب حديث نسبيا يرجع تاريخه إلى القرن الثامن عشر ميلادي عرفت هذه الكلمة خلال الثورة الفرنسية الكبرى وابتداء من 1794م على وجه التحديد «بدئ في استعمال كلمة إرهاب في سياق سياسي بحت، وكان مدلولها السياسي قد ظهر نتيجة اختيار فكري وروحي داخل حياة اجتماعية راكدة ومشحونة بالقلق والمنغصات»¹ والأزمات.

على الرغم من أهمية تعريف الإرهاب لتحديد الظاهرة، ووضعها في سياقها العام، إلا أنه لا يوجد تعريف واحد ومحدد للظاهرة التي شغلت الأذهان وأفردت لها الدراسات والبحوث فحديثنا عن الإرهاب هو حديث عن العنف الذي هو قديم قدم الإنسان.

1- ماهية الإرهاب

أ- لغة:

قال الفيروز أبادي: «أرهبه واسترهبه: أخافه وترهبه توعده»²، وجاء في لسان العرب: رهب: أخاف ورهب الشيء خافه، والرهب الخوف، وترهب غيره إذ توعده وأرهبه إذا أخافه وأفزعه، واسترهبه استدعى رهبته الناس وهو في لغة العرب مشتق من «رهب، والرهب هو

¹ - فاروق جعريف: أدب الأزمة في رواية ذاكرة الماء لواسيني الأعرج، مذكرة معدة لنيل شهادة الماجستير في الأدب

العربي، تخصص أدب جزائري معاصر، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، 2010م-2011م، ص94.

² - مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي: القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، ط3، 1407هـ، فصل الرء، باب

الباء، ص211.

الفصل الثالث _____ محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

الخوف والدُّعْرُ والْفَزَعُ»¹، والإرهاب «مصدر أَرْهَبَ ومادنتها رهب ومعنى أُرهب في اللغة: أخاف وأَفزع وأصله مأخوذ من الفعل الثلاثي: رهب يرهب ويأتي في اللغة لأحد المعنيين كما يقول ابن فارس أحدهما يدل على خوف والآخر يدل على دقة وخفة»².

والإرهابي في المنجد: «من يلجأ إلى الإرهاب لإقامة سلطته، والحكم الإرهابي هو نوع من الحكم يقوم على الإرهاب والعنف تعتمد إليه حكومات أو جماعات ثورية»³، والإرهاب في قاموس الرائد «رعب تحدثه أعمال عنف كالقتل وإلقاء المتفجرات أو التخريب لإقامة سلطة أو تقويض أخرى، فيكون الحكم الإرهابي "نوع من الحكم الاستبدادي يقوم على سياسة الشعب بالشدة والعنف؛ بغية القضاء على النزعات والحركات التحررية»⁴ الساعية للاستقلال.

تشتق الكلمة الفرنسية Terreur بمعنى رهبة أو رعب من «الأصل اللاتيني Terrere، Teresere وهما فعلاَن يفيدان جعله يرتعد ويرتجف ومن المفردات المشتقة من هذين الفعلين terrorise-terror، جاء لكلمة terror في قاموس الأكاديمية الفرنسية الذي نشر في 1694 التفسير الثاني: رعب خوف شديد، اضطراب شديد تحدثه في النفس صورة بشر عاجز أو خطر قريب وهي تقابل في اللغة العربية رهبة، رهبي أو الحالة التي ترعب وتَفزع»⁵ وتلقي في نفوس الأفراد والجماعات الخوف الشديد.

ب- اصطلاحاً:

هو عبارة عن «أحداث صادمة هنا وهناك، مالا يرهب منها بالقتل والتدمير، يرهب بالفقر والجوع والبطالة، أحداث تتداخل في الأزمات السياسية مع المصالح الاقتصادية

¹ - أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور: لسان العرب، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط2، مادة رهب، ص337.

² - ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، تح: شهاب الدين أبو عمر، دار الفكر، بيروت، د.ط، 1994م، مادة "رهب"، ص405.

³ - مجموعة مؤلفين: المنجد في اللغة والإعلام، دار المشرق، بيروت، ط2، 1982م، مادة رهب، ص282.

⁴ - جبران مسعود: معجم الرائد، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1978م، ص88.

⁵ - ماجد موريس إبراهيم: الإرهاب... الظاهرة وأبعادها النفسية، دار الفرابي، الجزائر، ط1، 2008م، ص25.

الفصل الثالث _____ محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

والتنافرات العرقية ويختلط ويتنافس الانتماء الوطني مع الهوية القومية، يشتبك كلاهما مع الطائفة الدينية، هذا الكم من العناصر المتداخلة يجعل تناول موضوع الإرهاب ليس فقط حساسا ولكنه أيضا معقد ومركب»¹ وذلك لاعتبارات عديدة.

فهذه الظاهرة لا تعد مسألة كباقي المسائل اليومية التي يتعرض لها العالم، بل كانت الأكثر حضورا على الساحة الدولية في السنوات الأخيرة -النصف الثاني من القرن العشرين- والسنوات الأولى من القرن الواحد والعشرين، فهو موضوع حساس في الدراسة والتعامل وهو الأمر الذي يجعله بعيد عن الحصر.

ليس هناك إجماع اصطلاحي على تعريف الإرهاب عند المتخصصين فما ينظر إليه البعض عملا إرهابيا يراه البعض الآخر عملا مشروعاً، الأمر الذي جعل القاضي "ستيوارت" يقول: «أن المرء يعرف الإرهاب حينما يراه»²، غير أن هذا لم يمنع من الاتفاق على الحكم الأخلاقي عليه وهي إدانته والتتديد به وتجريمه، ومن تعريفاته أنه «استعمال العنف بواسطة مجموعة قومية أو منظمة سرية من أجل الحصول على حقوق سياسية أو اجتماعية أو دينية عندما يكون المقصود من هذا العنف تخويف العامة»³، والإرهاب هو كل فعل له أهداف سياسية وتترتب عليه الآثار النفسية السلبية كالخوف والرعب وهو من الممارسات التي جرّمها القوانين والأنظمة.

لقد اختلفت التعاريف من باحث لآخر بحسب تغيرات العالم السياسي اليوم، فمهوم الإرهاب تغير وأصبح يعني استخدام القوة والعنف من أجل مشروع إجرامي فردي أو جماعي، بهدف الإخلال بالنظام العام وتعريض سلامة المجتمع وأمنه للخطر، لذا تعرفه الجمعية العامة للأمم المتحدة بطريقة موسعة على أنه «يشمل الأعمال والوسائل والممارسات غير المبررة التي تستثير فزع الجمهور ومجموعة من الأشخاص لأسباب سياسية بصرف

¹ - ماجد موريس إبراهيم: الإرهاب... الظاهرة وأبعادها النفسية، ص18-19.

² - محمد عزيز شكري: الإرهاب الدولي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، د.ط، 1991م، ص14.

³ - ماجد موريس إبراهيم: الإرهاب... الظاهرة وأبعادها النفسية، ص26.

الفصل الثالث _____ محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

النظر عن بواعثه المختلفة»¹، ولقد اعتبرت اتفاقية جينيف لقمع ومعاقبة الإرهاب لسنة 1937م أن الأعمال الإرهابية هي «الأعمال الإجرامية الموجهة ضد دولة ما، وتستهدف أو يقصد بها خلق حالة رعب في أذهان أشخاص معينين أو مجموعة من الأشخاص أو عامة الجمهور»²، فهو حالة خوف تشمل الكل .

والإرهاب أمريكي هو بربرية حديثة، وهو شكل من أشكال العنف السياسي، وهو تهديد للحضارة الغربية، وخطر كبير على القيم الروحية الفرنسية، أما "تشومسكي" فيقول أن: «الإرهاب ببساطة جزء من أعمالنا»³، في حين يعرفه كمال حماد بقوله: «يمكن تعريف الإرهاب بشكل عام على أنه استخدام غير شرعي للقوة أو العنف أو التهديد باستخدامها بقصد تحقيق أهداف سياسية والإرهاب في هذا الإطار هو الذي يتعدى العمل المخالف للقوانين الداخلية للدولة أو حتى ذلك الذي لا يخالفها إلى كونه مخالفا لمبادئ القانون الدولي وقواعده»⁴، وقد ميز «أحمد إقبال» من أنواع الإرهاب: إرهاب الدولة والإرهاب المقدس الديني، وإرهاب الجريمة والإرهاب المرضي والإرهاب السياسي المعارض الصحوي الثوري»⁵ وللإرهاب ثلاث خصائص مهمة هي:

«1- استخدام العنف أو التهديد باستخدامه.

2- خلق حالة من الذعر وعدم الأمن في المجتمع.

3- تحقيق أهداف سياسية أو اجتماعية»⁶.

1 - ثامر إبراهيم الجهماني: مفهوم الإرهاب في القانون الدولي، دار الكتاب العرب، دار حوران، الجزائر، سوريا، ط1، 2002م، ص19.

2 - أمل اليازجي ومحمد عزيز شكري: الإرهاب الدولي والنظام العالمي الراهن، دار الفكر، سوريا، د.ط، 2002م، ص63.

3 - نبيل سليمان: الرواية العربية والمجتمع المدني، الإرهاب-الديكتاتورية حقوق الإنسان، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2010م، ص23.

4 - كمال حماد: الإرهاب والمقاومة في ضوء القانون الدولي العام، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1423هـ، ص23.

5 - نبيل سليمان: الرواية العربية والمجتمع المدني، ص24.

6 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

الفصل الثالث _____ محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

وعلى العموم يقصد بالإرهاب استخدام القوة أو العنف أو التهديد أو الترويع ضد الآخرين الذين يوضعون في حالة من الرعب والخوف المزمين من أجل تحقيق أهداف مباشرة مثل تقويض حالة الأمن وبث الرعب ولفت الانتباه، أو لتحقيق أهداف غير مباشرة كتغيير الحكومة وقلب النظام القائم، كما فعلت الجماعات الإسلامية المسلحة في الجزائر والإرهاب يتمظهر في عدة أشكال منها الاغتيالات المذابح الجماعية والفردية، الاختطاف الاحتجاز... الخ.

2- رواية الأزمة الجزائرية والإرهاب:

إن فلسفة الكتابة الإبداعية، هي: «شكل علاقة المبدع بالمجتمع وثورته عليه لإعادة صياغة وإعادة تشكيل رؤيته للعالم، وبالتالي فهي تجعل الوعي، ومن الممارسة الإنسانية -الإنسان الفرد- التي تولده وتعينه باستمرار واقع حقيقيا، يمد جذوره في الفاعلية الماضية والواقع الراهن، ويعكسها، ولكنه باستمرار يتخطى -بل يجب أن يتخطى- المعطى الجاهر وباستمرار يضيف إلى الواقع»¹، ويكشف عن جوهره كإنسان منتم إلى منظومة فكرية تؤسس لتجربة إنسانية محلية، تحمل في عمقها خصوصية الإنسان الجزائري، وتكشف في الوقت ذاته عن مختلف المنابع «المتصلة بالذات في إطار الوعي بالظروف التاريخية حيث يصبح الجزائري -مسؤولا لا عما هو كائن بل عما هو ممكن أن يكون، لا عما هو معروف ومتعارف عليه- بل عما هو مجهول ولم يكتشف بعد».²

وعليه وجب علينا أن نعيد النظر في النتاج الأدبي الروائي لحقبة السبعينيات وما بعدها، من أجل الكشف عن درجة الوعي الروائي ومدى تمكنه من أدواته الكتابية، فالبحث عن الهوية والرؤية للعالم يتم عبر مساءلة الهوية الثقافية للإنسان الجزائري مساءلة «جمالية في ضوء مكونات ثقافية أصيلة، وتضاريس مجتمعية (...). فكيف لرواية في هذه المنطقة

¹ - غالي شكري: الأدب والماركسية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1979م، ص160.

² - المرجع نفسه، ص161.

الفصل الثالث ————— محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

أن تحمل اسم -الجزائرية- وهي لا تراهن إلا على مستوى واحد من مستويات التصوير المرجعي لمكونات¹ الهوية والذات والعالم.

فالكتابة الروائية وقت الأزمة «خضعت لمسارات ملتوية ومعقدة كونها لا تملك رؤية موقفية واضحة، وإذا اعتبرنا الكتابة تعبيراً عن موقف، والموقف إيديولوجياً»²، فالكتابة الإبداعية «تستدعي دياليتيك الواقع والفكر والفن»³ كلها معاً.

لقد كانت نهاية مرحلة الثمانينات نتيجة حتمية لمرحلة سياسية بالغة التعقيد أوجدتها اضطرابات البنى الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وبحلول أكتوبر 1988م بدت الهوة الواسعة الفاصلة بين الروائي والواقع، وهو الأمر الذي جعله يعيد النظر في علاقته بذاته وبواقعه متخذاً وضع وموقف المواجهة القلقة لإشكالات الواقع المتعلقة بمعطيات مجتمع «الانفجار بمعنى أن ثمة خطأ للرواية ابتداءً ينمو ويتشكل بوعي جديد على صعيد الموقف الفكري خصوصاً، دفع الروائيين الجزائريين لمراجعة رؤيتهم السبعينية وما بعدها سياسياً واجتماعياً وثقافياً، حاولوا من خلالها أن يطلوا من مركز رؤيتهم الجزائرية على الواقع»⁴، لذا راح الروائي يحاول فهم واستيعاب إيقاع المسدس والرشاش، ورائحة الموت، «والجروح الغائرة، فكانت النتيجة أن العالم الروائي للشخصية الروائية تنسحب بشكل أو بآخر من أزمة الروائي عبر سلسلة من العذابات والهموم في ضوء وعي ينسحب بالضرورة على الطريقة الكفيلة بتحقيق نهضة نوعية، معادلها الموضوعي، فثمة معادلة من الخارج إلى الداخل، ومن الداخل إلى الخارج يتشكل من رؤية وموقف وهذه الرؤية الموقفية لا بد أن تكون متطابقة أو متعادلة، أي كأن يكون الواقع مقابل الحلم، والغياب مقابل الحضور، وهذه المسارات تكون

1 - محمد أمنصور: خرائط التجريب الروائي، مطبعة أنفو برانتن فاس، المغرب، ط1، 1999م، ص54.

2 - عبد الوهاب بوشليحة: أزمة الذات والعالم في الرواية الجزائرية، رواية تيميمون لرشيد بوجدره نموذجاً، ضمن أعمال الملتقى الدولي حول السرديات أسئلة الهوية والخطاب السردية، جامعة بشار، ص68.

3 - مجموعة من المؤلفين: الرواية العربية بين الواقع والإيديولوجية، دار الحوار، دط، 1986م، ص50.

4 - عبد الوهاب بوشليحة: أزمة الذات والعالم في الرواية الجزائرية، ص68.

الفصل الثالث _____ محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

عادة متقابلة على الدوام، وتسير متلازمة باتجاه الوصول إلى النقطة المعلومة، والبؤرة الحديثة المشروطة بتنمية وتعميق الفعل الروائي»¹.

فالرواية كونها الجنس الأدبي الأقدر والأنسب للتعبير عن حياتنا المعاصرة خاصة إذا كانت هذه الأخيرة مثقلة بالأزمات معقدة التفاصيل، غامضة، وهو الأمر الذي ضاعف الاهتمام برواية الأزمة التي عالجتها الواقع الجزائري المأزوم طيلة عشرية كاملة عصف بالجزائر والجزائريين تعددت تسميتها.

كان من الطبيعي أن تكون هذه الظروف سببا في ولادة كتابة مختلفة بوعي جديد يوحي بثناء التجربة ونضج الرؤيا لدى الروائي لما يختزله راهنه من قضايا مست هذا المجتمع وأثرت بعمق في سيرورته التاريخية.

إن رواية الأزمة اتسمت بهيمنة البعد الإيديولوجي الذي يعد أحد المكونات الأساسية للخطاب الروائي الجزائري ذلك «أن النص الروائي لا بد له من رؤية إيديولوجية معينة يقوم عليها فليس غريبا أن يلتزم الكاتب بإيديولوجيا معينة لأن ذلك جزء من تحقيق الذات»²، غير أن هذه الإيديولوجيا تختلف عن تلك التي رسمت ملامح رواية السبعينات والثمانينيات أضف إلى ذلك التشكيل الفني والجمالي الذي ميزها عن تلك الروايات التي سبقتها ومن هنا يكون الكشف عن رؤية الرواية لهذه المرحلة الحرجة.

فقد قامت هذه الرواية برصد أزمة الوطن في كل مستوياتها السياسية والاجتماعية والدينية، لتكشف عن حقبة لا يزال جزء منها غامضا مستعصي الفهم، لخصه صراع بين السلطة والجماعات الإسلامية ولربما هناك أطراف أخرى مجهولة، ليصبح التاريخ والسياسة والدين والثقافة والإرهاب وغيرها من القضايا موضوعات فرضت نفسها على رواية الأزمة.

¹ - عباس عبد الحليم: قضايا القصة العراقية المعاصرة، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، العراق، د.ط، 1982م، ص178.

² - علال سنقوقة: المتخيل والسلطة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2000م، ص87.

الفصل الثالث ————— محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

إن ربط الرواية بمرجعياتها التاريخية والسياسية، وسياقاتها الاجتماعية والثقافية أمر لا مفر منه، فالم تأمل لظاهرة الرواية الغربية أو العربية منذ نشأتها يكشف عن تزامنها مع هذه المرجعيات وتلك السياقات، «فالرواية -بالإضافة إلى الفنون الأخرى- بدرجات متفاوتة، هي الفن المنفتح على المجتمع بشكل خاص نظرا لطبيعتها الراصدة، التي تقدم وعيا خاصا للحياة، سواء أكان ذلك الوعي مرتبطا بلحظة راهنة أو ماضية»¹، فالروائي لا يمكن أن ينفصل أثناء الكتابة عن الظروف التي يعيشها كذات داخل وطنه ومجتمعه، وبخاصة الظرف السياسي.

لقد واكب الخطاب الروائي الجزائري فترة السبعينات متماهيا مع الثورة التحريرية بكل تفاصيلها وتحولاتها، وكذا الثورة الاجتماعية التي أعقبت الاستقلال، وحاورت مصائر الأفراد والجماعات بكل طموحاتها وانكساراتها بعد ذلك، بداية الثمانينات وحتى نهاية التسعينات حتى بلغت الصراعات السياسية أقصاها مع بروز أصوات تدعوا إلى قيام نظام سياسي جديد «وهكذا بدأت الرواية الجزائرية جراء هذه الظروف الجديدة تعرف ما يمكن تسميته بمرحلة الشك، إذ عبرت نصوصها وبطرق مختلفة عن هذا الوضع المتأزم الذي بلغ ذروته مع بداية التسعينات التي اتسمت باستعمال العنف الرمزي والمادي»²؛ أي الاغتيال السياسي الفردي. غير أن هذا العنف كان محفزا قويا عمل على إغناء المتون السردية الجزائرية ومنحها نفسا جديدا دفعها نحو التطور والإبداع، بحيث ولد من رحم هذه الأزمة أدب متميز بخطابه ورؤيته، بل أكثر من ذلك أنتج وعيا نقديا متميزا لهذا الأدب، وهو ليس بالأمر الغريب؛ فالحروب والثورات والظروف السياسية لطالما كانت دوافع قوية للإبداع الروائي.

إن تسعينات القرن الماضي كان لها تأثيرها القوي ليس على المجال السياسي فحسب بما طبعه من عنف الإرهاب، عنف أقل ما يقال عنه أنه دموي، وإنما كانت عشرية التحول

¹ - عادل ضرغام: في السرد الروائي، الدار العربية للعلوم ناشرون، دمشق، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010م، ص17.

² - محمد داود: الأدباء الشباب والعنف في الوقت الراهن، ضمن مجلة دفاتر إنسانيات، مجلة جزائرية في الأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية تصدر عن مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، الجزائر، العدد 1، دت، ص106.

الفصل الثالث _____ محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

نحو كتابة روائية جديدة، شهدت ميلاد متون سردية فرضتها الظروف التي عصفت بالجزائر في هذه المرحلة التي عرفت إعلاميا بالإرهاب لذلك كان من الطبيعي والمنطقي أن توسم هذه الكتابة الروائية الجديدة بسمات المرحلة ذاتها.

لقد أرخت هذه الروايات لهذه الفترة الحرجة، فراحت ترصد الواقع بكل تفاصيله وجزئياته وتكشف عن «رغبة الروائيين في تصوير معاناة الجزائر والجزائريين في ظل الأزمة»¹، أزمة يرى فيها النقاد أنها لم تعد «مجرد أزمة تحول عابرة حتمتها تبدل المزاج الجماهيري، بل كانت في الأساس أزمة تحول شاملة لفت جميع الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية تجاه حال جديد فتح معه الباب واسعا أمام تداعيات خطيرة نالت من كنه المسار الخاص الذي اتبعه الجزائر منذ الاستقلال، الأمر الذي كوّن منذ بداية الأزمة رأيا مفاده أنها ستطول وتقرز معها تداعيات ومضاعفات خطيرة تغذيها المطالب الشعبية الراغبة في التحوّل والتغيير»².

إن رواية الأزمة على الرغم من حداثتها وعلى الرغم من الانتقادات التي وجهت إليها وكذا النعوت التي وصفت بها كالسطحية والاستعجالية والضعف وغيرها، إلا أنها تمكنت من معالجة وضع متأزم وفترة حرجة، فترة «بينت خصوبة العطاء الروائي الذي يدل على وعي نظري في فهم التشكيل الاجتماعي وتشخيصه فنيا، كانت الروايات كلها تعبيراً عن رؤية العالم لأنماط الوعي المتجلية خلال هذه المرحلة»³، وكشفت مأساة هذا المجتمع وفضحت صور الإرهاب والظلم السائد وسعت إلى حلم أفضل، ولو أنه قد هيمنت عليه مسحة تشاؤمية مبررة من خلال إيديولوجيات أسفرت عن تعرية الواقع ومن يصنعونه من سياسيين وإسلاميين.

¹ - آمنة بلعلی: المتخيل في الرواية الجزائرية من التماثل إلى المختلف، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، تيزي وزو، الجزائر، ط2، 2011م، ص84.

² - صالح فيلاي: إيديولوجيا الحركة الوطنية الجزائرية، الأزمة الجزائرية الخلفيات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، مركز الدراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 1999م، ص79.

³ - آمنة بلعلی: المتخيل في الرواية الجزائرية، ص207.

الفصل الثالث ————— محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

رغم أن الكاتب لا يعكس الواقع ولا يكتب الأيديولوجيا وإنما يقوم بتحيين القيم والأفكار التي يؤمن بها، كي ينطلق منها ويجسدها في الأشكال السردية عموماً وفي «بنية الرواية بالكشف عن الذات الفاعلة في النص ووظائفها وعلاقاتها والإطار السردى الذي تتجلى فيه الصور والتشكلات الخطابية التي تحويه».¹

فرواية الأزمة واكبت المأساة الجزائرية وحاورت مظاهرها بأساليب متعددة حاولت أن تقدم قراءات مختلفة لراهن واحد انطلاقاً من مواقف فكرية وإيديولوجية مختلفة أيضاً، منها ما سقط في المباشرة والتقريبية ليقع في فخ الخطاب السياسي المتمسم بمحدودية الطرح ومنها ما اتجه نحو الخطاب التاريخي يحاول البحث عن تفسير لأحداث الحاضر.

3- تصوير مشاهد الإرهاب:

إن الإشارة إلى ظاهرة الإرهاب في المتون السردية الجزائرية الروائية «بدأت من السبعينات وجاءت بشكل صريح في رواية "الطاهر وطار" "العشق والموت في الزمن الحراشي"، فهذه الرواية تصور ذلك الصراع الذي كان يحدث من "حركة الإخوان المسلمين" الذين كانوا يعادون التوجه الاشتراكي، وبين المتطوعين لصالح الثورة الزراعية والذين كانوا مدعومين سرّياً من طرف الطليعة الاشتراكية»²، وهي من النماذج الروائية الأولى التي تحدثت عن هذه الظاهرة.

فالعالم الذي يبينه الروائي الجزائري هو عالم دموي عالم الإرهاب والعنف والقمع عالم البحث عن المعرفة واليقين في محاولة النفاذ إلى وعي الذات وعلاقاتها بمجتمعها وعصرها، إذ أن القتل والاغتيال يبدوان مناسبة ورؤية تبحث عن معناها وعن دلالتها، تطعن الذات فتتفجر دماً وكتابة، ويتخذ هذا الدم وفعل الكتابة شكل الرواية، فصورة الدم ووهج الكتابة ما هما إلا محاولة تعبير من قبل شخصية مطعونة في الصميم، خاضعة لضغوط

¹ - آمنة بلعلّى: المتخيل في الرواية الجزائرية، ص 62.

² - مخلوف عامر: أثر الإرهاب في الكتابة الروائية، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت،

مجلد 28، عدد 1، 1999م، ص 304.

الفصل الثالث _____ محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

هلوسات الواقع بجنونه، واقع يمحي فيه المكان ليصبح معادلا للتيه والضياع والهروب من
عنف الخراب والفقدان.

فها هو الراوي في رواية "تيميمون" لـ"رشيد بوجدره" يعبر عن ذلك يقول: «بالنسبة لي
تمثل المكان المثالي للتلوع والشعور بالعذاب والمقت والتعاسة»¹، وهو لهذا السبب اختار
المجيء إليها هربا من الدمار الذي أحدثه الإرهاب الأعمى يقول: «لذا اخترت أن آت إليها
أن أسوح الناس فيها وأن أتعلم معنى الألم والوجع»²، "بوجدره" يكتب عن الوطن انطلاقا من
إحساس خاص بوطأته التاريخية والنفسية، فإذا كان الواقع في فترة السبعينات وما بعدها
ينطوي على تناقضات، فإن وطن التسعينات كما ترصده الرواية، يعمق الإحساس ليس فقط
بالتناقض والرعب، بل أيضا بالتفكك والغربة والعزلة واهتزاز القيم.

فالرواية من هذا المنطلق تجسد غياب الروابط الشعورية واللاشعورية بين وطن الذات
وذاات الوطن الذي تفجرت لديه مشاعر القلق الوجودي والغربة والوحداية.

إن أزمة الراوي في رواية "تيميمون" لم تكن مفتعلة، لأنها تمثل أزمة بحث أزمة
المتقف المثقل بتركات وترسبات الأوضاع السياسية والاجتماعية المضطربة فها هو يصرح
بعدم قدرته على العيش في هكذا مكان مملوء بالموت والخوف، إنه يرفض هذه التصرفات
العنيفة جملة وتفصيلا يقول: «أصبحت حياتي لا تطاق، أرفض كل هذا العنف المخيف
وهذا الإرهاب المتوحش، كما تضيق نفسي بكل هذه المناورات السياسية والسرقات المالية
والمعاملات المافيوية، فيما كانت عصابات الحشاشين تفرض وجودها من خلال العنف
بطريقة عشوائية عمياء»³، كما يصرح بأن مدينة العاصمة أصبحت مكانا يشعره بالضياع
واللاتوازن والرعب والخوف مما يترصد به من مخاطر العنف يقول: «وما إن أعود إلى
مدينة الجزائر حتى أتيه، وأفقد توازني وحس الواقع كنت أغير مسكني مرتين في الأسبوع

1 - رشيد بوجدره: تيميمون، منشورات ANEP، الجزائر، ط2، 2002م، ص33.

2 - المصدر نفسه، ص70.

3 - المصدر نفسه، ص70.

الفصل الثالث ————— محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

وأعيش في حالة حذر وخوف واحترس (...) لكنه ما أتفه مذاق العدم»¹ في ظل ظروف كهذه ترجح احتمالات الموت على الحياة، كيف لا وأخبار القتل تتوالى تبعا، فعلى الرغم من مغادرته المكان إلا أنه ظل على اطلاع على ما يحدث، ها هو يفتح المذيع ليفاجئ بخبر مفجع «اغتيال الأستاذ "بن سعيد" هذا الصباح في الساعة الثامنة بمنزله من طرف عصابة إرهابية من الإسلاميين وحدث ذلك بمرأى ابنته البالغة عشرين عاما».²

إن اغتيال الأستاذ رمز العلم والثقافة هو تأكيد على أن الإرهاب يستهدف أهل العلم بغية نشر الظلامية، أضف إلى ذلك اغتياله أمام ابنته دون رحمة أو شفقة يظهر مدى فضاة الأعمال الإرهابية ومدى وحشيتها وهو الأمر الذي حدث مع المحامي الذي قتله "نافع وليد": «لقد قتلت أول رجل يوم الأربعاء 12 جانفي 1994م على الساعة 7.35 دقيقة صباحا، خرج من بيته متوجها نحو سيارته تسبقه إليها ابنته صاحبة الست سنوات بضغيرتين تحملان أزهارا زرقاء صنعت من شريط أزرق ومحفظة على الظهر، مرجت بجانبها دون أن تراني، يبتسم المحامي لكن في نظرتة مسحة مأساوية تماما مثل حيوان مطارد، قفز حين رأيته مختبئا في باب المدخل (...). أخرجت مسدسي وأسعرت للحاق به (...). سألته: "خوجة؟ أجابني بصوت لا نبرة فيه: نعم" (...). كان جسمي يهتز من الرأس حتى القدمين مع صوت كل طلقة رصاص. ما عرفت كيف أتوقف عن الرمي لأنني ماعدت أدرك دوي الانفجارات أو صرخات الصبية».³

يتواصل مسلسل العنف ويتواصل سيل الأخبار لتصل الراوي الجرائد التي يقدمها له صاحب الفندق لقرأ فيها: «تسبب انفجار قنبلة وضعها الأصوليون في مطار الجزائر العاصمة في مجزرة خلفت تسعة قتلى وأكثر من مائة جريح جلهم في حالة خطيرة»⁴، وهو خبر يبين أن نوعية السلاح المستخدم مختلفة إنها قنبلة ولقد حدد الراوي الجهة الفاعلة إنهم

1 - رشيد بوجدر: تميمون، ص 70.

2 - المصدر نفسه، ص 70.

3 - ياسمينة خضرة: بماذا تحلم الذئاب؟، تر: عبد السلام يخلف، ص 17-18.

4 - رشيد بوجدر: تميمون، ص 70.

الفصل الثالث ————— محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

الأصوليون، ثم بين أن الاغتيالات لم تعد فردية بل أصبحت جماعية، عبارة عن مجاز مروعة مثل تلك التي حدثت في القرية التي هجم عليها الأصوليون يقول الراوي: «لا تستثنوا لا أطفالهم ولا دوابهم صرخت زبيدة، انقسمت الكتيبة إلى أربع جماعات وحاصرت القرية. الفلاحون الذين تحلقوا حول الجرار لم يترك لهم الوقت الكافي ليكتشفوا غلظتهم، أول ضربات الساطور هشمت رؤوسهم، وأوقف الأطفال صراخهم. فجأة. فهموا نكبتهم وفروا نحو الأكواخ كانت البداية، لا شيء سيوقف عجلة القدر، هاجم المفترسون ضحاياهم مثل غيلان الليل السيف يضرب، الساطور يسحق، السكنينة تقطع، غطى عواء النساء والأطفال على عواء الريح، تتدفق الدموع أعلى من الدم، تنهار أبواب الأكواخ الهشة تحت الركل، يقتل السفاحون دون تأثر أو شفقة تقطع سيوفهم للتو سباق الأطفال المجنون وتخرج أرواح المعذبين. عما قليل ستتكدس الجثث في مداخل البيوت، وعما قليل ستملأ الدماء برك المطر، يضرب نافع ويضرب... لم يعد يسمع سوى السعار يدق صدغيه، لم يعد يرى سوى هلع الوجوه المعذبة. (...)) كنت هناك فجأة وقد تبددت أوهامي وبين يدي رضيع مغطى بالدم، أنا أيضا كساني الدم بما في ذلك عيني، في وسط هذا الكابوس الذي امتلأ بجثث الأطفال (...)) في الخارج، ارتمت الجثث وسط هياكل الدواب المبقورة في كل مكان، على مدا البصر، النيران تلتهم الأكواخ وتضيء لنا الحلبة كي نتشبع برؤيتها، رائحة حرق الأموات تزيد للمأساة مسحة من نهاية العالم، كان مهولا»¹.

هذا المقطع دليل على فضاة المجازر التي ارتكبتها الجماعات المسلحة، كانت فوق كل منطق ووعي إنساني، بل إن الفكر الإنساني يقف عاجزا مدهوشا أمام بربرية هؤلاء الذين تجردوا من إنسانيتهم، إنهم يعترفون بأن ما كانوا يفعلونه مهولا.

¹ - ياسمينة خضرة: بماذا تحلم الذئاب؟، تر: عبد السلام يخلف، ص 364-365.

مشاهد القتل والموت تعمق الإحساس المفرط بالرعب بحيث يزول أي أمل للخلاص يمحى الأمل في السكينة والسلام والراحة ولا يبقى ثمة غير الخوف والرعب «عاد رعب الباردة مسرعا، استقر الخوف في أعماق الناس، ثقيلًا على صدورهم مثل السندان»¹. إذن لم يعد هناك سوى مشهد الموت، هو المشهد المسيطر إنه مشهد تحول الذات الإنسانية إلى ذات متوحشة، إلى آلة للقتل فيها هو الراوي يصور لنا مشهد مقتل حنان من طرف أخيها نبيل غالم، ما أبشعه من منظر حين تمتد اليد إلى أعز الناس لتغدر به، فترديه قتيلا «كان نبيل في غضب ليس له حدود. كانت تصفيرات نفسه ترتطم بالحيطان، لم تكن تمت للإنسانية تلك النظرة التي رمق بها إكرام التي يمنع عليها الخروج إلى مدخل الدار. -أين هي؟ زمجر وهو يمسك أمه من ذراعها. (.....)

-حوالي مائة امرأة حملن اللافتات ورحن يلتصقن ببعضهن ببعض في الساحات تحت النظرة الساخرة للعابرين. هجم نبيل على الحشد، دفع بمرفقيه وعنف كي يشق له طريقا. قريبا من صدغه على صوت فيه نحيب يقول: الشيطانة! هل تتحداك؟ هذه البغية تتجراً على التحقير من سلطتك... شق جمع النساء مثل كاسحة للجليد وراح يفتش ويفتش. في لحظة تخيل نفسه وهو يحمل قاذف اللهب ويحرق جماعة البغيات، الساحرات... أسقط امرأة أرضا دفع الممرضات، ضرب كل من حوله مثيرا بداية ما يشبه الهلع، من وراء المتظاهرات رآها كانت حنان هنا، واقفة أمامه، مقولبة داخل التتورة التي يمقتها لمحته متوجه نحوها... أدخل يده في شقة قميصه، أغلق قبضته على الخنجر... فاجرة، فاجرة، طعن تحت الثدي، هناك حيث تختبئ الروح الضالة، ثم في الخاصرة وبعدها في البطن... انطفأ النهار، لم تعد حنان تدركه، لقد كانت تائهة داخل زوبعة ضبابية، متجمدة وليس لها صدى (.....) انقلبت الساحة داخل نهر من الظلمات، راحت حنان تذوب مثل حجر داخل بركة الدم، كانت تلفظ

¹ - ياسمين خضرة: بماذا تحلم الذئاب؟، ترجمة عبد السلام يخلف، ص 208.

الفصل الثالث _____ محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

أنفاسها.... تموت؟ (....) لم يتمكن دروع الشهادات من منع الشفرة من ذبح الأخت وفقاً الحلم مثل الرمل عذراء أخرى انطفأت تماماً مثل شمعة في غرفة للموتى»¹.

لقد تحول نبيل غالم إلى «وحش باستطاعته فعل أي شيء»² إلى الحد الذي يقدم فيه على قتل أخته البريئة، لقد تجرد من آدميته، من الرحمة، من الإنسانية.

تتوالى مشاهد الموت، وتتعدد طرائقه لكن الفاعل واحد، إنه ذلك الإرهابي الذي بات ينتمي إلى عالم غير عالم البشر، ها هو نافع ينصاع لأمر أميره فيقدم على قتل أربعة في مشهد مروع «سيدلك "سي رامول" على بيوت هؤلاء الطلاب، أريد أن أرى رؤوسهم معلقة على باب البلدية.

أوقف نافع أربعة من هؤلاء الخونة الذين باغتهم في بيوتهم على الساعة الثالثة صباحاً، شيخ مجاهد قديم، ابنه وحفيده ذي التسعة عشر سنة وفلاح، ربطهم بسلك معدني وساقهم إلى الساحة التي تجمع فيها السكان تحت حراسة حوالي ثلاثين من الأصوليين أخبرهم بأن كل شخص يتسلى بطلب سلاح لمعارضة الثورة الإسلامية والله سيلقى نفس العقاب (....) انسحب ليفسح المجال أمام السفاحين كي يقطعوا رؤوس المرتدين الأربع»³.

يقول الراوي أيضاً: «يتهاوى رجال الشرطة والعساكر والصحافيون والمتقفون كما الذباب، الواحد تلو الآخر، في الصباح الباكر وقد تم حصادهم ولم يتجاوزوا عتبات بيوتهم (....) يضرب الموت في كل مكان. كل يوم. كل ليلة. دون هدنة ودون شفقة، ستة من رجال الشرطة تمت محاصرتهم في منعطف أحد الشوارع، رشهم مهاجموهم بالرصاص ثم أخرجوهم بجلال من السارة وضربوا أعناقهم على مرأى من العيون المطللة خلف زجاج النوافذ»⁴.

1 - ياسمينة خضرة: بماذا تحلم الذئاب؟، تر: عبد السلام يخلف، ص 161-163.

2 - المصدر نفسه، ص 159.

3 - المصدر نفسه، ص 349.

4 - المصدر نفسه، ص 10.

إنها مشاهد مرعبة تعود بنا إلى العصور السحيقة للإنسانية أيام عيش الإنسان في الكهوف مجردا من إنسانيته أيام توحشه وتشبهه بالغيلان، مشاهد برع الروائي الجزائري في رسم ملامحها بدقة متناهية، مشاهد تحمل طابع الهمجية والحيوانية، مشاهد تكشف عن لا إنسانية هؤلاء، فتعزية هؤلاء من قبل الروائي دليل على إدانته لهم.

إن الإرهاب ليس بالحدث البسيط في حياة المجتمع، وقد لا يقاس بالمدة التي يستغرقها، وإنما يقاس بآثاره ويمدى «فضاعتها ودرجة وحشيتها»¹ فوقع الإرهاب في القلوب والعقول يفوق وقع الثورة التحريرية، وذلك لأن «القناعة الدينية عندما تأخذ امتدادا سياسيا أو القناعة السياسية عندما ترتدي ثوبا دينيا، فإنه من الصعب أن يتقبل أصحابها الرأي الآخر مما يجعلهم يركنون إلى ممارسة العنف بكافة أشكاله وألوانه»²، إذن تتلون أشكال الإرهاب وتنوع وتعدد الأدوات والضحايا لكن النتيجة واحدة هي الموت في أبشع صورها: «شغالة منزلية في السادسة والأربعين من عمرها وأم لتسعة أطفال تغتال بالرصاص وهي عائدة إلى بيتها....»³، الموت هنا كان بشعا لأن الضحية تعيل تسعة أفراد، كيف يكبر هؤلاء، من سيعيلهم، وما هي سلوكاتهم المستقبلية، وبأي حقد ينشؤون؟

إنه الإرهاب يضرب بقبضة من حديد، وعلى غير هدى، رصاصة أخرى توجه للثقافة يغتال الكاتب الطاهر جاووت «الكاتب الكبير "الطاهر جاووت" يغتال برصاصتين في رأسه من طرف ثلاثة إرهابيين وهو يقود ابنتيه إلى المدرسة»⁴، تستمر صور البشاعة والفضاعة وقتل الذات قتلا ماديا وكذا معنويا، فالمادي ما يتم من خلال الأدوات والأسلحة «اثني عشر كرواتيا يذبحون بطريقة وحشية بالقرب من مدينة المدية»⁵، «الإرهابيون الإسلاميون يضرمون النار في مدرسة ابتدائية بمدينة البليدة»⁶، آلة الموت لا تستثني أحدا لا القريب ولا البعيد، لا الأهلي ولا الأجنبي، الكل معني بتجرع مرارة المعاناة، أما المعنوي وهو ما يتركه

1 - مخلوف عامر: الرواية والتحويلات في الجزائر، ص 89.

2 - المرجع نفسه، ص 90.

3 - رشيد بوجدر: تميمون، ص 102.

4 - المصدر نفسه، ص 74.

5 - المصدر نفسه، ص 130.

6 - المرجع نفسه، ص 149.

هذا الفعل في النفس سواء أ تعلق الأمر بمن فقد عزيزا عليه أو بمن شاهد أو قرأ عنها، إنه الموت الناجم عن حلقات التخلف الفكري والمعرفي والركود الحضاري المأزوم في الذهن والضمير النفسي المريض.

هكذا إذن تقوم الذات المأزومة والعالم المهترئ وسيلة جمالية للرواية، ذلك أنه كلما صار الراوي موتاً، كلما كان أكثر إلغازاً واستغلاقاً على فهم لغز الحياة الخارجية، هذه الرؤية السوداء للواقع ول مستقبل الوطن، ناتجة عن رؤية الراوي للدمار والخراب والحرب الأهلية المعلنة على أنها تفريغ للوطن من المواطنين، وقتل لكل عناصره الثقافية، وقطع الصلات الإنسانية بين الذات والآخر.

إن السمة البارزة في هذه الروايات هي نقل مشاهد الموت عن طريق عملية الوصف الحسي لعمليات الاغتيال والمجازر والتمادي في تخيل الصور الفيزيولوجية الصادمة، كما أنها بينت مقدرتها الفنية في رسم صور الذبح والقتل وجز الرقاب، وتقطيع الأوصال، وبشاعة مشاهد الاغتصاب والتعذيب والعبث بالجسد الإنساني من طرف الإرهابيين.

4- شخصية الإرهابي:

قد يكون من المتعسر على الناقد العثور على سمات بارزة لشخصية الإرهابي في الرواية العربية عموماً والجزائرية خاصة، فالحديث غالباً ما يكون عن شباب لم يجد فرص العلم، فشل في تحقيق ذاته مما جعله يرتقي في أحضان التطرف الإرهابي.

إن الكاتب في وصفه لشخصية الإرهابي اعتمد «على طريقتين:

أ- طريقة الوصف المادي الذي يركز على المظهر الحسي كاللباس وعلامات الوجه والرائحة ونحو ذلك.

ب- طريقة التحليل النفسي التي تعري ما يعاينه هؤلاء الناس من عقد نفسية وتناقضات صارخة في شخصياتهم انعكست على سلوكياتهم العنيفة».¹

¹ - عبد الحميد هيمة: المأساة الوطنية في الرواية الجزائرية، قراءة في نماذج من الرواية الجزائرية، مجلة العلوم الإنسانية،

جامعة محمد خيضر، بسكرة، العدد 29، 2013م، ص 234.

فرواية الأزمة لم تنفك تصور شخصية الإرهابي كشخصية فاعلة أو محورية، بدرجات متفاوتة تصويرا خارجيا، فهو في أغلبها ذو لحية كثيفة، يرتدي قميصا أبيضاً أو لباساً أفغانياً أو لباس المقصرين، أو يمسك في يده سبحة، أو عود سواك «كان الإمام يونس جالساً القرفصاء مثل ناسك فوق لحاف من ريش، به وقار عارم، حزن جسيم يربض فوق كتفيه خلفه "عمر زيري" وقد خفض نظره وأدخل لحيته في رقبته وهو يفرط حبات سبحته».¹

فهم كلهم بنفس الصفات «في كل مكان بنفس الصفات: بحواجب منخفضة أكثر من تفكيرهم، الرأس الحليقة، النظرة الجامدة اللحية المنتقشة، بهم غضب وعنف، ولا يتراجعون أبداً للخلف يستغلون الظلام للتجمع والتدرب على مساحات خالية أو في الغابات، هنا تتحرر الألسن ويبدأ الكلام عن السيوف والسواطير وعدة الحرب»²، وبنفس الطريقة يصف الإمام «كان رجلاً في الثلاثين من العمر، جميل مثل الأمراء بعينين صافيتين مخططتين بالكل ولحيته مثل الطوق في عنقه مخضبة بالحناء».³

وقد يعرف هؤلاء بالرائحة التي تفوح منهم إنها رائحة خاصة يقول عنها "محمد ديب" أنها رائحة الموت «هو من النوع الذي لا تحضره الابتسامة أبداً، لا يستطيع أن يبتسم بسبب الشعر الكثيف أما الرائحة، رائحة الموت فهي فيه رائحة التيس، رائحة التيس تلك تفوح منه رائحة الموت»⁴ كما أنهم يملكون نظرة خاصة، حادة مخيفة «نظراته تشبه النيران المسعورة»⁵، إذن كلها صفات منفرة مرعبة جداً تتوافق مع ممارساتهم القذرة.

أما الجانب النفسي الداخلي للإرهابي، فهو إنسان يبدو الحقد في عينه والقوة في ملامحه، يخلو قلبه من الرحمة، متعصب لا يتردد في قتل أو ذبح أحد مهما بلغت صلته به

¹ - ياسمينه خضرة: بماذا تحلم الذئاب؟، تر: عبد السلام يخلف، ص 198.

² - المصدر نفسه، ص 169.

³ - المصدر نفسه، ص 118.

⁴ - محمد ديب: السيمورغ، تر: عبد السلام يخلف، ص 265.

⁵ - المصدر نفسه، ص 227.

الفصل الثالث ————— محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

بل أكثر من ذلك إنه يجد في القتل متعة، فهو ميال بطبعه إلى سفك الدماء وهتك الأعراس.

ها هو "صالح الأندوشين" أحد أعضاء الحركة يقتل الشيخ الذي استضافه هو وأتباعه: «التقت صالح نحو الشيخ الثمانيني قائلاً له: -حاج شكرا على الكسكسي، -لا، هذا واجب. أخرج صالح سكينته وضربه ضربة صاعقة في الخصر ثم ضربة أخرى في البطن. فتح الشيخ عينيه واسعتين مندهشا وسقط على ركبتيه -لماذا يابني؟

-يا أنت، هذا ما تبحث عنه، حاج، الطريق إلى الله صعب.

أرفق الكلمة بالحركة، أمسك الشيخ من جلدة رأسه ودفع بها إلى الخلف وذبحه في العمق حتى أن السكينة كسرت فقرات العنق تلقى صالح رشات الدم المندفعة وتلذذ بها عن آخره وهو متأثر كما لو أنه تلقى صعة من نشوة الجماع»¹، إنهم متوحشون يضربون دون رحمة «يقتل السفاحون دون تأثر أو شفقة»² هؤلاء المفترسون الذين يشبهون ضواري الغابة «هاجم المفترسون ضحاياهم مثل غيلان الليل»³، هي مقاطع تغوص في أعماق الشخصية الإرهابية لتعريها من الداخل، فتكشف مدى بشاعتها.

لقد برع الروائي الجزائري في نقل صورة الإرهابي، مبينا أن العنف والإرهاب وعدم الرحمة وغيرها من الصفات اللاإنسانية ليست طبيعية فيه بالضرورة وليست متوارثة وإنما قد تكون زرعت فيه وأجبر عليها فما هو "عمر زيري" يزرع العنف في ولده إنه بإجباره على مشاهدة مشاهد العنف وجعلها عادية، إنما يغرس فيه بأنه عمل نبيل: «تمدد على الرصيف رجل وجهه نحو الأسفل ورأسه مهمشة.

-لا تنتظر، صرخت زوجة عمر في اتجاه ابنها.

¹ - باسمينة خضرة: بماذا تحلم الذئاب؟، تر: عبد السلام يخلف، ص 197، 198.

² - المصدر نفسه، ص 365.

³ - المصدر نفسه، ص 364.

الفصل الثالث ————— محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

-دعیه ينظر، قال الأب، يجب أن يتعلم كيف تحدث الأشياء في بلاده هل رأيت يا موسى؟
هذا ما حصل لأعداء الله. نظر الطفل مطولا إلى الجثة الهامدة
-أبي، إنه ينزف....

-حتى الكبار يجرحون أنفسهم حين يتدحرجون، قالتها الأم في محاولة يائسة، حين أقول لك
احذر حين تجري في الشارع كي....

-ما الذي تقصين عليه يا امرأة؟ هذا الحقير لم يتدحرج. أنظر جيدا يا ولدي. لقد أطلقوا عليه
النار إنه كافر، مارق، عاقبه المجاهدون، لقد قتلوه، هل تفهم؟ لقد أعدموه»¹.

كما قد يكون أجبر عليها نتيجة جهله أو استغلال سلط عليه أو رمت به الظروف في
أحضان الحركة ليصبح واحدا من هؤلاء «طلبنا منكم الحضور لأننا على علم بكل ما
تعاونونه على مدار اليوم... لقد وقع اختيارنا عليكم أولا بسبب استقامتكم، ثم لأنكم بحاجة إلى
العمل لتلبية حاجات أسركم... اندفع نافع وليد روحا وجسدا في مهنته الجديدة»².

وقد يكون هذا الإرهابي ساذجا فاشلا، وهو الأمر الذي يسهل على الجماعات
الإسلامية استدراجه، فهي تختار ضحاياها من المنبوذين المهمشين داخل المجتمع، تضمهم
إلى صفوفها وتصنع منهم إرهابيين بامتياز.

كما يمكن أن يكون الإرهابي مدفوعا إلى عمله برغبة في تحقيق الذات وهو حال نافع
وليد الذي أحس أنه «لأول مرة في حياته بدأ يكتشف ذاته ويتعرف على قدراته وأهميته ودوره
كإنسان، كذات بشرية.

أخيرا، إنه موجود. يعتد به»³، وهي العلة وراء انتقال "نافع" من رقة الفنان إلى بشاعة
الإرهابي وعنفه الوحشي، لقد سقط من علياء الفن إلى متاهة الإرهاب والعنف ليكسر بذلك
أفق توقع القارئ الذي لمس فيه الطيبة والرقّة خاصة من مواقفه تجاه كل ما كان يحصل في

¹ - ياسمينة خضرة: بماذا تحلم الذئاب؟، تر: عبد السلام يخلف، ص 206-207.

² - المصدر نفسه، ص 200، 201.

³ - المصدر نفسه، ص 222.

الفصل الثالث ————— محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

بيت "السيد راجا"، لقد تحول من عاشق للفن إلى قاتل له وذلك بعد مشاركته في قتل الفنان "رشيد دراق".

لقد مارس هؤلاء العنف على الناس، وفرضوا سياساتهم ووصايتهم عليهم، كانوا يترصّدون حركاتهم وسكناتهم، ويتدخلون في كل شيء حتى في خصوصياتهم «يتدخلون بين مضغتي أكل، كل حسب دوره».¹

إن شخصية الإرهابي تثير الخوف والرعب، ليس بالنسبة لعامة الناس فقط وإنما حتى لدى بعض أفراد الجماعات فهذا «عبد الجليل كان عملاقا حقيقيا إلى الحد الذي لم يكن من السهل إيجاد حذاء على مقاسه، طويل وعريض، أحزمة الخراطيش في شكل سلاسل على صدره والساطور معلق في الحزام، له القدرة على قتل فرائسه بغمضة عين، يطلع للتو من كابوس بشعر المجذول الذي يذكر بالميدوسا وصوته الذي يذهب أبعد من البندقية، حين يفقد رجاله في الاستعراض وتتطلق منه رائحة الحيوانات الجارحة فتبعث فيهم الرعدة من الرأس إلى القدمين لم يكن عبد الجليل من لحم ودم فقط ولكنه كان الموت يمشي على قدمين».²

كما يجب الإشارة إلى زيف تدين بعض الإرهابيين، فهم على جهل تام بالدين، هذا الجهل من بنية الشخصية الإرهابية بنية واهية تعكس مدى التعصب الإرهابي وإلقاءه لغيره «لأن تدين كهذا يصنع قنابل قد تقوض المجتمع في لحظة»³، وتنقل الرواية صورة لهذا التدين ممثلة في «الجيش الإسلامي للإنقاذ هو عش للعقارب يا بني، إنهم بغاة، أي راضين، إنهم يلعبون كل أشكال التواطؤ، ويغازلون حتى إبليس إذا سمح لهم بأن يلمسوا ركنًا من عرشه، هؤلاء الناس متقلبين وديماغوجيين ومهرة في الحسابات إنهم انتهازيون في ثوب الخيرين، ذئاب في جلد أغنام (....) يوظفون الدين من أجل غايات تجارية ويفاوضون من أجل الحصول على حصتهم من الكعكة مع اللصوص الرسميين ولا يهمهم الباقي....».⁴

1 - ياسمينة خضرة: بماذا تحلم الذئاب؟، تر: عبد السلام يخلف، ص 147.

2 - المصدر نفسه، ص 321.

3 - الشريف حبيلة: الرواية والعنف، ص 256.

4 - ياسمينة خضرة: بماذا تحلم الذئاب؟، تر: عبد السلام يخلف، ص 315.

الفصل الثالث ————— محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

إذن بما أن الدور الأساس الذي يقوم به الإرهابي هو القتل وتهديد الذات، فإنه جسد هذا الدور باحترافية عالية، وأنجز فعل القتل دون رحمة أو مهادنة، ليتحوّل الفرد الجزائري زمن الأزمة إلى إرهابي، ليصبح ذاتا أفرغت من إنسانيتها وأصبح أداة لا تحسن إلا فعل القتل.

والخلاصة هي أن هذه النصوص تمكنت من نقل بشاعة المحنة، وصورت الأزمة الجزائرية المترامية الأطراف لنتقل من «عنف التقاليد إلى عنف المشهد والانفعالات، عنف النص عنف التخيل، عنف اللغة، هذا التعدد الدال على تعالق هذه الرواية بالواقع الاجتماعي الذي أنتجها وكشف عن عنف الجماعات الإسلامية، والقمع العاري لسلطة عنيفة كما أن هذا التعدد يعبر عن تنويعات رمزية للمقاومة ومواجهة الإرهاب بالكتابة»¹، وفي هذا ملامسة جريئة للواقع الجزائري والمأساوية التي تلاحق المجتمع الجزائري، في ظل انقسام العالمين السياسي والديني، فهذه الروايات قامت بإبراز مظاهر الإرهاب الذي عانت منه الذات الجزائرية، ومحاولة الغوص في عمق الظواهر للكشف عن مسبباتها وحجم نتائجها كما عكست بحق العلاقة الجدلية بين ضياع المثقف وشعوره بعدم الانتماء، وشراسة الإرهاب.

¹ - ملاح كيساء: كتابة العنف أعنف الكتابة في رواية فوضى الحواس لأحلام مستغانمي، الملتقى الدولي الحادي عشر للرواية، عبد الحميد بن هدوقة، دار هومو للنشر، الجزائر، 2009م، ص 94.

المبحث الخامس: العولمة تهديد للذات

إن لمصطلح العولمة الكثير من المسميات، إلا أنه هناك إجماع على أنها تعني "هذه الزيادة المتناسبة في وتيرة التداخل بين الجماعات والمجتمعات البشرية في هذا العالم ولا سيما على صعيدي الاقتصادي والإعلام...وكذا في مجالي الثقافة والسياسة، إذ لا يمكن الحديث عن حدود سياسية ولا عن حدود اقتصادية منعزلة في ظل تحول العالم إلى مساحة إعلامية واحدة، بفضل ثورة المعلومات والاتصالات، كما لا يمكن الحديث عن ثقافة «أصلية نقية كاملة لهذه الجماعات أو تلك في ظل عملية التداخل المتسارع بين الثقافات البشرية»¹ الممتزجة بفعل العولمة.

فالعولمة تعرف انتشارا واسعا إلى الحد الذي طغت فيه على حياتنا اليومية، فقد قال المدير العام للمنظمة العالمية للتجارة يوما: «العولمة واقع ليس اختيارا، واقع يبدأ بحياتنا اليومية في الصباح نستيقظ على جهاز راديو "ياباني" ونتناول القهوة الواردة من كولومبيا نستقل سياراتنا المصنوعة بفرنسا، لكن خمسين بالمائة من أجزائها يأتي من كل أنحاء العالم»²، هي إذن ليست نقية إنها مزيج تعاونت دول العالم على صنعه.

إنه من الغريب أن هذا يحدث في «عالم اليوم الذي نشاهد فيه من حولنا وبسرعة أصبحت تثير الانتباه ذوبان هويات ومولد أخرى، وائتلاف ما نعتقده متخالفا، واختلاف ما نعتقده متالفا، ووحدة ما نحسبه متصدعا، وتصدع ما نحسبه موحدا»³، كل هذا أحدثته العولمة بثورتها المعلوماتية التي «أنتجت الفضاءات السبرانية والعوالم الافتراضية، لتنتج بذلك إنسانا تواصليا يستطيع العيش داخل القرية الكونية التي أدمت الزمان والمكان فيها، لتعلن عن نهاية التاريخ والجغرافيا، ومن هنا يبدأ حديث النهايات عن مأزق الهويات»⁴.

¹ - الحميد تركي: الثقافة العربية في عصر العولمة، دار الساقى، بيروت، ط1، 1999م، ص20.

² - يحيى اليحياوي: العولمة أية عولمة، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، د.ط، 1999م، ص 17، 19.

³ - عبد السلام بن عبد العالي: ثقافة الأذن وثقافة العين، دار تويقال، الدار البيضاء، ط1، 1994م، ص21.

⁴ - علي حرب: حديث النهايات "فتوحات العولمة ومأزق الهوية"، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 2000م،

على الرغم من كون العولمة ظاهرة اقتصادية ذات أبعاد حضارية، وثقافية، وأخلاقية وسلوكية فإنها أصبحت نقمة على شعوب العالم خاصة العربية منها، والسبب يعود إلى إنسان اليوم الذي أضحي يسير «إلى ضياع وخواء، معرض لهجوم ضار ومنظم له قدرته المادية، كما على مقوماتها النفسية والعقلية والأخلاقية... فالإشكالية تكمن في: كيف يعقل وكيف يتصور مواجهة الغرب الرأس مالي ونحن على هذه الدرجة القصوى من التبعية، فهو نموذجيا على مستوى القيم والاستهلاك والذوق واللياقة فهل هو نفاق منا أم غفلة أو ارتباك أم تناقض بين الوعي والممارسة، أم كل هذا، وإذا كان الاقتداء حتمية فلنقتدي بأوروبا في عصر نهضتها وثورتها... أو بفرنسا وهي تدافع عن شخصيتها وتراثها ولغتها وذوقها».¹

إن العولمة من منطلق تصور موضوعي لها كفسلفة ونظرة مستقبلية للعالم، تهدف إلى تجسيد مفهوم "القرية الكونية" غير أن أهدافها وموجاتها «توحي بتصور آخر يعزز مركزية الذات»² ويرسخ الفكر الامتثالي، فإن كان هذا التوجه يعني خلق عالم متجانس يستبدل فيه التشتت والتمزق بـ «وحدة القيم والتصورات والغايات والرؤى والأهداف، وتتقاطع فيه الأنساق الثقافية»³، فهذا التوجه المنادي بالتمركز حول الذات يحمل بذرة التمرد في مقابل الأولى، كونه يختزل العالم إلى مفهوم عوض التعامل معه على «أنه تشكيل متنوع من القوى والإرادات والانتماءات والثقافات والتطلعات، فاستراتيجية "المركزية" أو "التمركز" هي استراتيجية تتيح للخاصة في نظام العولمة قلب هاجس العولمة لصالحه من خلال التحصن والاحتماء بالثقافة المحلية»⁴ وجعلها أحد ركائز الانفتاح على العولمة، وهو ما يجزأ الوحدة التي نادى بها العولمة.

¹ - عبد الصمد بلخير: في الهوية والغزو الثقافي، مجلة عيون المقالات، الدار البيضاء، المغرب، العددان 14، 15، 1990م، ص 56-57.

² - لعموري زاوي: العولمة والهوية، حوار الكونية والأنما، مجلة الاختلاف، دورية ثقافية تصدر عن رابطة كتاب الاختلاف، الجزائر، العدد 3، 2003م، ص 58.

³ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

⁴ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

إذن كيف لوحدة لا تعترف بالتعدد والتنوع، أن تحفظ الأمن والاستقرار، بل على العكس من ذلك فإنها حتما ستدفع بالنزاعات التعصبية المغلقة للمطالبة بالخصوصيات الضيقة وعلى هذا الأساس، فالعولمة بتعميمها «النموذج الغربي على مستوى العالم واستبعادها التشكيلات الثقافية الأصلية، فإنها توقد شرارة التفرد الأعمى»¹، وذلك لأن هيمنة نموذج ثقافي لا يحل المشكلات الخاصة بالهوية والانتماء"، بل على العكس من ذلك ستظهر إيديولوجيات تضخ مفاهيم جديدة حول نقاء الأصل وصفاء الهوية، ليصبح بذلك النموذج الغربي المحاكى مجرد عملية تثبيت لأقدام الإمبريالية العالمية الرأسمالية، فضلا عن كونها ستقود إلى «سلسلة لا نهائية من التقليد المفتعل الذي تصطدع فيه التصورات ويصطدم بالنماذج الموروثة التي ستبعث على أنها نظم رمزية تمثل رأسمال قابل للاستثمار الإيديولوجي عرقيا وثقافيا ودينيا»²، فقد أدت العولمة الغربية «إلى انفجار نزعات التعصب والخروج عن الذات»³، ليتحول الانصياع والطاعة العمياء للأقوى.

وعليه ووفق هذا المنظور يحدث الصدام بين العولمة والهوية يقول علي حرب: «نعم إن العولمة تصدم الهوية بقدر ما تحدث خلخلة أو خربطة في الرؤية والعقيدة أو في القيمة والوجهة، ولكن لا يمكن مجابهة ذلك بنفس ما يحدث للدفاع عن مقولات فقدت قدرتها على الفعل والتأثير ولم تعد تصمد في مواجهة التحولات في الأفكار والأحداث، من هنا ليست المشكلة في الواقع بل في تصوراتنا وأوهامنا، أعني أن أتخيل الواقع إلى مثل مستحيلة التحقيق»⁴، ذلك أن مفهوم الهوية عربيا انحصر «في الأطر الأيديولوجية الماركسية الإسلامية الليبرالية والوثوقية، بين "النحن" و "الهم"، فتصلبت الحدود أكثر وغاب كل تفاعل

1 - لعموري زاوي: العولمة والهوية، ص 58.

2 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

4 - علي حرب: حديث النهايات، فتوحات العولمة ومآزق الهوية، ص 52.

الفصل الثالث _____ محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

أو تلاقح أو تواصل بين الطرفين، ولما فشلت هذه الأقطاب يقال إن الهوية في مأزق»¹ والهوية وفق هذا التصور إما قاتلة أو مقتولة في نفس الوقت، على جميع الأصعدة، المعرفية والنضالية، هذا المعنى يقابله تعريف "أليكس ميكشيللي" في كتابه "الهوية": «الهوية هي مركب من العناصر المرجعية المادية والاجتماعية والذاتية المصطفاة والتي تسمح بتعريف خاص للفاعل الاجتماعي، فهي ليست كيانا يعطى دفعة واحدة إلى الأبد، إنها حقيقة تولد وتتم وتتكون وتتغير وتعاني من الأزمات الوجودية»² وكذا من الاستلاب.

وبما أن الفاعل الاجتماعي من المتغيرات وكذا الحال بالنسبة للحركة الاجتماعية فإن الهوية هي الأخرى لا ثبات لها في الزمان والمكان، بل هي دائمة التغير وفي ذات الوقت تتصف بالثبات، فالفرد يبقى هو هو، حيث يلزم الحال ذاتها من الولادة حتى الوفاة في هذا الصدد يقول أمين معلوف: «لا تعطي الهوية دفعة واحدة، فهي تبنى وتتحوّل على مدى الحياة... إن عناصر هويتنا التي نحملها عند الولادة ليست متعددة، فهي مقتصرة على بعض المميزات الجسدية بالإضافة إلى الجنس واللون... وحتى هنا ليس كل شيء فطري فأن يولد الإنسان أسود في نيويورك يختلف عن الذي يولد في لاغوس مثلاً»³.

فرفضنا لهذه المتغيرات في "الهوية" على مستوى الذهن، يؤدي حتماً إلى قضائنا عليها، «ليبدأ الهاجس والخوف على هوية مفترضة يعيشها عقل هو في أزمة، عقل لا يمارس هويته، فيضيع ثم يسأل من يكون»⁴، بدلا من أن يسأل عما ينتجه؟ ما هي طبيعة علاقتنا مع الغير؟ ماذا يقدم من مبتكرات وخدمات لنفسها ولغيره، هل يؤثر أم يتأثر؟ وبما أننا صرنا فيه مرهونين بذكرياتنا وموروثاتنا في الماضي لا سيما وأن عملية حتمية جارية

1 - نورة بعيو: الخطاب الروائي وضغوطات العولمة، بين حدود المفهومين: الهوية/ العولمة، جامعة تيزي وزو، عن الملتقى الدولي حول السرديات، أسئلة الهوية في الخطاب السردى، الجزائر، 2001م، ص 335.

2 - أليكس ميكشيللي: الهوية، تر: علي وطفة، دار الوسيم، دمشق، د.ط، 1993م، ص ص 169-170.

3 - أنظر: أمين معلوف: الهويات القاتلة، قراءات في الانتماء العولمة، تر: نبيل محسن، دار ورد للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط1، 1999م، ص 27.

4 - أنظر: الحميد تركي: الثقافة العربية في عصر العولمة، ص 18-19.

الفصل الثالث ————— محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

يجب أن نعرف كيف نتعامل معها بوعي، لأن «الرفض المطلق والخضوع المطلق لمعطياتنا يؤدي إلى الاندثار... فالتفاعل والتعايش ضروريان انطلاقاً من:

أ. الابتعاد عن الفكر الأحادي، الوثوقية في كل شيء، والانغلاق الإيديولوجي بل علينا بالتغيير تجاه الثقافة، الهوية، السلطة، الثروة والمعرفة قولاً وممارسة.

ب. إلغاء فكرة أن العولمة تقضي على الخصوصيات المحلية والقومية لا سيما إذا كانت قوية، لأن المرء ينفرد بخصوصية الإبداع والابتكار».¹

فمثل هذه السمات تجعل المثقف خاصة المبدع «يندمج مع كل الفئات الاجتماعية برؤية إنسانية شاملة، متجاوزاً كل رغبة مطلقة والخطابية التي تلغي الآخر، بل يدعو لنقد الذات ونقد الآخر/الهو».²

وعليه فالمنافسة الإيجابية ليست تحدياً سلبياً، لأن موازين القوى مختلفة جداً، وهو الأمر الذي جعل المفكرين ينعثون الوضع بالكارثي، حيناً وصفوا العولمة بالصدمة والإحباط فقد وصفه أدنيس بالمأزق/الأزمة بقوله: «إن قبلت الهيمنة فأنت في الجحيم، وإن رفضتها فإنك في الجنة... اليوم نمارس الحداثة الغربية على مستوى تحسين مستوى حياتنا، ونرفضه على مستوى تحسين الفكر والعقل، أي أننا نأخذ المنجزات ونرفض المبادئ العقلية التي أدت إلى ابتكارها، إنه التلفيق الذي ينخر الإنسان العربي من الداخل».³

لقد تنامت مخاوف الإنسان العربي، خاصة وهو يرى الغرب يزداد قوة وهيمنة، كون هذا «التمركز الذاتي الغربي الذي لا يعترف بتعدد الحضارات ومواقعها، ولا سيما بعد كارثة الخليج الثانية، وضع استوجب وقفة جريئة وذكية من طرف المثقف/الروائي العربي تجاه هذه التطورات الدولية، ألم يقل "برتولد بريخت" في إحدى قصائده: إنهم لن يقولوا كانت الأزمة رديئة، وإنما سيقولون لماذا صمت الشعراء؟ فالانطواء والهروب إلى الماضي أو الذوبان في

1 - أنظر: علي حرب: حديث النهايات، ص 37.

2 - أنظر: الحميد تركي: الثقافة العربية في عصر العولمة، ص 189-190.

3 - أنظر: أدونيس: الثابت والمتحول، ج 3، صدمته الحداثة، دار العودة، بيروت، ط 4، م 1983، ص 268.

الفصل الثالث ————— محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

الآخر تضليلا وليس حلا مناسباً»¹، وفي هذا دعوة إلى المواجهة ومحاولة إيجاد الحلول المناسبة لكل المشاكل.

يتوجب على المثقف أن يقوم بدوره كاملا إذا ما أردنا أن نقف سدا منعا في «مواجهة أمركة العالم التي ستكون وبالا على العالم الذي تجرع المرارة التركية ثم الاستعمار الأوروبي وبعده المشروع الإسرائيلي، ليختتم الأمر بالاهتمام بالبترول أو الذهب الأسود ليحدث تشتت العالم العربي»² وضياعه.

كما يجب على الفرد العربي وبخاصة فئة المثقفين أن ترفض هذه الأمركة التي رفضت حتى من طرف الأوروبيين ففي هذا الصدد يقول أمين معلوف: «منذ سنوات عدة وأنا ألاحظ في فرنسا، عن بعض الأصدقاء المقربين، ميلا إلى اعتبار العولمة كارثة كبرى فهم قليلا ما يبدون إعجابهم عند الحديث عن "القرية الكونية" ويحافظون على الاعتدال في اهتمامهم بالإنترنت وبآخر التطورات في مجال الاتصالات، ذلك أن العولمة تعني الأمركة في نظرهم، متخوفون على مستقبل فرنسا وهي تخطو نحو التتميط في الثقافة واللغة والسلوك... هذا موقف مجتمع متقدم، فما حال الشعوب العربية وبعض الشعوب الآسيوية التي تعيش عالم يملكه الآخرون»³، مما يولد لدى هذه المجتمعات الخوف كون هوياتهم مهددة.

فعلى الرغم من تميز الأمم عن بعضها البعض عرقيا وفكريا ودينيا، الأمر الذي يمكنهم من الاتصال بالآخر بشكل طبيعي لا بشكل إيديولوجي متمركز، فهناك سلاح لو أحسن العربي استخدامه لما خاف اليوم على هويته، إنه السرد بكافة أنواعه وأشكاله يقول عبد الله إبراهيم في أهمية هذا السلاح: «إن هويات الأمم تصاع أولا عبر السرود الدينية والتاريخية والأدبية التي تقدم بها نفسها ورؤاها فالسرد هو الرواية بحكم أن الشفاهية مثلا

1 - أنظر: محمد محفوظ: الحضور والمثاقفة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2000م، ص 109-113.

2 - أنظر: عبد الرحمن منيف: الديمقراطية أولا، الديمقراطية دائما، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط3، 1995م، ص 91-92.

3 - أنظر: أمين معلوف: الهويات الفائلة، ص 67-68.

الفصل الثالث ————— محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

بواسطة الإسناد هي التي منحت المرويات القديمة هويتها المميزة، طريقة الإسناد تعمم على مجالات مختلفة، إلا أنها صارت مبدئية، كونها استمدت شرعيتها من أسلوب رواية الحديث النبوي¹، أي أن أساسها ديني بحت.

غير أن «هذه القراءة السلبية للشرعية وهذا التقديس المبالغ فيه، حبس المثقف العربي في إطار الاقتباس، فلم يتمكن من التجديد؛ وفي إطار تبعيته لموروث، لم يستطع أن يبحث فيه، فوقع ضحية بعض الإيديولوجيات للنظام الثقافي العربي السائد (العائلة، المدرسة والجامعة)، ليتحول إلى آلة لترسيخ هذا النظام أو ذاك»²، غير أنه لو تمكن من فهم التراث فهما جيدا على أساس أنه منتج ثقافي وحضاري مرحلي مبني على التباين والتناقض حتى ضمن المرحلة «التاريخية الواحدة، لكان مختلفا، فالبحت في الفقه غير البحت في الفلسفة أو الشعر أو الطب»³، فعملية البحث في العلوم تختلف باختلاف هذه الأخيرة .

وعلى هذا الأساس لو استغل المثقف العربي الموروث، باعتباره أحد العناصر الفاعلة في مكونات الهوية، وذلك الاستغلال يكون من خلال القراءة الجيدة والمراجعة والنقد لوصلوا بالحاضر وبه تمكنوا من استشراف ما هو قادم، ولتمكنوا من معرفة أن بعض الذهنيات والسلوكيات كالنرجسية والنخبوية الضيقة قد مضى عهدها وتجاوزها ليحدث التفاعل مع الآخرين.

لقد حاول الروائي العربي عامة والجزائري خاصة مواجهة هذه الأزمة، عبر الخطابات الروائية الصادحة برفض هذا الوحش المرعب، باعتبار أن الفن الروائي هو الأقدر على احتواء الأزمات، وعرض الإشكاليات وتحليل المعطيات ثم تحليل النتائج خاصة تلك الروايات التي اعتمد فيها مبدعوها على آليات تؤكد خصوصية الانتماء نصا وفكرا ولغة وطموحا إلى الحد الذي لا يحبز الغياب ولا التغييب ولا النسيان، وإنما يجب أن يتم تناوله بطريقة تتلاءم

1 - أنظر: حوار مع عبد الله إبراهيم: مجلة الاختلاف، رابطة كتاب الاختلاف، الجزائر، العدد الثاني، سبتمبر 2002م، ص 64-65.

2 - نورة بعيو: الهوية وضغوطات العولمة، ص 340.

3 - أدونيس: الثابت والمتحول، ج3، صدمة الحداثة، ص 227-228.

الفصل الثالث ————— محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

وروح المعاصرة بعد هذا الاجتياح من طرف مصطلح العولمة الذي يعكر صفو حياة الذات العربية عامة.

فهذا الروائي "محمد ديب" يتناول المسألة بالتحليل والنقاش في روايته "سيمورغ" في نص "العولمة والعالمية ثم ماذا أيضا؟" حيث راح ديب يعرى العولمة ويظهر وجهها الحقيقي إنها عنده مرادف للوهم والزيف والخداع، وبالتالي فهي أبدا لا تعني حرية التفكير ولا حرية العيش بقدر ما هي موجهة لتسيير فكرة الإنسان وفق «إيديولوجية ليبرالية جديدة»¹، هدفها الأسمى جعل الإنسان مادي يتحكم فيه المال، وبالتالي تختل العلاقة بينه وبين بني جنسه ويتزعزع نظام حياته الاجتماعية، حيث يقول الراوي: «قد تجعل العولمة بالمعنى الثاني الواحد منا يؤمن بميلاد مرحلة جديدة من الحرية المطلقة أي حرية الحركة وحرية الاختيار ما بين أنماط الحياة... الخ. كل هذا مجرد وهم»²، فكل اعتقادات الفرد بخصوص العولمة ما هي إلا أوهام وخيال.

فالعولمة حولت كل شيء إلى عالم افتراضي حتى العلاقات يقول الراوي: «لقد دخلت مرحلة الافتراضي وغدت العلاقات البشرية افتراضية أكثر فأكثر وأصبحت الأسفار افتراضية أكثر فأكثر وصار التاريخ والجغرافيا افتراضيين أكثر فأكثر وكذا الفن والأدب والبيولوجيا التي راح أبناؤها من الاستنساخ يستعدون للحياة، الإعلام افتراضي و... في كلمة واحدة، كل شيء غدا افتراضيا»³.

وكيفما كانت العولمة، سواء على الطريقة الأوروبية أو الأمريكية "الشمولية" فهي لا تتأى عن كونها أسلوبا جديدا للهيمنة والتوسع والاستعباد يقول الراوي: «لا تناقض إذا ما دفعت العولمة دون شك الكثير من الناس إلى الإغلاق على أنفسهم بطريقة محكمة ولجوئهم

¹ - محمد ديب: السيمورغ، تر: عبد السلام يخلف، ص159.

² - المصدر نفسه، ص 161.

³ - المصدر نفسه، ص168.

الفصل الثالث ————— محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

إلى الإبحار والتجول معظم الوقت عبر الإنترنت في كوكب افتراضي هل ستكون العولمة هي زمن الاستغلال والاسترقاق»¹.

ففي حالة أوروبا وطريققتها في العولمة تنطلق من أطماع أساليب الماضي من حماية وانتداب واحتلال، أما في حالة أمريكا فالأمر مختلف كونها تنتهج أسلوبا حضاريا يظهر أنه ليس عليها «إرغام أي أحد سواء بالإقناع أو بالقوة من أجل تحقيق ذلك، يكفي أن تترك الوقت يفعل فعلته وتنتظر النتيجة، من يطلب هذا أليست كل البشرية هي التي تطلبه بما في ذلك أوروبا»²، حتى تحقق شموليتها، وإنما تقف هي متفرجة وتدع المسألة للوقت، بينما أوروبا تتجه نحو العالم للهيمنة عليه يقول الراوي: «العولمة بالمعنى الثاني هي آخر سقط المتاع اللغوي لهذه الإيديولوجية الليبرالية الجديدة لأوروبا، بمعناها الجغرافي والتي تدفع ثمنها زهيدا مقابل حصولها على بهرج وغرور تجسيدها لفكر كوكب الأرض، يستعمل هذا الشخص العادل البرجوازي الغربي كلمة الإنسان كي يصف نفسه أما إذا نظرنا إلى الواقع فإن هذا الإنسان لم ينتج في الحين لذاته، لصالحه وخدمة لنفسه سوى الاتحاد الصغير الذي أطلق عليه بأبهة الأوروبي والذي في حقيقته لا يمثل كل القارة الأوروبية ولا فكرة الاتحاد بل يبدو على الشكل الذي هو عليه: مجرد غرفة محصنة مغروزة في ذيل القارة الآسيوية، حيث يتمرس هذا الإنسان ويطلق القنابل الحمراء على بقية بشر العالم الذين يحاولون الاقتراب من طاولته والأكل من خبزه، هذا لا يمنعه من منح نفسه وهو الإنسان حق القيام بغارات وهجمات للنهب في أبعد نقطة ضائقة على هذه الأرض مع وجود احتمال خطر الاصطدام بالعملاق الأمريكي أينما ذهب»³، إذن العالم كله بما في ذلك أوروبا ينقاد خلف أمريكا ليحذو حذوها عن طواعية.

¹ - محمد ديب: السيمورغ، ترجمة عبد السلام يخلف، ص168.

² - المصدر نفسه، ص158.

³ - المصدر نفسه، ص160.

الفصل الثالث ————— محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

يقال عن الطريقة الأمريكية أنها شمولية، والمراد بهذا المفهوم التعميم لكن في حقيقة الأمر هو مرادف للغلبة، وهو المسوخ لديب حينما طرح تساؤلاته حول الطالب لهذه العولمة ليتوصل أنها مطلب العالم بأسره، فبين مبدأ ابن خلود «القاضي بحتمية تقليد المغلوب للغالب في كل شيء في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده»¹، ومبدأ "ديب" في الغلبة الذي يستجيب لإيديولوجيات طامحة لإحكام قبضتها وسيطرتها على العالم، «ساعية لتوحيد قدر البشرية، مرتكزة على مزاعم واهية ينادي فيها القائلون بها إلى التضحية بالذات من أجل منطق النظام»²؛ بمعنى الظاهر خدمة الناس والباطن إحكام السيطرة.

يزول مصطلح العولمة عندما يقرنه الراوي في النص بمصطلح الحادثة الذي يجعله مرادفاً في النص إلى الحنين يقول: «تملك الإنسان دوماً وسيتملكه للأبد الحنين الغريب لما لم يحدث بعد، هل يكون هو الماهية الحقيقية لما نسميه الحادثة هذه الكلمة التي لم تحصل على تعريف دقيق رغم تكرارها على الألسن؟ لكن إذا ما حصل، كيف يمكن تحديد موضوع هذا الحنين، أي بأي الكلمات باعتبار أن وجودها تستقيه من عدم وجود موضوع لها، وعدم وجود كلمات لشرحها وهذا على ما يبدو هو الذي جعل كل مرحلة تاريخية تمتلك حداثتها الخاصة بها، ذاك الحنين الأبيض المتجدد في كل المراحل والذي يحس به في كل المراحل؟ الحنين دون موضوع الحنين الأبيض... الحنين للشيء، دفتر كل الأحلام»³، فديب هنا يقف موقف الساخر من إفرازات العولمة التي توهم المرء بالحرية وتدفعه إلى الحلم وتغريه بالمجهول الذي لا يعترف إلا بالحاضر والمستقبل والذي «يحمي من الحنين إلى الماضي»⁴، وكأن به يصرح منتقداً العولمة والحادثة على غرار ما فعل "آلان تورين" «ينبغي عدم إطلاق كلمة حديث على مجتمع يحو الماضي والاعتقادات ولكن على المجتمع الذي

¹ - عبد الرحمن بن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، ط1، 2004م، ص16.

² - آلان تورين: نقد الحادثة، تر: أنور مغيث، ص415.

³ - محمد ديب: السيمورغ، ص168.

⁴ - آلان تورين: نقد الحادثة، تر: أنور مغيث، ص130.

الفصل الثالث ————— محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

يحول القديم إلى حديث دون أن يغيره، على المجتمع الذي يعمل بشكل يؤدي إلى أن يقل دور الدين كرباط جماعي ويزيد من دوره كدعوة للضمير تؤدي إلى تفتت السلطات الاجتماعية وتثري حركة تحقق الذات»¹، وهو المعنى الذي وجب البحث عنه والدور الذي ينبغي القيام به.

تصبح العولمة تطرفا عندما تجعل مصير الإنسان مرهون بما تقره الآلة، فيجعل الراوي في الرواية العولمة آلية شعارها الافتراضية حيث «أصبح الحاسوب هو الأمر المقرر»²، لتتقلب الموازين جراء ذلك، فيشيء الإنسان وتؤنس الآلة، إنها أقصى معاني التطرف الذي يجسد الإقصاء بمعنى «رفض الآخر واحتقار القيم الكونية العامة»³.

إن مقابل لغة العولمة الدائم الزحف والانتشار والتي جاءت تلبية لمتطلبات التحكم في عقول المستضعفين من الشعوب إليها بسبب مشاركتها في انتشار العولمة يقول: «شكرا لله فإن العولمة ليست لغة إنجليزية بل نوع من الرطانة الإنجليزية ويجب الاحتراس من الخلط بينهما، الإنجليزية لغة شكسبير Shakespear، وفيلدنغ Fielding، وديكانس Dickens وطوماس هاردي Thomas Hardy لا علاقة لها بذاك، لا علاقة لها إذا ما تعلق الشأن باللغة الفرنسية»⁴.

إذن هناك فرق شاسع بين اللغة التجارية النفعية التي استحدثتها العولمة لنفسها وبين اللغة التواصلية الجمالية القديمة قدم البشرية، فالأولى «حملتها الأمواج المتتابعة للشمولية»⁵ أما الثانية فقد رافقت الإنسان في مسار «فتح عالم الذات وتضمينه حقيقة» الدعوة إلى الذات»⁶، وبين اللغتين فرق جوهري، حيث تهدف لغة العولمة لفرض «خطر شمولي»⁷

1 - آلان تورين: نقد الحداثة، تر: أنور مغيث، ص412.

2 - Mohammed Dib: Smorgh, p169.

3 - آلان تورين: نقد الحداثة، تر: أنور مغيث، ص414.

4 - Mohammed Dib: Smorgh, p164.

5 - آلان تورين: نقد الحداثة، تر: أنور مغيث، ص416.

6 - المرجع نفسه، ص402.

7 - المرجع نفسه، ص402.

الفصل الثالث ————— محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

ينظر إلى الإنسان من الخارج، في حين تسعى اللغة الأدبية إلى البحث عن هوية الإنسان التي أحرق بها الخطر الشمولي.

يوصل "ديب" تعرية العولمة بإظهار خطرهما على الذات، إذ يعتبرها محاولة استبعاد جديدة، إنها عودة طوعية إلى عصور الرق والعبودية، يقول الراوي: «إن الاستبعاد الجديد الذي هو في نفس الوقت من دون وجه ويمتلك ألف وجه سيشغل دون تمييز ودون ألم من قمة السلم الاجتماعي إلى قاعدته دون أن يستثني أقوياء الباردة، سنجد أنفسنا أمام الاستبعاد اللين من قبل شركة ماكдонаلد وثقافة العروض والألعاب المتلفزة والإشهار والترويج الإعلامي الجاد للاختراعات بدءاً من اللغة العالمية وصولاً إلى البريد الإلكتروني والعالم الافتراضي».¹

إذن هو احتلال وغزو مقنع، يصعب التعرف عليه واتقاءه لذا وجب الحذر منه فالعولمة على الرغم من إيجابياتها الظاهرية التي يقال أنها توضع في خدمة الإنسان والإنسانية، إلا أن حقيقتها غير ذلك يقول الراوي: «حين أمعن التفكير أرى أنني أهملت بعض الشيء ذلك التوجه المخزي للعولمة والذي يرمي إلى مزيلة التاريخ بالكثير من الشعوب فقط لأنها من إفريقيا أو آسيا أو أمريكا اللاتينية، لن يكون في الموقف تناقض إذا ما حكمنا عليها بالأذنب في عدم تقديم المساعدة لأشخاص في خطر أو حتى بالتآمر ضدهم، مثلما هو أيضا الاتحاد الأوروبي في تعامله مع مخزونه من البطالة والفقر والذي يخبئه في أجساد الأمم التي ترى عواصمها متورمة في القلب... هي جيوب لبؤس الحياة لا يمكن إسكاتها يظهرون بأنهم سيهتمون بها في الوقت الذي يتم إسقاطها من حسابات "الأوروقراطيين" وكذا "العولمقراطيين" الذين لا يخضع تفكيرهم للتحركات الكبرى والأوامر التي يصدرها المال الملك، الملاحظ أن مثل هذه الخزانات والجيوب هي التي أدت إلى انهيار وزوال أقوى إمبراطوريات العالم القديم وكذا الاتحاد السوفياتي في أيامنا».²

¹ – Mohammed Dib: Smorgh, p167.

² – Ibid, p170.

فالعولمة وفق هذا التصور عولمة استعباد وتحكم وهيمنة، وجب علينا الحذر منها والوقوف لها بالمرصاد، مسلحين بكافة الأدوات التي من شأنها أن تدفع خطرها عنا، ويأتي في مقدمتها القيم الأخلاقية الأصيلة يقول الراوي: «هذا الشيطان الذي تمت مقاومته ومحاولات إيقافه دون جدوى، على الناس المتواجدين في حيز جغرافي لا محدود وذو قيمة إنسانية مجردة أن يتذكروا طعم القيم الملموسة أكثر، وبالتالي لن يجدوا أحسن ولا أكثر حميمية وترحيب من قيم مجتمعاتهم الأصلية، لا شيء يحسس بالأمان لذات ضائعة أكثر من معرفتها للغير والذكاء الذي يبديه المقربون لها».¹

إذن الأمان والخلاص من تهديد العولمة للذات، يكمن في استشعارها حلاوة الواقع وابتعادها عن الافتراضي وضرورة التمسك بالقيم الأخلاقية يقول الراوي: «حين تجلس هذه القوى العمياء مطمئنة قبالة عالم من أناس "النوع الراقي والنوع الجيد" الذي يكون من المخاطرة الاتكال عليه، يجب عدم انتظار رؤية المحلي وهو يقبل فرض السياسات التي تعتمد على الاقتصاد فقط الصادرة عن الإيديولوجية المدافعة عن أوروبا وعن العولمة، إنه يمتلك الأسلحة الفتاكة كي يدافع عن نفسه والمتمثلة في القيم الأخلاقية التي ما تم القضاء عليها بعد، يمكن إفساد بعض الأنصار لكن ليس بالإمكان إفسادهم جميعا لأنهم تجذروا في الحساسيات وفي شعارات المشهد الآدمي، ولذا غدا من الساذج تخيل قوى المال وهي تقتلعهم منها».²

فالراوي يبين أن العولمة لا يمكنها هزم الإنسان، لأن إنسانيته ستبقى متمسكا بآدميته وبقيمه وأخلاقه النبيلة الأصيلة، التي تمنحه القوة والحصانة، وهو الأمر الذي ينبئ بزوال نظام العولمة، كونه يحمل بذور فناء فيه، فهو لا يقيم وزنا للمحلية وللثقافة الأليفة التي تملكها الشعوب يقول الراوي: «إن سلالة العولمة العاجزة عن استيعاب كل هذا ستتحطم لا محالة على سور الإنسان المحلي وثقافته الأليفة، كان من واجب العولمة التي تمدح نفسها بالإعلان عن وجود أرض ميعاد جديدة وعصر ذهبي جديد على الأقل ألا تحجز مقاعدها في الواقع لعدد قليل ممن اختاروها!».³

¹ – Mohammed Dib: *Smorgh*, p162.

² – *Ibid*, p170.

³ – *Ibid*, p170.

الفصل الثالث ————— محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

ومجمل القول أن الغرب في سعيه من خلال مسلسلاته وأدواته الضخمة والعولمة إلى جعل أمم العالم وشعوبه مستهلكين لما ينتج، وبالتالي يصبح هو منتج كوني لا يمكن منافسته، ومن هنا تتبع أهمية إعادة «الاعتبار إلى عناصر الثقافة الوطنية والعمل على تنشيطها وبعثها في النسيج المجتمعي»¹، وهي ضرورة حتمية لا بد منها إذا ما أردنا الحفاظ على قيمنا وهويتنا الأصيلة وإنسانيتنا.

يجب أن نكون أكثر وعيا لما يحاك ضدنا من مؤامرات، فالعولمة ما هي إلا مجرد مشروع توسعي اتخذ من الاقتصاد ذريعة للتغلغل في أعماق الثقافة العربية الإسلامية، ومنع انتشارها في أصقاع المعمورة، وكرد فعل على خطر العولمة كان لزاما علينا التحدث عن الثقافة العربية الإسلامية، وآفاقها واستراتيجية عملها في عصر العولمة «وفق استراتيجية المشروع الثقافي الغربي في حد ذاته، من حيث امتلاك الإمكانيات والآليات المعرفية التي تسمح للمتقف العربي بترويج ثقافته وبعثها مجددا»²، فبقاء الإنسان العربي متحجرا منطويا على ذاته سلبي «وبدون أن تحرك فينا هذه التحديات حوافز العمل والفعل الثقافي الحضاري يحولنا إلى أسرى حقيقيين لثقافة الآخر وألوياته واهتماماته ومصالحه»³.

إذن يجب علينا ونحن نعيش عصر العولمة أن نفكر بجدية من أجل إيجاد أنساق ثقافية جديدة، والعمل على ترسيخها في الأوساط الاجتماعية، بحيث لا تتأثر الثوابت البنيوية فيها بالمتغيرات.

¹ - لعموري زاوي: العولمة والهوية، حوار الكونية والأنا، مجلة الاختلاف، ص 59.

² - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

³ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

الفصل الرابع

غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

توطئة

المبحث الأول: مفهوم الاغتراب

1- الغربة والاغتراب (مفارقة اصطلاحية)

المبحث الثاني: الاغتراب الزمني

1- الهروب من الحاضر

2- العودة إلى الماضي (زمن الذاكرة)

المبحث الثالث: الاغتراب المكاني

1- إحياءات المكان الاغترابية

المبحث الرابع: اغتراب اللغة ولغة الاغتراب

المبحث الخامس: الاغتراب الاجتماعي

1- اغتراب الذات عن أسرتها

2- اغتراب الفرد عن المجتمع وقيمه

توطئة:

إن الذات الإنسانية عالم قائم بذاته مستقل عما حوله، بإمكانه التصدي لأي مؤثرات خارجية مهما كان نوعها، وهو أمر يصعب علينا استيعابه لأن سنة الحياة قد رسمت لهذه الذات صورة التواجد بغية التفاعل والاحتكاك بالموجودات الأخرى من أفراد ومؤسسات حتى تضمن البقاء والاستمرارية، إلا أن الجدليات التي فرضها الواقع بكل ما فيه من اختلالات خلقت تناقضات نتجت عن الراهن والظروف المتواجدة فيه، مما صعب على بعض الأفراد إمكانية التأقلم مع محيطهم، لأن متطلباتهم الفردية البعيدة كل البعد عن المقتضيات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية قد أصابها الخلل، نظرا لسوء التسيير أو لممارسة بعض الأساليب القمعية المضطهدة لرغبات الإنسان الطامح، فتغدو بذلك كل المعطيات الخارجية غير ملائمة ولا مناسبة لمبادئه وقناعاته مما يدفع به إلى إنكار العالم المحيط به، ليلجأ إلى الارتواء وسط عالم أعقد بكثير من ذاته المثقلة بالهموم ألا وهو عالم الاغتراب.

المبحث الأول: مفهوم الاغتراب

الاغتراب افتعال من الغربة، وقد ذكر في المعاجم العربية بمعنى النزوح عن الوطن لتقتصر على المعنى المكاني للكلمة فقط، «فَعَرَبَ فُلَانٌ يَغْرُبُ غَرْبًا بِمَعْنَى تَنَحَّى، وَأَغْرَبَتْهُ نَحِيَّتُهُ وَيُقَالُ: غَرُبَ فِي الْأَرْضِ وَأَغْرَبَ، إِذَا أَمْعَنَ فِيهَا، وَالْغَرَبَةُ: النُّوَى الْبَعِيدُ؛ يُقَالُ شَقَّتْ بِهِمْ غَرَبَةُ النُّوَى»¹ والغرب «هو المغرب والذهاب وكذا التتحي، وأول الشيء وحده»².

وأغرب القوم: أي انتؤوا والغرباء هم الأبعد، والغريب الغامض من الكلام، والاغتراب هو الابتعاد عن الوطن واغترب الرجل: نكح في الغرائب، وتزوج في غير أقاربه، وفي

¹ - الخليل بن أحمد الفراهيدي: كتاب العين، تح: مهدي المخزومي إبراهيم السامرائي، مطابع الرسالة، الكويت، د.ط، 1980م، مادة (غرب)، ج4، ص 410.

² - الفيروز أبادي: القاموس المحيط، تقديم: أبو الوفا نصر الهوريني المصري الشافعي، منشورات محمد علي البيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2004م، ص146.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

الحديث النبوي الشريف قوله صلى الله عليه وسلم: «اغتربوا لا تضووا؛ أي لا يتزوج الرجل القرابة وغوارب الماء أعاليه، والغريب: شديد السواد».¹

ونلاحظ من خلال هذه التعريفات تنوعها وتباينها غير أنها تثبت أن لهذا المصطلح دلالة مزدوجة، إذ أنه دال على الغربة المكانية باعتبار التغريب نفي عن المكان والبلد هذا من جهة، ومن جهة أخرى دل على الغربة الاجتماعية وهو ما نستشفه من حديث سيد الخلق عليه أفضل الصلاة والسلام، فالغربة لم تخص الوطن ولا المكان وإنما تعدت إلى الأشخاص والصلات.

والاغتراب شعور قديم قدم الوجود الإنساني ظهر كفكرة توغلت بجذورها في أعماق الذاكرة الإنسانية في الفكر المسيحي والعصور الوسطى، وكذا الكتابات اللاهوتية ليتخذ فيما بعد صورا جد معقدة كون الإنسان معقد بإنسانيته، وقد أرخ البعض لاغتراب الإنسان منذ اللحظة التي غربت فيها الجنة عن آدم عليه السلام، فنزل من السماء إلى الأرض ليعاني شقاء الحياة وآلامها، وليواجه الحياة المزدوجة القائمة على الصراع الدائر بين الجسد والروح بين الخير والشر.

ويظهر بوضوح من خلال هذا أن مفهوم الاغتراب قد ارتبط بالانفصال والابتعاد عن الأرض بين كل ما هو موحش وحزين، ومسبب للشقاء والرزايا من جهة أخرى، فتجاوز المدلول المادي إلى ما هو أعمق وأبعد من ذلك، ألا وهو المعنى الحسي المتعلق بالجانب الروحي والنفسي، أما البعض الآخر من المؤرخين فقد التمس للمصطلح مصادر قديمة تعود إلى الفكر الإغريقي القديم، وتتجلى فيما يعرف بحالة "الغذب" "Extassis" حيث يسلم الإنسان جسمه للشعائر «فيصير بذلك غريبا عن جسمه كأهم شيء يمتلكه. كما اهتم به فلاسفة يونانيون أمثال سقراط وأفلاطون»² وغيرهم.

¹ - أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور: لسان العرب، الدار المتوسطة للنشر والتوزيع، تونس، ج1، 2005م، مادة (عرب)، ص 639-649.

² - فيصل عباس: الاغتراب، الإنسان المعاصر وشقاء الوعي، دار المنهل اللبناني، لبنان، ط 1، 2008م، ص 21.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

ومنهم من رده إلى فجر اليهودية المتمثل في «أبرام وغربته بغير أسرته وبغير أرض أو دين قومي وذلك قبل أن يصبح اسمه إبراهيم ويعطي أرض غربته»¹ فاستشرف الاغتراب من رؤاه ومن ترحاله من قوم لآخر فتركت كل رحلة لديه إحساسا بالمرارة لديه، كما نصت آيات من التكوين لدى اليهود على هذا النمط الاغترابي.

وإذا ما بحثنا عن مقابل ودلالة الاغتراب في اللغات الأجنبية نجد أن مقابل هذه اللفظة في اللغة الإنجليزية "Aliénation" وتعني «قابلية الأشياء بل والكائنات الإنسانية المملوكة للتنازل عنها أو البيع»²، وهذا ما يعرف "بالتشوي" الذي يماثل بين الإنسان والشيء، وقد ذهب بعضهم إلى أن للاغتراب معنى مزدوجا الأول هو الغربة أما الثاني فهو التشوي على غرار ما ذهب إليه "دانيال بيل".

كما نجد أن هذا المصطلح في هذه اللغة أخذ في العصور الوسطى معنى الفعل الذي يفيد قيام شخص ما بتغريب شيء يمتلكه فـ "Alien" تعني «الانتماء والتعلق بالآخر وبالتالي السطو والسلب»³، أما مقابل الاغتراب في اللغة الإنجليزية اقتصر على ارتباطه بعالم الأشياء.

أما مقابله في اللغة الفرنسية "Aliénation" فيدل على الترك والعطاء وكذا الغربة الروحية، وقد اشتقت اللفظة الفرنسية، ونظيرتها الإنجليزية من الفعل اللاتيني "Alienare" الذي يعني «نقل ملكية من شيء إلى آخر، وهو بدوره راجع في الأصل إلى اللفظ "Alius" الذي يدل على الآخر سواء كاسم أو صفة»⁴، فالقاسم المشترك بين معاني الاغتراب في مختلف اللغات هو الدلالة على انتقال الملكية من شخص إلى آخر.

¹ - حبيب الشاروني: الاغتراب في الذات، عالم الفكر، الكويت، مج10، العدد الأول، سبتمبر 1979م، ص69.

² - سهير عبد السلام: مفهوم الاغتراب عند هريرت ماركيز، دار المعرفة الجامعية، الأزاريطة، مصر، د.ط، 2003م، ص21.

³ - نور الدين صبار: الاغتراب بين القيمة المعرفية والقيمة الجمالية، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، ع355، سبتمبر 2000م، ص328.

⁴ - يحيى العبد الله: الاغتراب، دراسة تحليلية لشخصيات الطاهر بن جلول الروائية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الأردن، ط1، 2005م، ص21.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

ومفهوم الاغتراب متواجد في كل المجتمعات وفي كل الثقافات وحاضر في معظم المجالات مما جعل الوصول إلى تعريف جامع مانع أمر صعب، وبخاصة أنه اتصل اتصالاً وثيقاً بالإنسان الذي فقد روح الانسجام والتناغم في حياته، فالكل عانى منه، وفي ظل ظروف لا إنسانية فرضتها التعنفات التي سادت المجتمعات والتي أدت إلى اندثارها.

والاغتراب يتكون من ثلاث مراحل متصلة فيما بينها وهي:

«أ. تتكون نتيجة لوضع الفرد في البناء الاجتماعي (بمعنى عدم الانسجام والنفور ورفض النواميس السائدة).

ب. يتدخل وعي الفرد لوضعه في هذه المرحلة (يرهق الفرد نفسه في الشعور بالقهر والقمع وعدم الاندماج).

ج. تنعكس على تصرف الفرد إنساناً مغترباً على وفق ما أتيح له من خيارات وقد يكون قسرياً أو طوعياً»¹.

1- الغربة والاغتراب (مفارقة اصطلاحية):

إن التفريق بين المصطلحين أمر ليس بالهين نظراً للتداخل الحاصل بين مفهوميهما ومعنييهما هذا من جهة ومن جهة أخرى بين الجانب الشكلي والأكوستيكي لكليهما، وقد جعل المعجميون العرب كلمة غربة من الفعل "غرب" مساوية للاغتراب من الفعل الماضي المزيد "اغترب" وما هذه الأخيرة إلا افتعال من الغربة.

وقد اقتصر مدلول كلمة الغربة -في الغالب- على الانتقال من مكان إلى آخر وهو ما يوافق المصطلح الغربي في الإنجليزية "Emigration" على سبيل المثال لا الحصر، ولم يكن يعرف كما هو الحال في العصر الحديث وبالخصوص مع بعض الفلاسفة والسيكولوجيين وحتى علماء الاجتماع بمفهومه الأنطولوجي الواسع والذي صار يرمي إلى أبعاد شملت ميادين شتى من سياسية واجتماعية وإيديولوجية ونفسية.

¹ - محمد راضي جعفر: الاغتراب في الشعر العراقي المعاصر، مرحلة الرواد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق،

سوريا، د.ط، 1999م، ص5.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

أما في المكتبة العربية بالأخص السردية القديمة فلم «تتشكل لدى العرب نظرية فلسفية حول مفهوم الاغتراب، الفردية عندهم يعني الابتعاد عن الوطن»¹، فهي غربة مادية دفعتها إليها عمليات البحث عن العيش الرغيد.

لقد فضل التوحيدي الغربية والتغني بها وذلك لعدم إغداق الحكام عليه بالمال، وهو الأمر الذي جعل الغربية تنتقل إلى ما هو أبعد من ذلك لتكتسب المعنى الروحي مع بعض المتصوفة الذين سموها بها، وأعطوها دلالات عدة أسقطوا عليها حالاتهم النفسية وتجاربهم الروحية ومواقفهم الاغترابية.

وكلمة الغربية والاغتراب ينتميان إلى الحقل الدلالي نفسه، وتحملان الدلالة المزدوجة نفسها، فكلمة غربة تجاوزت الجغرافيا المحدودة إلى معان عدة، تخلصت بها من عبودية الهجرة والنزوح إلى الاغتراب عن الحق كما يرى ابن عربي، بينما ابن القيم الجوزية يذهب إلى تقسيم الغربية إلى ثلاثة أقسام ومنطلقه في هذا التقسيم ديني إسلامي، حيث يربطها بالأرض باعتبار الإنسان قد ولد في ثايلها وبين أحضانها فحريته وأسرره مرهونان بحريتها وأسرها، وهذه الأنواع هي:

أ. غربة أهل الله وأهل سنة رسول الله بين هذا الخلق بمعنى أن تكون في مكان دون مكان وفي قوم دون قوم.

ب. غربة مذمومة وهي غربة أهل الباطل بين أهل الحق.

ج. غربة عن الأوطان»².

وعلى هذا يتعدى مفهوم الغربية على رأي ابن القيم الجوزية إلى الانفصال عن الأهل والأحباب لأسباب ظاهرة كالدين أو خفية كالإيمان، فشملت بذلك الاغتراب واحتوته كما تجاوزته لاستنطاقها لمكامن النفس وسبر أغوارها الراضة للعالم بمختلف عوالمه.

¹ - يحيى العبد الله: الاغتراب، ص23.

² - عمر بوقرورة: الغربية والحنين في الشعر الجزائري الحديث 1945-1962م، منشورات جامعة باتنة، الجزائر، د.ط،

د.ت، ص16.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

إذن الغربة والاغتراب قديمان قدم الوجود الإنساني فكل واحد نأى وابتعد واغترب عن أهله وعاش ألم الفراق وعانى البون، فأنزل ذلك إلى منحدر الحنين القاتل لنبضات الحياة السعيدة.

على الرغم من التداخل الحاصل بين المصطلحين، إلا أن الفرق بينهما يكمن في أن الغربة دلت في الغالب الأعم على الانتقال من مكان إلى آخر، في حين قصد بالاغتراب المعنيان المادي والروحي، أي الشعور بالعزلة والتهيه داخل الوطن مع احتواء المعنى السابق وإمكانية الدلالة على معان أخرى.

لقد مر مصطلح الاغتراب بعدة مراحل ودل قبل ذلك على عدة معان اختلفت باختلاف السياقات وبتنوع المعطيات والمقتضيات في السياق القانوني مثلاً دل «على تحول الملكية من صاحبها إلى آخر، وفي السياق النفسي بمعنى انفصال الإنسان عن ذاته ومجتمعه وديني بمعنى انفصال الذات البشرية عن الذات الإلهية»¹، ليتحول فيما بعد إلى مصطلح فني على يد "هيجل" الملقب بأبي الاغتراب، ليظهر المصطلح بعدها في العلوم الاجتماعية عام 1935م، وبدأ بالتجلي في الأعمال الكلاسيكية السيكولوجية في أواخر القرن 19م، ومع نقاد المجتمع أمثال "هربرت ماركيز" و "إريك فرويد" و "ماز" وغيرهم، ولم يتم تناوله كظاهرة لها أبعادها ونظرياتها إلا في أوائل القرن 20م على يد "كارل ماركس" والأديب الفيلسوف الوجودي "جون بول سارتر" الذي صور الوجود في صورة من الألم والغثيان.

وبما أن الذات البشرية تعد محور الكون ومركزه، فقد أضحت «فراغا خاويًا بتحول وترك كل شيء لا يعني ذاته، وإنما هو شيء غريب عنه ليتم من خلاله تغريب الذات عن نفسها»²، فالعذاب والاغتراب لم يصدر إلا عن وعي الإنسان لهذه الذات في «ظروف

¹ - محمد عبد المختار: الاغتراب والتطرف نحو العنف، دراسة نفسية اجتماعية، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، د.ط، د.ت، ص 29.

² - بول تيلش: الشجاعة من أجل الوجود، تر: كامل يوسف حسين، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1981م، ص122.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

موضوعية واجتماعية تقف حائلا دون تحقيقها بالصورة التي تريد»¹، وبقهر الظروف لهذه الذات تفقد شعورها بالانتماء، وتتخلى عن المسؤولية لتقضي على وجودها الطبيعي باعتبارها متجردة من الروابط العميقة الجذور، التي تصلها بكل ما هو محيط بها من آداب وتقاليدها فيناقش الفرد بكل وعي وإدراك كيانه وذاته التي أفرغت من محتواها الحسي والشعوري بسبب ثقل العالم، فغدت بذلك مجرد آنية فارغة وعلى الرغم من هذا يتعين عليها العيش وتقبل الآخر لأنها تحمل نبض الحياة، ففكرة الاغتراب تقوم على أساس التميز بين وجود الإنسان وجوهه وأن «وجود الإنسان بصورته التي نراه عليها في المجتمع الحديث لا يتفق مع جوهره أو ما هو حقيقة»²، بمعنى أن اختلاف الباطن والظاهر يخلق شعورا إغترابيا.

وبما أن للاغتراب علاقة وطيدة بأعقد شيء أرهق الوجود الطبيعي، ألا وهو الإنسان وذاته التي تبقى رهينة الزمن ووليدة الظروف والمفارقات فتقلب لتقلبها، وتستقيم باستقامتها مما صعب مهمة تحديده خارج نطاقها، فكل (إنسان/ ذات) نصيب منه مهما حاول الفرار من مواقفه الاغترابية عبر التاريخ، لأنه «إما طوعي يختاره الإنسان لأسباب عدة كعدم انسجامه مع المجتمع وعدم الرضى بالعادات والأعراف المخالفة في الفكر والمعتقد»³، وإما إجباري تفرضه جملة من الدوافع والمؤثرات الخارجية وهو عدة أنماط.

سأحاول رصد تجليات بعض هذه الأنماط في بعض النماذج من المدونات الروائية التي عملت عليها.

¹ - ماجد قاروط: المعذب في الشعر العربي الحديث في سوريا ولبنان من عام 1945م إلى 1985م، دراسات جمالية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، د.ط، 1999م، ص137.

² - عزت حجازي: الشباب العربي ومشكلاته، عالم المعرفة، الكويت، د.ط، 1985م، ص72.

³ - يحيى الجبوري: الحنين والغربة في الشعر العربي، مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2008م، ص17.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

المبحث الثاني: الاغتراب الزمني

يعد هذا النوع من الأمور الغامضة، فالارتباط بين الإنسان والزمن أكثر غموضاً من الارتباط بينه وبين المكان، وعليه فتأثيره عليه أكبر وأشد أيضاً، فالإنسان قد يشاهد شيئاً معيناً أو يحس به بإحدى الحواس الخمس أو بأكثر من حاسة واحدة، بينما يحتاج الإحساس «بالزمن إلى الحاسة الفكرية أو الذهنية»¹، أي الإحساس بالزمن غائب.

إذن هناك فرق بين إدراك الزمان وطريقة إدراك المكان، لأن الزمن يرتبط بالإدراك النفسي، أما المكان فيرتبط بالإدراك الحسي، وقد يسقط «الإدراك النفسي على الأشياء المحسوسة لتوضيحها والتعبير عنها، فنلمس بذلك فعل الزمان على الأشياء المحسوسة من تدهور وهدم»²، أي الزمن يدرك بتلمس أثره على الأشياء.

كذلك ترتبط الشخصية بالزمن ارتباطاً جدلياً غامضاً، يستمد غموضه من عمق الزمن ومرونته، إذ تنثر مقولة الزمن جدلاً عميقاً باعتباره الوجه الآخر للكون، كونه محور الكون والحياة ومحور الحياة الداخلية لنا، والمحرك الخفي لمشاعرنا وتقلباتنا الجسدية والنفسية فالدورة «الآلية التي تعيشها عقارب الساعة ليست الزمن الحقيقي الذي يسير على وتيرة واحد بل تتغير سرعته تبعاً لإيقاع واقعنا النفسي»³، بمعنى أن الزمن يدرك من خلال تأثيره في النفس البشرية.

فالحزن يبطئ الزمن والفرح يسرعه، ويحقق الإنسان وجوده داخل الزمن، إلا أن وجوده وحياته وأحداثها هو الذي يهب الزمن الحياة، ويضفي عليه الحركة. لأن تيار الزمن سيتوقف في عالم خال من الحياة «فالزمن هو دفق لا متناه من الأحداث هذا السيل هو التعبير الصادق عن ماهية الوجود»⁴، بل أكثر من ذلك إنه الوجود بعينه.

¹ - يحيى العبد الله: الاغتراب، ص 28.

² - سيزا قاسم: بناء الرواية (دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، د.ط، 1984م، ص 76.

³ - مها القصراري: الزمن في الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1، 2004م، ص 15.

⁴ - عبد اللطيف صديقي: الزمان وأبعاده وبنيته، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1، 1995م، ص 125.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

إن الحاضر والماضي والمستقبل كل منها يشكل الزمن الداخلي والخارجي للإنسان الذي يرتبط به ارتباطاً عميقاً يترك أثره في حياته، فالزمن ذو فعالية، بمعنى أنه يترك أثراً بغض النظر عن مدى سلبية أو إيجابية، فنحن في حياتنا اليومية دائماً أمام نقطتين أساسيتين الأولى هي الآن «أو ما يعرف بال لحظة الحالية، أما الأخرى فتتعلق بجريان الزمن وتدفقه من الماضي إلى المستقبل».¹

فالفرد يحقق مصيره داخل الزمن وهذا الأخير ينقسم إلى حاضر وماضي، وهذان لا وجود لهما إلا في الحاضر، فهناك ماضي ذهب وانقضى وهناك الماضي الباقي المستمر مكوناً جزءاً من الحاضر، فالماضي الذي يعيش في ذاكرة الإنسان ماضٍ مختلف تماماً كونه «ماضٍ متسامي ساعدت أفعالنا الإبداعية على إدخاله في حاضرنإ إدخالاً متكاملأ وليست الذاكرة مجرد احتفاظ أو بعث للماضي، وإنما تقتضي الذاكرة تجديداً خلافاً وتحولاً مبدعاً للماضي، وهنا يتناقض الزمن»²، حيث أن الفيلسوف "هنري برجسون" "Hiniri Bergson" يؤكد على أن «الذاكرة هي جوهر وجودنا، فهي امتداد للماضي في الحاضر وسيرورتها معا، غير أن الحاضر ليس حصيلة تراكمات إنما هو فعل نوعي وضرب من الابتكار المتجدد، كأن مسار الرحلة في الزمن تتويع لنوتة موسيقية واحدة تبني جسوراً بين المكان والزمان والماضي والحاضر»³، بمعنى أن حياتنا هي تناغم زمني.

فالماضي الذي لا يمكن أن يرجع في الزمن الموضوعي، وإنما يمكن للذاكرة أن تعيده إلى الذات وتنتصر به على رتابة الزمن، ويمكننا بذلك دفع الزمن الموضوعي إلى الذات بواسطة العقل، «فالعقل ذاكرة والذاكرة زمن، فالعقل إذن زمن والزمن يمكن جرّه إلى الذاكرة النفسانية الداخلية، وذلك عن طريق العقل، الذي هو بالتالي مقيد بالزمن الخطي من الخارج

¹ - عبد اللطيف صديقي: الزمان وأبعاده وبنيته، ص40.

² - نقولاً برديائف: العزلة والمجتمع، تر: فؤاد كامل عبد العزيز، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، د.ط، 1976م، ص 122.

³ - يحيى العبد الله: الاغتراب، ص192.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

ولهذا يكون الزمن النفسي عندئذ داخلية¹، ويظهر انتصار الزمن النفسي باعتباره زمنا ذاتيا يقاس بالحالة الشعورية لصاحبه، في «قدرته على تجاوز الحدود الزمانية والتقسيمات الخارجية الموضوعية (الماضي، الحاضر، المستقبل) وبالتالي يمكن في لحظة واحدة آنية أن يملك الإنسان عدة أزمنة متفرقة وعدة أنوات»².

إن الزمن يعد عنصرا هاما في تشكيل البنية الروائية وكذا في تجسيد رؤيتها فهو «يؤثر في العناصر الأخرى وينعكس عليها، الزمن حقيقة مجردة سائلة لا تظهر إلا من خلال مفعولها على العناصر الأخرى»³، أما في الرواية الحديثة فهو يشكل ركيزة أساسية من ركائز الإبداع لما يتضمنه من دلالات إيحائية وإشارات جمالية، تعبر عن رؤيا وأفكار ومشاعر، فزمن الشخصية الروائية زمن نفسي ذاتي «يخضع لحركة اللاشعور، ومعطيات الحالة النفسية، ولا يقاس بمقياس الزمن الواقعي، بل يخضع في تحليله للحالات الشعورية التي تعيشها الشخصية في النص الروائي لأنه زمن مطاطي، يخضع في تمدده وتقلصه للانفعال وللحالة النفسية والشعورية»⁴.

ويشكل الحاضر في السرد منبع الزمن، الذي ينطلق منه الروائي لاستدعاء الذكريات وrehنها في اللحظة الحاضرة لاستشراف المستقبل، فالرؤية الجديدة للزمن الروائي «تتكرر أي تماثل أو انعكاس للزمن الواقعي، وتعد لحظة بدأ الراوي السرد هي لحظة الحاضر التخيلي الآني على خط السرد لاسترجاع الماضي عبر الذاكرة أو باستخدام ومضات استباقية من خلال الحلم والتوقع»⁵ وكذا من خلال الهواجس.

لقد عمد الروائيون إلى توظيف الزمن كإيقاع نفسي يستمد دلالاته من ارتباطه بالحالة النفسية الداخلية للشخصية، فتنقل من الحاضر زمن الخطاب إلى أزمنة أخرى، وخاصة

¹ - عبد اللطيف صديقي: الزمان وأبعاده وبنيته، ص 147.

² - مها القصراري: الزمن في الرواية العربية، ص 24.

³ - المرجع نفسه، ص 23.

⁴ - المرجع نفسه، ص 120.

⁵ - المرجع نفسه، ص 24.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

الماضي لما يحمله من أثر في حياة الشخصية الآنية، إذ أنها تؤثر فيه وتتأثر به، فهي تعيش الزمن وتذكره تبعاً لحالتها النفسية والشعورية فقد تلجأ إلى الماضي هروباً من الحاضر المزري ثم تعود إلى المستقبل لاستشراف ما سيأتي عن طريق التوقع والحلم. سأحاول تتبع إلتواءات الزمن الاغترابية في نماذج روائية راصدة أهم المحطات الاغترابية.

1-الهروب من الحاضر:

يشكل الحاضر المهيمن والواقع المر الذي تعيشه الشخصية في المنفى أحد أهم أسباب اغترابها عن حاضرها وارتدادها إلى الماضي علماً تجد فيه العزاء الذي يخفف عنها وحشة الحاضر وغربته ففي رواية "سيمرغ" لمحمد "ديب"، تعبر الزائرة التائهة عن رؤيتها للزمن من خلال تجربة الاغتراب القسري عن الوطن وتشتتها وضياعاها في هذا المنفى تقول: «أنا الوحيدة التي أعرف جيداً مراحض المساجد وتجد أحسن الأجفان المتقيحة سواء لأطفال أو لشيخ منهكين هذا لا يهم... المحزن هنا أن كل شيء ينضح بالنظافة من المؤكد أن الأشياء حدثت حينما كنت نائمة، ولا وجود لإمكانية أخرى، يا إلهي قد أكون غيرت حتى البلاد في نومي».¹

فقد ولد المنفى بزمه الحاضر المرفوض شرخاً داخلياً في الذات سبب لها قلقاً وتمزقاً وضياعا، وتيها تقول: «إنني أراه، لا أدري لا أرى سواه، لا أنظر إلا إليه، لكن الوصول إليه. آه، الوصول إليه ذلك ما لا أعرف كيفيته، لم أعد أعرف ما أفعل، لا، إنه أمر فوق طاقتي».²

وهو ما خلق خلخلة في الزمن ليتجلى صوت الماضي صاخبا في زمن الشخصية الحاضر، فالساردة تعيش الحاضر ولكن حكايات الماضي تلح على ذاكرتها محاولة تغذيتها بآماله ليخفف من بؤس الحاضر ومرارته يقول السارد في "رواية سيمورغ": «يأتي على

¹ – Mohammed Dib: Smorgh, p62.

² – Ibid, p61.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

الإنسان وقت يحس به بالاختناق داخل جلده الضيق لكن ما العمل؟ لا شيء، أراني دوما في تلمسان، أراني دوما أجلس في تلك الحديقة المطلة على المدينة حديقة وافرة النبات وارفة، مجنونة إلى درجة أنها محيرة مهما كان الجمهور، حيث أضع أذني كي أستمع إلى أنغام البيانو المكررة، البيانو الذي راح يتأمل ويبدو أنه ليستمع هو أيضا إلى سر أفشى له به بتهوفن الذي ما كان معروفا حينذاك من طرف متحلق مريض برومنسيته، فجأة. فتحت عيني لم تعد بي رغبته للتذكر للاستماع»¹، فَقَدْ فَقَدَ الزمن معناه في حاضر الشخصية واكتسى طابع الرتابة والملل مما دفعها إلى الهروب منه نحو الماضي، وهذا يعكس الحالة الشعرية لهذه الذات.

إن الحالة الحزينة والقلقة التي عاشتها سلطنة في نص "الممنوعة"، داخل المنفى جعلتها تعيش إشكالا واغترابا مع الزمن المعاش هناك حيث تتحول الحياة إلى مجرد أزمت ومشاكل صعبة الحل، حيث يفقد الزمن قيمته في هذا المكان الذي يجسد معنى الشتات والضياح ويتحول إلى عدو حقيقي لهذه الشخصية تقول: «سأبتعد لدقيقة واحدة أقوم خلالها ببعض الدورات هنا وهناك وقد أعود، قد يكون ممكنا، أعود ولا أفعل شيئا ثم أصطدم من جديد، بين هذا الداخل والخارج لا يوجد شيء وأنا أدوخ نفسي دائما، مجرد هواء ورغم ذلك لا أتمكن من مواصلة السير والمرور، لا أريح سوى أنين أسحق نفسي ضد هذا الهواء الذي لا يدع لشيء فرصة العبور. إنه سور يلفني وكأنني في سجن»²، تقرر سلطنة بأن الحاضر الذي تعيشه أضحى سجنا يخنقها.

كما يجسد الكناس الأسود وهو أحد شخصيات رواية "السيمورغ" "لمحمد ديب" حالة من الاغتراب الزماني، إذ يجسد حركة الزمن الذي ترك أثره عليه، ليحوله في الحاضر إلى مجرد جسد بلا بروح، بعد فقدته الأمل في الحياة الكريمة كما كان يعيشها في بلده «ها هو الآن متوقف هو أيضا هكذا، يتقدم مسافة صغيرة ثم يستريح قليلا واضعا يديه على بعضهما

1 - محمد ديب: السيمورغ، تر: عبد السلام يخلف، ص258.

2 - مليكة مقدم: الممنوعة، ص84.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

فوق مقبض المكنسة، سارحا بعينيه بعيدا في إفريقيا، إنا هنا في عاصمة العالم وليس في إفريقيا الظاهر أنها "يُقال" ونعرف اليوم، ها هو ينتقل أو بالأحرى ما كان عليه... إنه يشاهد الأشياء العائدة من جديد وسيقع في ورطة إذا ما حاول أخذ كل هذا¹، إنه يهرب من حاضره ملتجئ إلى الذاكرة يحتمي بها من بؤس حاضره المثلث بالإحباطات .

لقد كان الإحساس بانهزام الحاضر وكآبته مصدر ألم وعذاب للذات، التي أفافت على واقع مروع، يتسم بالرتابة والفشل، وخلوه مما ترغب النفس في تحقيقه، فها هو "نافع وليد" بطل رواية "بما يحلم الذئب" "لياسمينة خضرة" يعاني اغترابا في بيت راجا، لقد أنهكه حاضره فحن إلى ماضيه، إنه يلوذ بالتذكر هربا من راهن اللحظة التعيسة على الرغم مما توفره له من أسباب العيش، «حينما يأتي المساء أكون قد أنهكني اليوم الماراتوني فألتحق بالجنح الثاني ورأسي على وشك الانفجار، بعد أن تغلق علي الغرفة أحسُ بنفسي وقد أصبحت مجنونا حتى النوم راح يهرب من عيني، أبقى ممدا على السرير ويدي خلف رقبتني وعينا في السقف أحاول تسليّة نفسي ساخرا من الطفل الذي كنته، من مغامراته البليدة وأسراره الكبيرة دون جدوى، هناك شيء يرفض أن يدخل اللعبة. بدأت أشتاق إلى ضوضاء شوارع، إلى نداء الفقراء، إلى دفء أحبابي، في هذه الساعة بالقصبة كانت من عاداتي الصعود إلى السطح كي أتنفس الهواء أو الذهاب لدى الشاعر... هنا الصمت، الغياب البرودة تعكر مزاجي في حين يجف جسدي، وأنا أستقبل في راحة يدي رطوبة الوحدة، كانت غرفتي "العلبة" تشبه الشرنقة العميقة التي لن تهرب منها أية فراشة»².

فالزمن هنا أضحى متعبا، ثقيلًا لأنه مرتبط بمكان تكره الشخصية، ولا تشعر فيه بالراحة، إنه أشبه بالمنفى حيث يصبح الزمن زمن فقدان واغتراب وضياح، كونه يحمل معنيين متناقضين في ارتباطه بالمكان المنفى بما يحيل عليه من خوف وعدم استقرار وتعب وضياح، والوطن بما يحيل عليه من أمن وراحة واستقرار، فالحياة قد فقدت معناها في زمن

¹ – Mohammed Dib: Smorgh, p77.

² – ياسمينة خضرة: بماذا تحلم الذئب؟، تر: عبد السلام يخلف، ص 44.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

المنفى، واكتسبت معنا مختلفا تماما، بعيدا عن الناس الذين تجمع بينهم علاقات المودة والصدقة، وعن الوطن الذي يعيش في ذاكرة الذات المتشبهة به، وقد كشف تحجر الحاضر وجموده عن إحساس السارد بالزمن الذي يسير بطيئا ثقيلًا في المنفى سواء أكان المنفى داخل الوطن أو خارجه مجسدا معنى الضياع والاغتراب، وحس الفناء الذي ينخر الروح والجسد يقول حميد سلال أحد شخصيات رواية "بماذا تحلم الذئاب؟" محددا موقفه من الزمن الذي أضى ثقيلًا متعبًا عند البقاء في مطبخ بيت آل راجا: «...اسمي حميد أعمل لصالح ابن الزعيم. هيا نغادر هذا المكان لأنني أحس بشعر أبيض ينبت فوق رأسي بمجرد بقائي هنا»¹ فالراوي يقر بثقل الزمن كونه مرتبط بمكان يكره التواجد فيه.

وكما ترى "فرجينيا ولف" «فإن الدقيقة قد تصبح ساعة وقد تصبح الساعة دقيقة، متى أقام الزمن في عنصر الروح العجيب»²، فالزمن يتجسد حسيًا طويلًا ثقيلًا، لأنه يرتبط بمكان تكرهه الذات وتتفر منه، كالراهب الذي يحكي «عن ليله الطويل الموحش»³، في أرض مقدسة لكنها بعيدة عن أرضه، وكذلك المبعدون عن أوطانهم الذين «يجرجرون خطواتهم البطيئة وسنوات عمرهم الثقيلة»⁴ فهذا الوصف يجسد غربة الزمن وثقله الذي يعزف بأوتاره إيقاع النفس ويؤكد "غاستون باشلار" في هذا الصدد «أننا نرغب في تجسيد الزمن ماديًا، وفي الفواصل الزمنية التي تقيس تخلفاتنا عندما نكون مشدودين إلى ملكوت مكان مكروه»⁵. فالزمن بهذا المفهوم يتحول إلى عدو للذات، محاولًا إخضاعها وسلبها هويتها، كما أن الإحساس بالحاضر ومعاناته يولد في النفس شعورًا بالكآبة والثقل الذي يعكس رتابة الواقع ومرارته لخلوّه مما يرغّب النفس في الحياة بإيقاعها الثابت فها هو نافع وليد يعاني اغترابًا في

1 - ياسمين خضرة: بماذا تحلم الذئاب؟، تر: عبد السلام يخلف، ص47.

2 - قادة عقاق: دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر، ص320، نقلًا عن هانز ميرهوف: الزمن في الأدب، تر: أسعد رزق، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، د.ط، 1964م، ص [17، 20].

3 - مها القصراري: الزمن في الرواية العربية، ص44.

4 - المرجع نفسه، ص64.

5 - أنظر غاستون باشلار: جدلية الزمن، تر: خليل أحمد خليل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، لبنان، د.ط،

1996م، ص41.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

الزمن الحاضر يقول: «جلست في الطرف الآخر من الطاولة. يقدم إليّ الأكل بسرعة. في صمت بليغ. أحيانا يتم أخذ الأواني قبل أن أنهى أكلي. في لمحة بصر، يغادر جيرانني المكان على رؤوس أصابعهم وأجدني وحيدا وسط المطابخ، بإحساس الغربة الذي يتحول عند آخر السهرة إلى اكتئاب غائر»¹، فلا رابط بين هؤلاء الناس سوى أنهم غرباء جمعتهم ظروف العمل.

فهذه الذات التي أدركت عقم الحاضر السردى المتردى لا تركز ولا تستكين إليه، إنما تستعين بالماضي أو المستقبل في بعض الأحيان، لتكسر رتابة الحاضر وجموده، وتخلق خلخلة في حركة الزمن المنتظم، يتجسد من خلالها صراع الذات مع الزمن ضد الفناء.

2- العودة إلى الماضي (زمن الذاكرة):

يحتل الماضي في الروايات مساحة كبيرة وهامة، تغطي على الحاضر السردى الذي تضيق مساحته مقارنة بالماضي، لأنه يعد «عاملا أساسيا ومهما في تكوين الشخصية الفكرى والجسدى لما يختزنه من ذكريات ومواقف تلعب دورا مهما في التأثير على حركة الشخصية في زمنها الحاضر»² ومحاولة السيطرة على المستقبل.

فسيطرة الماضي وأهميته بالنسبة للنفس تزداد كلما اشتد رفض الذات للواقع المعاش وعدم تقبلها له، حيث يرى غاستون باشلار «بأننا لا نعترف بالواقع عندما نستغرق في الذكريات المطبوعة في النفس»³، هذه الذكريات التي تحتفي بها الذات فرارا من قهر واقعها، فالخذلان الذي يجسده (الواقع) الحاضر يدفع بالذات إلى الارتقاء في أحضان الماضي بآماله وآلامه، ليشكل ذلك نوعا من المراوغة من قبل الزمن حين يظهر في الحاضر ثم يهرب إلى الماضي بفعل الذاكرة التي يرى برجسون "Bergson" أنها «أساس الوجود وجوهره» ، فهي امتداد للماضي في الحاضر، وصيرورتهما معا لتشكيل الكيان الواحد

¹ - ياسمينة خضرة: بماذا تحلم الذئاب؟، تر: عبد السلام يخلف، ص45.

² - مها القصاروي: الزمن في الرواية العربية، ص159.

³ - غاستون باشلار: جدلية الزمن، ص14.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

حيث لا يمكن فصل الإحساس المباشر لحظة الحاضر عن الذاكرة (الماضي)¹، وعليه فالحاضر لا يحظى بمركزية الزمن واهتمامه، عدا كونه انتقال عبر الزمنين الماضي والمستقل، وعادة ينقسم الماضي في الروايات إلى قسمين ماضي سعيد متألق يجسده زمن الطفولة، وآخر أليم متعب يمثل زمن الهزيمة حيث الضياع والتهيه والتشتت في الوطن أو المنفى.

أ- الماضي البعيد: (زمن الطفولة)

وهذه المرحلة تجسد الزمن البعيد الزاهي، بذكرياته الحميمية التي علقت بالذاكرة، تلك التي تبعث في النفس الفرح لتستمد منها القوة التي تمكنها من مواجهة الإحساس بالفناء الذي يلزم الذات نتيجة انهزام الحاضر وسوداويته، فهذا بطل رواية "بماذا تحلم الذئاب؟" يتذكر زمن طفولته السعيد يقول: «...أحاول تسليّة نفسي ساخرا من الطفل الذي كنته، من مغامراته البليدة وأسراره الكبيرة»² وكذا قوله: «لا أتذكر آخر مرة سبحت فيها بالبحر، في السابق كنت بمجرد أن أضع رجلي داخل البحر حتى أثير الاستنفار مهما كانت الظروف، كانت أمي تصرخ حتى يتجمع كل الحاضرين بالشاطئ، أما أبي فكان فحورا بجراأتي وكان يدعوني جنية البحر المجنونة»³، تلك هي ذكريات الطفولة، مرحلة البراءة والنقاء تلك الفترة التي لم يحدث فيها تصادم الذات مع الواقع، لذا تلجأ الذات إلى استحضار هذه المرحلة.

أما في رواية "السيمورغ" لمحمد ديب، لم يستطع الراوي التكيف مع زمن المنفى الرديء، فاختر الرحيل بذاكرته إلى زمن الطفولة المشرق متخذا منه مفرا من شر اللحظة التي منحته الإحساس بالكآبة وبالفناء يقول: «وفي ذاكرتي ترتسم أمامي في شكل موكب من الظلال لا أكثر. هذا ظل للطفل الذي كنته... في الساعات الأولى من صباح خريفه في ساحة المدرسة التي قد جسمها من حجر وفوضاها عارمة بسبب ألعاب وصياح الأطفال

¹ - عبد اللطيف صديقي: الزمن وأبعاده وبنيته، ص35.

² - ياسمين خضرة: بماذا تحلم الذئاب؟، تر: عبد السلام يخلف، ص44.

³ - المصدر نفسه، ص98.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

الهائجين مثل شياطين الإنس وهم يدفعون بالطفل الهادئ إلى فتح عينين واسعتين منتظرين هما الإثنين... حل صمت يستعصي على الوصف، صمت قادر على تخطي الأسوار العالية، فتوقف كل شيء عن الحركة، السباقات في أوج سرعتها والصياحات في طيران واحد أخير...»¹.

فعودة الراوي إلى زمن الطفولة تعد إعلانا على تحديه للزمن بالعودة به إلى الوراء ليعيش من جديد زمنه المملوء بالرغبة في الحياة، ليظل في حالة انبعاث دائم على الرغم من تعاقب الزمن، وهذا «الزمن المستعار ليس محاولة لتفسير الماضي والمستقبل فحسب، وإنما يمثل هذا العمل انتصارا حقيقيا على شر الزمان»²، حيث يعود السارد بذاكرته إلى الماضي البعيد، بصوره العالقة بالذاكرة، تحذوه في ذلك رغبة ملحة للانبعاث من جديد في الحاضر الأليم المحاط بالملل والمعاناة.

إن اللحظة هي المحفز للذاكرة لاسترجاع هذا الماضي الفار بحيث «تقال لفظة ما تعمل على إثارة الذاكرة لتقوم بعملية استدعاء الماضي في لحظة الحاضر»³، فهي نافع وليد يتذكر ماضيه مع صديقه دحمان، فحين التقيا بعد أن تدبر له دحمان عملا، جاء ليطمئن عليه، لأنه لم يلبث في عمل قط، يقول: «أتمنى ألا تكون قد ارتكبت حماقات - لا ليس هذه المرة، أخرج تتهيدة راحة واسترخاء،

- ماكنت لأتحمل ذلك

- وأنا أيضا.

كان دحمان صديقي منذ البداية، ولدنا في نفس الشارع المغلق في مكان منسي بالقصبة أبلينا مؤخرات سراويلنا على نفس الأرصفة، وتكبدنا غضب أساتذتنا بنفس المتعة لأننا كنا نعتبر من أشرس التلاميذ»⁴، وكذا قول الراوي في رواية "السيمورغ" حينما يرى شقائق

1 - محمد ديب: السيمورغ، تر: عبد السلام يخلف، ص 185.

2 - نيقولاى برديائف: العزلة والمجتمع، ص 127.

3 - مها القصراري: الزمن في الرواية العربية، ص 203.

4 - ياسمينة خضرة: بماذا تحلم الذئاب؟، تر: عبد السلام يخلف، ص 36-37.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

النعمان: «شكرا لك يا شقائق النعمان تذكيريني فجأة ببعض الذكريات القديمة (القديمة، نعم ومن يكون قديما إلاي) منك المتوحش ومنك العظيم وبكل الألوان، منك الأحمر والبنفسجي والأزرق والأبيض، حين يأتي الربيع تتبتين في كل الحقول المجاورة لتلمسان على ارتفاع 800م، أتمنى أن تواصلني فعلتك هذه، أن تزدهري كل سنة تماما مثل النرجس وسوسن الثلج كنت دوما أحبك أكثر، كنت طفلا مجنونا بك، وكنت أجنيك حزمات حزمات لأعرف في حزن أنك تدبلين بسرعة، عرفت في صغري على أستاذ لم أكن أحد تلاميذته وكان يبدو متفتحا على الأدب، في الوقت الذي كنت يائسا أبحث عن مرشد يقرأ لي تلك الخريشات التي كنت لطخت بها الكثير من الأوراق النظيفة».¹

إن اللحظة هي التي تفجر ذكريات الماضي البعيد داخل السارد، فها هو الراوي في رواية "السيمورغ" في نص "طفولة مربية" يتذكر نفسه حين كان طفلا يذهب إلى المدرسة ويتذكر معلميه يقول: «...التعليم داخل القسم لن يكون سوى باللغة الفرنسية، وهذا ككل أتراك الصغار في كل المقاطعات الفرنسية، حتى وإن كنت تجهل بأن وجودك في تلمسان يجعلك مواطنا في إحدى المقاطعات الفرنسية...، ثم أحسست بالراحة حين اكتشفت أن الجميع، بما في ذلك تلاميذ مقاطعات "الشير" أو "لا فيرون" قد أسالوا العرق تحت وقع حصص الإملاء نفسها وكذلك نفس مشاكل الأحواض التي لسوء الحظ تفرغ أو تبقى نصف أو ربع مملوءة كي تعذب عقلك ثم ما فائدة وصولك إلى نتيجة هذا أو ذاك، وكذلك القطارات التي تتطلق في أوقات متباعدة لكنها تتقاطع في مكان وزمان لا يعلمها إلا الله»²، يواصل السارد استغراقه في الذكريات الطفولية السعيدة «كنت تسعد بالأغاني القصيرة التي تحفظها عن ظهر قلب، بما فيها نشيد "المارسييز" تماما كما يفعل نظراؤك في "الشير" أو "لا فيرون"».³

¹ – Mohammed Dib: *Smorgh*, p119.

² – *Ibid*, p187.

³ – *Ibid*, p187.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

إنه زمن الطفولة، زمن البراءة والانطلاق نحو اكتشاف كل جديد مثير، إنه زمن المغامرات التي لا تنتهي، إنها «فترة سرمدية مليئة بالحماس مهيأة دائماً للدهشة أم الاكتشافات، يعيش خلالها الطفل في نوع من الأبدية المسحورة خارج أسوار الزمن»¹ فالطفولة التي يعيشها الإنسان فوق الزمن هي وحدها قادرة على مواسة الذات ومنحها حافزاً لمواجهة الواقع المغترب والحاضر البائس.

على الرغم من أن بعض هذه الذكريات مرة قاسية إلا أنها تظل أكثر قرباً وحميمية مقارنة بمعاناة الحاضر وحزنه، حاضر تمضي أيامه متشابهة مجسدة لمعنى الضياع والشعور الدائم بعدم الانتماء إلى المكان، فينبعث هذا الماضي بصيغة الحاضر وسيتأثر السرد بصيغة الفعل المضارع الذي يعبر عن العودة إلى مرحلة الطفولة يقول السادر في رواية "السيمورغ" في نص "طفولة مربية": «...لكننا ما كنا لنبالي وإذا ما حدث وطرح السؤال بطريقة عرضية كانت أمي تجيب: نحن أتراك، تقولها بلهجة فيها غنج حين الحديث عن حالة كهذه ولكن بعد أن تم تأكيد انتماننا اليوم، لا، أصولنا نقية وكبرياء إذا أمكن، أستطيع بدوري التأكيد على أن الفرص كانت قليلة أمام أمي على وجه الخصوص كي تكون كذلك أناؤكد هذا دون امتلاكي لأي دليل لكن لا دليل أيضاً في وقائع مسيرة أسرتنا ليدعم تصريحاتها ماعدا... ما يخص أبي الذي قد يكون تركياً بالنسب وليس بالولادة، ما تزال ترن في أذني بعض الحكايات التي تؤكد الأسطورة أو الحقيقة، الصفة المربحة، تلك التي تمنحهم انتماءهم التركي كبقية سكان مدينة تلمسان، مدينتنا التي ما عرفت عنها سوى ما يروى من حكايات، ما سمعتها تتحدث إلي»².

فهذا هو الزمن المفقود زمن الأم والموطن الذي يحيا في ذاكرة الذات التي تستعيده ليكون المفر الحقيقي والملجأ من غربة الحاضر وعدميته. فتتآلف معه، ليملأها بشعور الألفة والوداعة ويعيدها إلى حضن الأم الوطن الدافئ.

¹ - قادة عقاق: دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر، دراسة في إشكالية التلقي الجمالي للمكان، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، ط1، 2001م، ص371

² - Mohammed Dib: Smorgh, p186.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

ب- الماضي القريب:

يشكل هذا الماضي الأليم منعطفا حاسما في حياة البطل الذي شهد تحولا جذريا وفاصلا بين زمنين (الوطن _ الاستقرار)، والمنفى (الضياع)، بين ماض ولى ورحل لا وجود له إلا في الذاكرة، وحاضر تعيشه الذات واقعا في المنفى، حيث يستحضر الراوي أحداث هذا الماضي الذي يجسد حكايته وحكاية شعبه يقول الراوي في رواية "شرف القبيلة" لرشيد ميموني: «...نعم الآن سأحكي لك ما حدث لوردية، أخت عمر المبروك، هذه التي بدا أنه نسيها تماما، يجب أن أقول لك: إن ذكريات تلك الأحداث لا تزال توقظ في أوجاعا شديدة.

فبعد ذهاب مجموعات المراهقين إلى الجبل كنا رأينا رأس البصلة وصل إلى ساحة التين يوزع ضحكاته، كان مصحوبا باثنين من الزبانية مسلحين بالبنادق، إن المهمة التي كلفه بها الملازم أول كانت قمة ابتهاجه، وأمر بفرح مأموريه بأن يذهبا ليخرجا، من أي مكان كان الرجال المبحوث عنهم والإتيان بهم إلى الساحة بالبنادق، وبعد حين كانوا جمعوا قريبا من الساحة حيث كنا، عاينا أن المعنيين كانوا آباء وإخوانا لمن التحقوا برجال الليل وأعلن رأس البصلة بعد تأمل طويل، بين ضحكتين: ينقص اثنين...

أوكلت المجموعة إلى الحركيين الذين قادوهم إلى ملحقة لاصاص، ولكن الرقيب بقي ثابتا مواصلا تنكيدنا... ولانا ظهره كي يختفي في زقاق، رجع بعد لحظات يجر وردية من ذراعها، كانت تتعارك مثل عفريتة بينما زوجة عيسى كانت تضرب ذلك الشرس اللامبالي وتسبه.

شعورا منهم بالنقمة فإن الحضور قاموا وبدأوا في الإحاطة بالفاسق...ابن الكلب. خل البنت في حالها»¹.

¹ – Rachid Mimouni: L'Honneur de la tribu, p139.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

فهذه النقطة تعد من أبرز المؤشرات الزمنية التي حفظتها الذاكرة وعادت معاشتها واستحضارها في الحاضر ومحاولة فهم أحداثها واستيعابها، فهي تعبر من خلال هذا الماضي عن واقع تاريخي وسياسي يجسد معاناة الجزائريين خلال فترة الاحتلال، وهو الماضي الذي تهرب منه الذات لكنه يلاحقها، هو الزمن الذي تحول بعده الوطن إلى صورة ترويه الذاكرة.

وكذا فعل "جورجو" وهو يحكي عن ذكريات تجنيده الإجباري «لم يكن جورجو قد احتفظ من مغامرته العسكرية الإجبارية سوى بتذكّار مهانة ملتبس، فوضى لا توصف وتسكع من عراء إلى عراء، من مركز إلى مركز، من ثكنة إلى ثكنة، وانتظارات متوالية، الحمل على الظهر، السلاح عند القدم، ولغط من الأوامر والأوامر المضادة»¹.

وما يمكن قوله حول اغتراب الذات في الزمن هو أنه ظهر عبر الالتواءات الزمنية المختلفة التي تشتت معها هذه المادة المعنوية المجردة-الزمن-وجعلتها بلا ملامح في بعض الأحيان، أو سامية شامخة ارتقت عبر تقنية السرد الاستشراقي أحيانا أخرى، فتحن الذات إلى الماضي تارة ليقص من عمر الحاضر، لأنه بات معدما خاليا من نبض الحياة الحقيقية بما فيها من استقرار من أجل تحقيق الوجود، فاغتربت الذات عنه، وراحت تتشد ماضي تتنفس من خلاله.

¹— Rachid Mimouni: *L'Honneur de la tribu*, p13.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

المبحث الثالث: الاغتراب المكاني

إذا كان الزمن يعد جوهر الذات الإنسانية فإن المكان هو الآخر يحظى باهتمام الذات، نظرا لدوره المهم في حياة الإنسان، لا كموضع يمارس فيه حياته فحسب، بل يحاول من خلاله مزج كل تلك العوامل التي تشكل حياته من أحداث وشخصيات، ليحقق شعوره بالوجود، فهذه الأهمية للمكان انعكست في العمل الروائي، الذي جعل منه مكونا أساسيا له فأولاه الدارسون عناية فائقة، حيث تجاوزوا فيه المفهوم الجغرافي المتعارف عليه، إلى أبعاد ودلالات إنسانية أخرى إذ يعرفه ياسين النصير: «بأنه الكيان الاجتماعي الذي يحتوي على خلاصة التفاعل بين الإنسان ومجتمعه، لذا فشأنه شأن أي نتاج اجتماعي آخر يحمل جزء من أخلاقه وأفكار ووعي ساكنيه»¹، لذلك بدى المكان مرتبطا بالمجتمع بين الإنسان وأرضه التي يعيش فيها؛ فالمكان المعيش هو سبب وجود هذه العلاقات الإنسانية وبالتالي خرج المكان من صورته الساكنة إلى الصورة الحركية.

أما "ابن السائح الأخضر" فقد أضفى عليه بعدا نفسيا حيث يقول إن: «المكان النفسي يعبر عن العناصر الوجدانية للإنسان، كما أنه مكان منتج خلاق يساهم في بلورة المعنى، وخلق من جديد في صورة تتفق مع المعنى المقصود، ولا يبقى محايدا بل يساهم في الإلمام بجميع الجوانب المحيطة بفضائه ثقافيا وسياسيا واجتماعيا»²، لأن المكان النفسي يخلق من خلال حاجات النفس؛ أي من خلال الحالة النفسية التي يكون عليها الراوي، فكل ما ينجم عن الإنسان من مشاعر، يمكن أن يكون لها دور مساعد في خلق الأماكن التي كانت الذات الإنسانية بحاجة ماسة إليها، مسهمة بذلك في إتمام المعنى المراد إيصاله.

¹ - ياسين النصير: الرواية والمكان، دراسة المكان الروائي، دار نينوى، دمشق، سوريا، ط2، 2010م، ص70.

² - الأخضر بن السائح: جماليات المكان القسنطيني في رواية ذاكرة الجسد (دراسة نقدية تحليلية)، دار الأديب، وهران، د.ط، د.ت، ص 13-14.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

ومنه نلاحظ أن المكان يظهر جليا وفق سطوته على نفسية الشخصية، حيث تشعر الذات في المكان الضيق بمعان غير منسجمة، لأنه يوحي بالاختلاف واليأس وتشعر في المكان المنفتح بالحرية والراحة.

أما "باشلار غاستون" "Gaston Bachelard" الذي سلك نفس النهج في تجاوزه المساحة الجغرافية المجردة للمكان، وذلك بإعطائه بعدا فنيا من خلال قوله: «إن المكان الذي ينجذب نحوه الخيال، لا يمكن أن يبقى مكانا لا مباليا ذا أبعاد هندسية وحسب، فهو قد عاش فيه بشر ليس بشكل موضوعي فقط، بل كل ما في الخيال من تميز، إنا ننجذب نحوه لأنه يكشف الوجود في حدود تتسم بالجمالية في كامل الصور، لا تكون العلاقات المتبادلة بين الخارج والألفة متوازية»¹، وهو بهذا الوصف يبتعد عن الحدود الهندسية، ليلج بعدا إنسانيا عاما حيث يزوج هنا الواقعي بالخيالي، مشكلا بذلك مكانا متحدا داخل مكان واحد بمعنى أن الروائي حينما يتناول مكانا معينا، فإنه لا يصوره بصورة فوتوغرافية مجردة، وإنما يضيف عليه لمسة فنية تخيلية تمنحه صفات مجردة، ليكشف أبعادا إنسانية.

فغاستون باشلار «يؤسس رؤيته للمكان في الأدب على أنه مجموع الصور الفنية التي تثير الذاكرة وتعيد الماضي، أو هو مجموع قيم يختزلها العقل الباطني، ثم تصبح هي القيم المسيطرة»²، هو إذن يؤسس رؤيته للمكان كصورة فنية تفعل العلاقة بين المبدع والمتلقي من خلال إبداع الراوي في رسم المكان.

فالمكان إذن حيز «روائي جوهري يتخذ أشكالا وتصورات ويتضمن معاني عديدة وفي غالب الأحيان يكون الهدف من الرواية بأكملها»³، مما يسمح لهذا الحيز بالتجلي في أنماط مختلفة لكل واحد منها وظيفته الخاصة، فقد تكون إيحائية تلميحية أو تصريحية وبذلك

¹ - الشريف حبيلة: بنية الخطاب الروائي (دراسة في روايات نجيب الكيلاني)، ص 190.

² - غاستون باشلار: جماليات المكان، تر: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1984م، ص 31.

³ - أوريدة عبود: المكان في القصة الجزائرية الثورية، دراسة بنيوية لنفوس ثائرة، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، د.ط، 2009م، ص 34.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

ينتقل من وضعية الثبات والسكون، إلى الكينونة المكانية المفتونة بحركة الحدث اللصيقة بالشخصية.

ولقد وقع النقاد والدارسون في تعارضات بشأن ضبط التسمية، فمنهم من فضل الحيز، ومنه من آثر الموقع ومنهم من واجهه بمصطلح البقعة وهناك من ذهب إلى تسميته بالفضاء، إلا أنه ثمة اختلاف بين المكان والفضاء فهذا الأخير «أوسع من المكان، وهو مجموع الأمكنة التي تقوم عليها سيرورة الحكي»¹، فالعلاقة بينهما هي علاقة الكل بالجزء وكل منهما ضروري لوجود الإنسان في الواقع وهو ضروري لتوفر عناصر السرد داخل الرواية بما فيها الزمن والشخصية التي تتحرك فيه وتمارس أفعالها وحياتها فيه.

وأبرز تقاطب مكاني والذي لا يكاد نص روائي يخلو منه هو المكان المفتوح/ المغلق حيث أن المكان المفتوح هو: «حيز مكاني خارجي، لا تحده حدود ضيقة يشكل فضاء رحبا وغالبا ما يكون لوحة طبيعية في الهواء الطلق، والمكان هنا يقوم بوظيفة إيحائية على أساس أنه مرتبط بوقائع وشروط معينة»²، فهو فضاء فسيح يمنح الإنسان الحرية والشعور بالحياة. أما المكان المغلق فهو نقيض الأول، فيصبح بذلك «حيزا داخليا وتحده حدود ضيقة ويقاس بغيره»³، فانغلاقه يشعر المرء بالضيق والانزعاج.

ومن هذه الأماكن التي مستها ظاهرة الاغتراب المدينة، الشوارع، القرية، وهي أماكن مفتوحة والبيت، المقهى وهي أماكن مغلقة.

وعلى الرغم من تداخلها وتشابكها مع بعض، إلا أن الروائيين تمكنوا من إظهارها في قالب فني مفعم باللمسات والآثار الاغترابية.

¹ - روزوماري شاهين: قراءات متعددة للشخصية، دراسة تطبيقية على شخصيات نجيب محفوظ، دار مكتبة الهلال، مصر، ط1، 1995م، ص41.

² - أوريدة عبود: المكان في القصة الجزائرية الثورية، ص51.

1- إحياءات المكان الاغترابية:

أ- إحياءات المدينة:

تعد المدينة «مسكن الإنسان الطبيعي، شأنها في ذلك شأن كل تجمع بشري مثل القرية أو البادية»¹، فهي نمط مميز من الحياة الاجتماعية والإنسانية، كما يمكن اعتبارها أيضا ذلك «المكان الإنساني الأفضل، المبني لسعادته، ولقد كان تكوينها بطيئا في المراحل الأولى، ثم تقنيا حثيثا في مراحل متأخر، أوجدها الناس لتكون في خدمتهم وعلى مستواهم وأوجدوها لتتناسب أذواقهم ومشاريعهم، ولتساعدهم على العيش وتطمئنهم وتحميهم من العالم المناوئ ومن أنفسهم»²، لذلك سعى الإنسان للاستقرار فيها على غرار باقي الأمكنة الأخرى من أجل التجدد والاستمرارية.

فالمدينة تحتل حيزا كبيرا في الرواية الجزائرية المعاصرة، بحيث حازت اهتمام الروائيين، فبدت في بعض النصوص مجرد نسيج جغرافي بما تقدمه من تجارب واقعية حية «إلى جانب الجمالية التي توفرها، والقيمات التي احتشدت في تلك الفترة، فكان الروائي الجزائري مسكونا بالحياة الثقافية والسياسية الجزائرية في فترة معقدة من تاريخ العلاقة بين الأعراف السياسية في تسعينيات القرن العشرين»³.

وفي هذا الصدد تقول يمنى العيد: «ما نسميه بنيانا مدنيا وحضاريا يخص الآلة والعمارة والتسويق ومراكز المال والتصنيع، ويدخل في مجال تحديث المجتمع وعدم مركزيته، كان يتهدم، أو ينفرط وما نسميه حداثة تخص التعبير والفكر والكتابة والإبداع والقيم، وتدخل في مجال البنية الثقافية التي كانت تشكل، أو تحاول تشكلا نوعيا، هو في سياق استمراريته ارتباك وتصدع وصراع يعاند اختلافه، ولكنه إنبناء وحضور في مادة

¹ - علي العلوي: الذات المغتربة والبحث عن الخلاص الشعر المغربي المعاصر أنموذجا، دار الوطن للصحافة والطباعة والنشر، الرباط، المغرب، ط1، 2013م، ص159.

² - قادة عقاق: دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر، ص21.

³ - الشريف حبيلة: الرواية والعنف، ص59.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

كتابية...وبفعل هذه المفارقة بين الواقعي والكتابي، كانت الهوة تبدو واسعة، لا على خلفية التمايز، بل على خلفية الفراغ بين المجالين:

- فالبنيان التحديثي وكل ما ينسب إلى المدينة التحتية يهدم.
 - والثقافي يصارع تحوله، ينبني قوله فوق خراب واقعه المادي.
- وفي المجلد فإنه يمكن القول إن حاضرا زمنيا يغيب مخطيا مكانه لصورة وتحاول أن ترتسم¹.

فتقديم المدينة في النصوص الروائية لا يكون كما هي عليه في التعريف النظري، وإنما تقدم بتحميلها مشاعر إنسانية بفضلها يمكننا التعرف على طبيعة الأشياء والموجودات، حيث يتم إدراك المدينة على مستويين، مادي، وقيمي أخلاقي.

إذ تغيب المدينة في صورتها المعروفة، كمركز للانفتاح والتحرر والتحضر لنجد أنفسنا أمام مدينة أخرى تعاني الاختناق على الرغم من انفتاحها وذلك بسبب الوضع الاجتماعي القاتل، الذي أعلى من شأن المادة فجعلها حجر الأساس في سلم القيم، مما دفع بالمرء إلى تقديسها، وبذل النفس من أجلها، فتحول بدورها إلى سجن ينغلق على أهله جاعلا إنسانية الإنسان تتقهقر، محدثا القطيعة النهائية بينه وبينها.

تحضر المدينة في المدونة الروائية المعاصرة بكثافة، حيث تنتقل كثافة «حضور المدينة المكان إلى مستوى الوعي، وتجرده من ماديته الجغرافية أو الهندسية، تحمله اللغة فيها تبرز وجهة نظر الكاتب للعالم، كما تبني بنية دلالية يكشف عنها النص»²، بمعنى أنه يحمل أبعادا دلالية كثيرة.

لقد طغى الشعور بالاغتراب على الشخصيات التي تقطن المدن إذ لم يعد واقع المدينة مفهوما بسبب تعقده، فقد أضحى التعبير عنه إشكاليا، كونه لا يقدم جغرافية لمكان حضاري، «يصدم القارئ ويكسر أفق انتظاره»³، يحول يوميات الإنسان إلى إشكال يخص

¹ - يمنى العيد: الكتابة، تحول في التحول، دار الآداب، بيروت، ط1، 1993م، ص39.

² - الشريف حبيلة: الرواية والعنف، ص 59، 60.

³ - المرجع نفسه، ص60.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

وجوده داخل المدينة، حيث يقول الراوي في رواية "بما تحلم الذئاب؟": «اختفت بهجة الأرصفة وراحت السطوح تجمع تفاصيل ألفتها، ما عاد من الممكن رؤية الأزقة وهي تسبح في الضباب، وداعا للشواطئ والتحايل والاسترخاء. مدينة الجزائر من دون شمسها تغدوا حكاية حزينة».¹

فهذا المكان لم يبق كما كان، فقد أصبح مكانا غريبا تشعر فيه الشخصية بالوحشة والرغبة، مكان يضع الذات موضع الحرج والضيق يقول الراوي: «فضل نافع الصمت وغاص في ضيق الشارع الملتوي الذي تتحدر سلالمه بثقوبها ولمعان مائها الوسخ نحو أساسات البنيات، أكوام الأوساخ التي تحرقها الشمس وتحاصرهما أسراب عجيبة من الذباب تعفن الجو، بعض الأطفال الذين لم يبد عليهم أي انزعاج من الروائح الكريهة راحوا يلعبون مع جرو انتهى أجله، بفمه المفتوح أكثر من اللازم ومنخريه الطافحين بالحشرات، أصبح من النادر رؤية الكلاب أو القطط تغامر داخل الحي، لعدم وجود ساحات تمكن الأطفال من ضرب الكرة، فإنهم يكتشفون في ذواتهم نزعة التحول إلى جلادين، في بعض الأحيان يكون المشهد من القسوة بمكان حتى يكاد يحدث سكتة دماغية لدى الشيوخ».²

فتحول المكان (المدينة) جعل الراوي يشعر بالضيق في مدينة كهذه، مكان يضيع فيه هو، لأن المكان هو نفسه قد ضاع وضاعت ملامحه القديمة، تيه وضياح تلك التي يشعر بها وليد الآن، إنه يحس أنه غريب عن هذه المدينة.

وهذا "محمد ديب" في رواية "السيمورغ" في نص "غابات المعنى" يقر بغربته في مدينة باريس على الرغم من طول مدة مكوثه فيها إلا أنه بقي غريبا عنها يقول الراوي: «لا أحد تسكع بقدر تسكعي في شوارع باريس ولا أحس إحساسي بسحر (قليلًا) الضياح واليأس الصعوبة هي أن تحن لباريس وأنت تتجول في شوارعها، من الأكيد أن المتجول يحمل في

¹ — Yesmina Khadra: *À Quoi rêvent les loups*, p67.

² — *Ibid*, p98.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

قلبه هذا اليأس الضبابي، كان بالإمكان ألا يكون هنا في هذا المكان»¹، فالمدينة لم تمنح الشخصية الراحة والطمأنينة ولكن منحتها شعورا بالغربة واليأس.

صورة أخرى لتلك المدينة التي يحيا فيها نافع وليد، مدينة أصابها التحول، وتسربت برداء الوحشة لتعكس سلبا على قاطنيها، وتدفع بهم إلى استدعاء صورة القصة الرابضة في الذاكرة، التي يحملها الراوي والحزن يعتصر قلبه، يسترجعها ومحاو لا التخفيف من ضيق مدينة الحاضر، والتخلص من الاختناق الذي ملأ روحه يقول: «حين كنت طفلا، كنت أحب الصعود مساء إلى حيث كنيسة "السيدة الإفريقية" كي أتوحد مع الخليج والبواخر الراسية في الميناء زقزقات الأطفال المارقين تحلق حولي مثل طيور مجنحة، يبدو أن نظري يذهب أبعد من أفكاري وأنه بإمكان العالم الذي عند قدمي أن يحرض دوما على الحلم، انتظرت كي أكبر وأقطف أشجار الدفلى التي انتشرت في المدينة وغطتها بكاملها.

جلست على السور الحجري الصغير أتنفس باستزادة، فرحا بوحدي وبعدم إزعاجي لأحد، بعد أن امتلأت بالآفاق المبرقشة، عدت كي أحضن بصمتي القصة العتيقة الرابضة في الأسفل بسهلها الموحد في دور مجففة الغسيل وخليط سقيقاتها المشابه لكومة من الغسيل...الرأس بين اليدين والقلب مثل قبضة في عرض الصدر وأنا ضائع داخل أفكاري كان يجب أن أختار نهائيا الحرارة الننتة التي تصعد من سراديب البناءات تضيع عليا التركيز شيء بداخلي لا يجيب، في لحظة وددت لو أختفي بحركة من عصا سحرية، أن لا أكون هنا بالمرة فجأة... خلفي، تراصت مجموعة من الشبان تحت رواق منزل يغنون لبعضهم بعضا أحد ألحان "الحاج مريزق": أفقرهم جميعا يعرف ببراعته وها هو يخدش قيتارته بيد ليس لها من عزاء، حينما التقت نظرتة المعذبة بنظرتي، تدارك نفسه هنيهة ليحك رقبتة ودون سابق إنذار صرخ بأعلى صوته أبيات من قصيدة لسيد علي راح يلاحق رويها بضربات نوتات متفجرة:

حين يتخلى الحلم عن الشارع.

حين ينصرف الأمل.

¹ – Mohammed Dib: Smorgh, p71.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

حين تضيع السماء نجومها.

حين يغدو كل شيء بلا معنى.

يبدأ بالنسبة لي ولك.

يا أخي.

السقوط في الهاوية»¹.

هي إذن الحالة كل ما فيها يبين حالة الضياع والتهيه والحزن والأسى، إنها المرارة التي يتجرعها جراء ضياع كل شيء الفرح، الأمل، المدينة، الحب، ليجد نفسه يسقط في الهاوية كما قال الشاعر سيد علي.

تشير الفوضى التي صارت إليها المدينة إلى عدم تمكنها من امتصاص التغيير المفاجئ الذي نزل عليها كالصاعقة، كأن الناس وهم على هذه الحالة يعيشون زمنا آخر «ويؤرخون لحقبة جديدة لكنهم غير فاعلين يرزخون تحت تأثير الغير»² يقول الراوي: «بعد برهان القوة الذي مارسته السلطة، استفاقت القسبة على ترنج، غير قادرة على تحديد موقعها، عادت المساجد صامته والشوارع مصدومة والمناضلون الضالون يهيمنون داخل الضباب مترددين، مشككين مستعدين للانسحاب بمجرد سماع صفارة الإنذار»³.

لقد مثلت المدينة للذات مكانا صادما، بما يحمله من قسوة العنف، مما دفع الشخصيات إلى الاغتراب عنها وهم فيها، إنهم يحلمون باستبدالها والخروج منها، لأنها لم تعد تمنحهم الأمن والاستقرار، لأنها دمرت بسبب ما فيها من عنف؛ وكذا لأن الموازين فيها قلبت فلم تعد مكانا للعيش وإنما هي مقبرة الذات بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

ب- إحياءات الشارع الاغترابية:

لقد تمكنت الرواية الجزائرية المعاصرة من نقل صورة واضحة عن الشارع الجزائري وقت الأزمة، حيث راحت «تسجل تفاصيل المأساة، تحاول الإمساك بخيوطها المتفرعة

¹ – Yesmina Khadra: *À Quoi rêvent les loups*, p86-87.

² – الشريف حبيلة، الرواية والعنف، ص67.

³ – Yesmina Khadra: *À Quoi rêvent les loups*, p122.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

والمتشابكة التي كانت وسطا مناسباً لاحتضان العنف المتنقل في الطرقات، ينضاف الشارع ساحة أخرى للعنف الذي لا يكتفي بمكان واحد»¹، وإنما يتعدى إلى أماكن أخرى.

فالروايات الصادرة في هذه الحقبة لم تهتم بهندسية أو جغرافية الشارع إنما راحت تأخذ منه ما يعزز صورة العنف والقهر في مكان مفتوح، حيث أنها عملت على تقديمه من منظور نفسي متأثر بأحداث تلك الحقبة، وكنتيجة «لوعي الشخصية به من خلال تعاطيها معه، فلا نعثر على ذلك الشارع الذي قرأناه في الرواية الواقعية بطرقه ومحلاته وعماراته، إنه شارع يختزل في كلمة واحدة ذات دلالات نفسية»²، أي أنها ركزت على تأثيره في النفس.

فالشارع يرث مشاعر وأحاسيس الشخصيات، خاصة المرارة والشعور بالقهر، لذا يأخذ الشارع بعدا دلاليا للتمزق الداخلي موحيا بما تعانيه الروح من ألم وحسرة جراء البؤس والتهميش الذي تعانيه الشخصية، يعبر الوضع الاجتماعي عن الزيف الاجتماعي الذي يصعب تغييره يقول الراوي في رواية "بماذا تحلم الذئب؟": «غادر نافع مكان رشيد دراق بغصة في حلقه، لم يصل بعد منتصف النهار ومع ذلك أحس بأنه منتصف الليل، سيارتان تحترقان في إحدى الساحات، واللهب، تبعا لانتفاضته، راح يلحس أغصان شجرة معطوبة كانت الطريق عامرة بالأحجار المكدسة وزجاج القارورات المهمشة والقطع الحديدية وبقايا إطارات العجلات المحترقة... في نهاية الشارع، مرت جماعة من الأطفال المشاغبين بسرعة جنونية في إثرها جماعة من رجال الشرطة، بعيدا، تسمع طلقات نارية، غاضبة أحيانا وهاربة أحيانا أخرى في بعض الأماكن غطت كثافة الدخان السماء وأدخلت المنازل في ظلمة خانقة الشاحنات العسكرية تطن في كل الاتجاهات مهشمة كل الحواجز الواهية التي وضعت على عجل في الشارع، تجري عربات الإسعاف وراء بعضها البعض في جوقة تصم الآذان»³.

¹ - الشريف حبيلة: الرواية والعنف، ص 38.

² - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

³ - Yesmina Khadra: *À Quoi rêvent les loups*, p135.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

فالمكان الذي نحسبه واسعا فسيحا، يتحول إلى قيد يحاصر نافع، فهو عبارة عن نقطة سوداء كالحة، حيث ضغط عليه وحاصره ليشعره بالقلق والتوتر، فهذه الصورة المقدمة من طرف الراوي ترسم حالة الاغتراب العيشية التي تغرق فيها شوارع وأحياء المدن من خلال ما فيها من تناقضات تتضاف إليها حالة الفوضى التي تطبعها.

فكل العوامل تضافرت وتجمعت الأسباب، الفقر، الظلم، التهميش لتأذن بمرحلة دامية يشهدها الشارع «طلقات الرصاص في الشارع، بمراى ومسمع من الأمة»¹، وكذا قوله: «...راح الدخان يلف البنايات في أوشحة سوداء، يرتد صدى الرشاشات على الحيطان ويلعلع مختلطا مع الجلبة مثل صراخ حية مسعورة...عربة أمنية بواجهة زجاجية مكسورة ودواليب عجلات لا هواء فيها تقدمت وجلة في زاوية من الشارع، ضربتها زجاجة كوكيتيل مولوتوف ضربة قوية، انتشرت النار في العربة التي قفز من داخلها شخص وهو يصرخ شبيه شعلة من النار»².

ففي هذه الشوارع يمتد العنف والبطش، تنزل «الأحذية الثقيلة والعسكر والسلطة إلى شوارع يسيل فيها الدم، وتلتقي الحشود رافعة أصواتها ثم تشعل فيها الحرائق، مجموعات من الثائرين تقابلها حشود الشرطة تملأ بقع الدم المكان»³ ويقول الراوي: «في الخارج كانت الأمور أفظع، استمرت تجمعات الإسلاميين الذين احتلوا الساحات العمومية والملاجئ والمساحات الخضراء النادرة...منعت الحركة في الشوارع، أما السواق المتدمرون فيلحقهم السباب أو حتى الرجم، يتمتع أفراد ميليشيات التيار بهذا العمل، كل ما حدث من شأنه أن يثير غضبهم الويل لمن تسول له نفسه تقطيب الحاجبين...بعد كل لحظة تأتي نداءات للتجنيد، وبعد كل تهديد تأتي المناوشات، بين مسيرتي احتجاج يأتي حدث بسيط كي يؤدي إلى اتفاق الجميع بحيث تدفع الفاتورة من طرف أولى ضحايا الأصولية...عم الخوف تدريجيا»⁴.

¹ – Yesmina Khadra: *À Quoi rêvent les loups*, p149.

² – *Ibid*, p132-133.

³ – الشريف حبيلة: الرواية والعنف، ص 47.

⁴ – Yesmina Khadra: *À Quoi rêvent les loups*, p121.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

إذن يصبح الشارع مخيفاً بما أحيط به من عوامل الرعب، التي أوجدها العنف، فحوّل هذا المكان المفتوح إلى مكان مغلق على الشخصيات، ليزيد من حيرتها ومن إحساسها بالاغتراب عن هذا المكان.

فالشارع في هذه الروايات صار مصدراً للخوف والقلق وتوغل المأساة، ليحكم اللامعقول، تجسده صور العنف الممارس من هذا على ذلك، ومن ذاك على هذا، عنف يضع الشارع على حافة الجنون، يزحف الرصاص لينشر الموت على الأرصفة، يطمس معالم الأمن، ويتراجع الناس ليفرغ الشارع من الحركة، وينتشر الذعر «حرارة ملتهبة تحرق أسافل الحي، يتقدم نافع بحذر بسبب المارة الذين عجت بهم الطريق... فجأة، دوي انفجار... ثم اثنان تردد صدهما بالشوارع الضيقة في سلسلة من البصاق المتكرر، مع الطلقة النارية الأولى تجمد الحشد، مذهولاً، موقفاً بذلك كل الصخب، مع الطلقات الأخرى الموائية تفرق الجمع من الساحة في مشهد يعجز عن الوصف، في أقل من دقيقة، لم يعد هناك شخص واحد... تمتد على الرصيف رجل وجهه نحو الأسفل ورأسه مهمشة».¹

هي إذن الصورة التي رسمتها الرواية في زمن العنف للشوارع، شوارع عجت بمناظر الموت والرعب، شوارع خلت من مشاهد الألفة والأمن، ولم يبق فيها سوى الإحساس بالضياح والنتية والاغتراب.

ج- إحياءات القرية الاغترابية:

تسجل القرية حضورها في النصوص الروائية الجزائرية المعاصر بدلالاتها الاجتماعية والسياسية، ترمز للوطن أحياناً، حيث «يكيف السرد حضورها في المستوى اللساني متناثرة عبر النص لتحتضن الموقف الدرامي الذي يعيشه المكان في مستويين، المستوى الاجتماعي الناتج عن القهر، والمستوى الأمني حينما تحولت إلى فضاء»²، تنتهك فيه الأعراض وتسلب فيه الحقوق وحضورها في الرواية باعتبارها أكثر الأمكنة تعرضاً للعنف بكل أنواعه.

¹ - Yesmina Khadra: *À Quoi rêvent les loups*, p148.

² - الشريف حبيلة: الرواية والعنف، ص49.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

ويمكن تعريف القرية بأنها «مكان شبه مغلق معزول، يفتقر لأبسط المرافق، لذا يكون إيقاع الحياة فيها سكوني نمطي متكرر، قلما يتسع أو يتغير أو ينفتح، لكنه يخترق والاختراق هو عنصر الحركة الرئيس الممثل لإمكانية إحداث التغيير»¹، لأن الحركة دليل على التغير.

وتتجسد سكونية الحياة ورتابتها في الصورة التي يطالعنا بها الراوي في رواية "شرف القبيلة"، لنقف على مكان ينغلق على نفسه مستسلما للسكون «بلد يقع في قعر العالم ولدرجة إيغاله في الديمقراطية، فلا يحتاج إلى رئيس دولة»²، هي إذن قرية الزيتون المهملة، فهي تقع في مكان محجوب فصلها عن العالم والمدينة.

تتكرر هذه العناصر بصورة مغايرة لتعبر عن حال القرية وطبيعة الحياة فيها، يختزلها الراوي في قوله: «كل شيء بدأ بشهر يوليو قهر قيضه الإنسان والحيوان. إن العجزة من رجالنا الفارغين من كل شغل يظلون خلال يومهم يزحفون من ظل إلى آخر، محاولين الاحتماء من أشعة الشمس الأشد قسوة من لسعات الزنابير، الحرارة تجعلهم في حالة من التراخي، لا تسعفهم حتى على تبادل الحديث...وفي الواقع فإنهم يقللون هادئين تحت أشجار الزيتون ولا يستفيقون تحت لسعات الشمس، إلا ليزحفوا نحو الظل الذي انتقل، إذن الذباب نفسه كف عن التحرش بالأحياء، ولا شك أنه خامد في مكان أكثر لطفاً.

كان الزوال والقرية تبدو تحجرت»³، إنه مشهد يؤكد عزلة القرية، وما يعانيه أهلها في استسلام، فكل ما فيها يدفعك للإحساس بالغربة والاغتراب.

هاته القرية الساكنة سكون أهلها، كونهم لا يعرفون المراكز الكبرى التي تقضي على بطالتهم، فكل واحد منهم يزاول مهنته المتواضعة، والتي تمثلت أغلبها في الفلاحة، باستثناء البعض، فهذا جورجو أحد شخصيات الرواية وصاحب متجر متواضع «جورجو الذي تولى

¹ - الشريف حبيلة: الرواية والعنف، ص 49.

² - Rachid Mimouni: L'Honneur de la tribu, p88.

³ - Ibid, p10.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

عن دكانه الذي اجتاحتته جحافل الذباب»¹، إذن كل ما في القرية يبعث النفس على النفور والتفرز منها.

لقد مثلت القرية إلى وقت قريب رمز الأمن، ورمز «الأم الحانية على أبنائها»²، غير أن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لولد علي، الذي عاد إليها بدون روح، بعد أن التحق بالمدرسة الأجنبية، ليعود إلى قريته فيصبح الوسيط بين القبيلة والعالم الخارجي، خاصة وأنه التحق بالقرية بصفته مكلفا بالبريد، أي بريد ما دامت «الرسائل القليلة التي يضع عليها خاتمة، كانت مكتوبة من طرفه، بطلب باعثيها، الذين يجهلون كتابة الرومي، وهذه الخطابات القصيرة، كانت تكتفي عامة بطلب التوصل بحوالة من الابن المهاجر بفرنسا»³ فولد علي لا يشعر بالارتياح في هذه القرية، لا يحبذ العيش فيها، إنها تشعره بالملل، ينتابه فيها الإحساس بالاغتراب عن كل شيء حتى العمل الذي منح له لم يزد إلا نفورا ومللا ليس هناك شيء يبعث على الفرح كله خمول وسكون، لا راحة فيه للانبعاث والتجدد والحركة.

لم تعد القرية ذلك المكان الآمن، الذي يبعث الراحة في قاطنيه تتحول إلى مكان آخر كله ألم ومعاناة، يبدأ ذلك بزيارة الغرباء «والملاحظ من الحوادث، قدوم أجنب مزيفين، إذ لم يكن من عاداتنا استقبال أجنب، ولم نعرف غير بعض الشيوخ المرضى الذين يتعاملون معنا كنحل يأتون لدراسة عاداتنا وتقاليدينا.

كان الفضوليون يقضون أياما بكاملها تحت الشمس ينظرون كيف نعيش وبما أن إدارة الجماعة هي من بعثهم، فقد عرفنا كيف نتجاهلهم، على الرغم من حسن الضيافة»⁴.

فعبارة أجنب مزيفون تدل على أن ما سيلحق القرية من تبدل وتحول ليس من فعل أبنائها وإنما الفاعلون هم قوم غرباء جاءوا ليغيروا حياة القرية، أنهم مبعث القلق، لأن القبيلة

¹— Rachid Mimouni: *L'Honneur de la tribu*, p15.

² — الشريف حبيلة: الرواية والعنف، ص52.

³— Rachid Mimouni: *L'Honneur de la tribu*, p15.

⁴— *Ibid*, p29.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

تعرف ما سياتر تب عن قدومهم يقول الراوي: «كانت قريتنا ملحقة دائما بالقرية المجاورة، ففي الفترة الاستعمارية كانت إدارة الجماعة المختلطة راضية على أدائنا للضرائب، ومن ثم، فهي لا تحاول حشر أنفها في شؤوننا...وبقينا نتمتع بامتياز حرية خاصة...إلا أنه وبعد شهور على الاستقلال جيء لنا من بعيد بمن يخبرنا بأننا سنمارس سيادتنا الجديدة، التي حصلنا عليها بعد صراع قوي، وعلينا أن نصوت لانتخاب والي ومجلس بلدي...عاد إلى الزيتونة بلباس كاكي يشبه الجنود الذين حاربناهم...»¹

ليأتي الربط بين ما يحدث الآن وما حدث بالأمس في هذا المكان، وهو ليس صدفة لكي يحدد هوية الفعل، فعل العنف المتمثل في اغتصاب الشعبة السعيدة قرية الزيتونة، فما يقوم به هؤلاء اليوم لا يقوم به إلا عدو الأمس، فما حدث الأمس في زمن المحتل من عنف ترمز له وردية التي تمكن الرومي من القضاء على عفتها وشرفها الرامز لشرف القرية، فهذه العودة إلى الماضي بغية عقد هذه المقارنة التي ليست إلا نوعا من الاحتجاج «على ما يحدث في حاضر القرية»² الذي تحول وأصبح يوحي بالتعفن.

فهذا المكان الذي تقرر إليه الذات كلما ضاقت بها الأرض، لم تعد تجد فيه السكنية والراحة وإنما قضى عليه العنف وضيع ملامحه، ليصبح منكرا بعدما كان معروفا لدى الذات.

إن ما سيحدث يزيد في إحساس أهل القرية بالغربة والاغتراب عن شعبتهم السعيدة فستظهر شرور المدينة في قرية الزيتونة، حيث يدخل الشرطي القرية على دراجة نارية ليعلن أول مظاهر السلطة المركزية التي تنزع من القبيلة حق عبور ماشيتها للطريق السيار. وإمعانا في الاحتواء والمسح تختار القرية لتصبح مركزا للوالي الإقليمي لا لشيء، إلا لأن تقاليد السلطة المركزية تفضل عدم الحسم في المشاكل وذلك بقطع الإجابة إلى

¹ – Rachid Mimouni: L'Honneur de la tribu, p25.

² – الشريف حبيلة: الرواية والعنف، ص55.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

نصفين، بدل الحفاظ على وحدتها، ومن مظاهر ذلك حل مجلس الجماعة القروية واستبداله بمجلس بلدي على مقياس الديمقراطية المركزية للدولة.

فأحوال القرية تبدلت، لتضطرم بالقوانين التعسفية التي تبلغ حد إغلاق أحد مقاهي القرية، بسبب عدم احتواءه على مرحاض، بينما القرية بكاملها متعودة على قضاء حاجاتها في الطبيعة، وأمكنة الراحة لا توجد حتى في بيوتهم الخاصة، تجدد المقاهي لتأثت بأحدث الأثاث تأثت لم يعهده سكان القرية إنه غريب عنهم لا يعرفونه أبدا.

إنه تغيير يجعل المكان غريبا بالنسبة لأهله، فيزيد من تعميق الإحساس بعدم الألفة والوحشة التي تقضي على سكانه، فتولد لديهم الرغبة في المغادرة وترك المكان لأن ما كان يربطهم به قد تلاشى، وحبال الود بينه وبينهم قد انقطعت.

وخلاصة القول هو أن القرية لم تعد الملاذ الذي تفر إليه الذات كلما ضاقت بها السبل وكلما حاصرتها الهموم، لم تعد ذلك المكان الذي يوفر لها أجواء السكنينة والراحة وإنما قضى عليه العنف بكل أشكاله فمحي معالمه، محولا إياه إلى عنصر منفر طارد للذات.

د- إحياءات البيت الاغترابية:

يحتل البيت حيزا مكانيا هاما في حياة الإنسان، ومن ثم في النص الروائي، «تعيد إنتاجه الكتابة وفق رؤية فكرية وجمالية، يتبناها الكاتب، ويحملها راويه، وإذا كان البيت في الواقع ملجأ للراحة والأمن والاطمئنان فإنه كان كذلك، إلى حقبة طويلة في النص الروائي، حافظ الروائيون على صورته الرومانسية الآمنة الهادئة، والبريئة كمكان يحتضن ذكريات ساكنيه، يمثل رمزا لكل ما هو جميل وحميمي»¹، هو رمز لكل ما هو مريح دافئ وشخصي.

لقد منحت الرواية الجزائرية البيت أهمية خاصة، باعتباره عنصر جمالي، «وحيز مؤطر للشخصية بالمفهوم السردية»²، فكان المكان الذي تنهي به الشخصية يومها، لترتاح

1 - الشريف حبيلة: الرواية والعنف، ص 27.

2 - المرجع نفسه، ص 27.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

فيه، غير أنه مع اضطراب الواقع وانفجار الفجائع التي ألمت بالمكان والإنسان الجزائري على حد سواء تغيرت الرؤية لهذا الفضاء الهندسي رمز الطمأنينة، فلم يعد ذلك الحصن المنيع الحامي لأهله ومن هنا تتخذ البيوت «مدلولها المتسم بالقبح الباعث على الانقباض ليتعالق ضديا مع المنظر الخلفي الباعث على الانسراح»¹، وراحت الرواية الجزائرية تلتقط «تفاصيل هذا المكان، لتعيد بناءه محافظة على صورته الجديدة»² المثقلة بالرعب والقتل والإحساس بالاغتراب.

هذا هو شكل البيت الجزائري في الواقع الجديد، كما تصوره رواية الأزمة حيث تقدمه مكشوفاً بكل تفاصيله، ليست التي عرفت في السرد التقليدي، والتي تعتمد الوصف الهندسي، وإنما «شكلته اللغة ببعده النفسي والاجتماعي المحكوم بنفسية الشخصية التي تسكنه»³، والمعرضة دوماً للموت والرعب.

فالبيت أصبح بالنسبة للشخصية الروائية مكاناً معرضاً للعنف، يشعرها بالوحدة والوحشة، يقدمه النص في مشاهد وعروض متعددة، صور للمنازل المنتهكة، حيث يقتحمها أشخاص، بحلول الليل تحت جناح الظلام لكسر اطمئنان الناس، مخترقين حميمياتهم «فوجدناه منشوراً أمام طاولة يأكل بشراهة مثل الخنزير، كانت وليمة ملكية له وحده بها ديك رومي محشو بالفطر، سلال الفواكه الغالية الثمن، موز كولومبيا، تفاح فرنسي تحلية مستوردة... يكرم نفسه بالولائم وهو يرتاح ساخراً، كان منشغلاً بامتصاص أصابعه ولحس شفثيه المتدلّيتين حتى أنه لم يسمع صوت قدومنا فجأة أحس بوجودنا فتجمد في مكانه، حين رفع عينيه، كاد يختنق، قال له إبراهيم: واصل الأكل أيها الخنزير، وخاصة امضغ جيداً، لا

¹ - رشيد بن مالك: سيمياء الفضاء في رواية ربح الجنوب، مجلة اللغة والأدب، معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، ع13، 1998م، ص41.

² - الشريف حبيلة، الرواية والعنف، ص27.

³ - المرجع نفسه، ص27.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

أريد أن أجد عظمة في حلقك، سيقلقني إذا ما أفسدت سكينتي...وكان برميلا ممثلاً بالدم الدافئ ينفجر على الأرض».¹

فالغرفة كما نعلم «ليست صورة إنسانية معمارية بل هي معان إنسانية ودلالات تاريخية بمواقعها وذاكرياتها ووعي الذات بذلك ومقدار الانسجام والتناغم»² فعنف الخارج جعل سيد علي الشاعر ينزوي في بيته منقطعاً عن الناس يقول الراوي في رواية "بما تحلم الذئب": «ألقى سيد علي بكمشة من البخور في الكانون وراح يشتم بمتعة كتل الدخان المتصاعدة من الجمر، رائحة الصمغ القوية طردت نتانة العفونة من الغرفة مرغمة نافع وليد على حك أنفه.

منزل الشاعر كما السجن تماماً. الحيطان عارية، حرشاء الملمس لم تعرف الطلاء منذ زمن الحجارة المثوية تلمع في الظلام، السقف العالي مبرقش بنترات البوتاسيوم، أما البلاط المحرب فقد تم ترقيع منظره بجلود الغنم التي وضعت هنا وهناك، ضوء شاحب يدخل من إحدى الفتوحات، قاطعاً مثل الشفرة، كاشفاً عن رزمة من الزرابي التي تركز في الزوايا، آلة مندولين، حرة، مخطوطات، قوقعة سلحفاة عظيمة...يقضي معظم وقته ممداً على حصيرته المحمية بالناموسيات وهو يمتص غليونه العامر بالمخدرات ويؤلف قصائد حول ملهته».³

ففضاء البيت الذي يسكنه سيد علي يعبر عن حالته الاغترابية، بحيث يعد صورة تقريبية لنفسية ساكنه وكذا همومه الداخلية وأوجاعه وانكساراته المتوالية التي لا يجد ما يواسيه فيها إلا قصائده وسجائر المخدرات، فهذه الغرفة تعد لوحة ذات رسومات مشوشة تنم عن قلق صاحبها مما جعلها تبدو قبيحة، فكما يقول العلامة مالك بن نبي «لا يمكن لصورة قبيحة أن توحى بالخيال الجميل»⁴ والقبح دليل واضح على تعفن المحيط الذي يعيش فيه الشاعر، إنه عالم انتفت فيه القيم واختلت الموازين، عالم راح فيه يبحث عن بديل، فانتهى به

¹ - ياسمين خضرة: بماذا تحلم الذئب؟، ترجمة عبد السلام يخلف، ص286.

² - روز ماري شاهين: قراءات متعددة للشخصية، ص45.

³ - Yesmina Khadra: À Quoi rêvent les loups, p93.

⁴ - نور الدين مسعودان: مالك بن نبي بقلم معاصريه، دار النون للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط، د.ت، ص23.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

الأمر منعزلاً في غرفته التي تمنحه القدرة على إيجاد كيانه المفقود، لأنها وحدها القادرة بشتاتها أن تللم شتاته وتضمّد جراحه وتمزقاته المعبرة عن قلقه الوجودي لقد خلق صداقة بينه وبينها جعلته لا يخضع ولا ينتمي إلى أي مكان آخر إنه بعيد عن مجتمعه الغريب.

«سيد علي مسرور داخل هذا العوز الصوفي».¹

يتحول المكان الذي كان بالأمس مبعث الراحة والطمأنينة إلى سجن يخنق نافع وليد «كانت غرفتي "العبلة" تشبه الشرنقة العميقة التي لن تهرب منها أية فراشة»²، وكذلك قوله: «يغادر جيرانني المكان على رؤوس أصابعهم وأجدني وحيداً في وسط المطابخ بإحساس الغربة الذي يتحول عند آخر السهرة إلى اكتئاب غائر».³

وكذا قوله يصف غربة الغرفة ومرارة المعاناة: «بعد أن تغلق علي الغرفة أحس بنفسي وقد أصبحت مجنوناً»⁴، فالغرفة معادل موضوعي لشخصية وليد ونفسيته، إنها تشعره بالضيق والاكتئاب إلى الحد المؤدي إلى الجنون.

إن الفقر والعنف وغياب التواصل الأسري كلها جعلت من البيت يتحول إلى عدو للذات فيها هو نافع وليد يصف منزلهم وأسرته التي لم يعد يتحمل العيش معها يقول الراوي: «كلما عدت للبيت وجدت أبي ومزاجه الذي لا يطاق، وهو مغروس في زاويته مثل البخت السيئ في انتظار أدنى تفاهة كي يبدأ في النباح على كل من يمر أمامه، أكرهه وأكره طاقم أسنانه الذي راح يتعفن داخل كأسه، ورائحة مرض الوهم، أكره أيضاً كوخنا أين تختنق أخواتي وفقرنا الذي في كل مرة يطرد طالبي الزواج منهن رغم شهرتهن كربات بيت ورقة ملامهن أكره خصاصة غرفتي التي تشبه خصاصة روحي، والوجبات الحقيرة التي

¹ – Yesmina Khadra: *À Quoi rêvent les loups*, p93.

² – *Ibid*, p35.

³ – *Ibid*, p35.

⁴ – *Ibid*, p34.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

ترتجلها أُمِّي وابتسامتها التي تعتذر لأنها لا تملك شيئاً آخر تقدمه، ونظرتها البائسة التي في كل مرة تقع عليّ إلا وجعلتني أغور أكثر فأكثر... لم أعد أحتمل»¹.

إذن يصرح وليد أنه لم يعد يَحتمل، لم يعد يقوى على كل هذا، ما عاد يشعر بالراحة والاطمئنان في منزله وإنما أصبحت الغربة والوحدة والانزعاج رفقاءه الدائمين، فهذا الانهيار النفسي ساهم في تعميق الشعور بالاغتراب عن المنزل وعن الغرفة، وهذا دليل واضح على عمق مأساته مع العالم الخارجي.

فالببيت كحيز مغلق أسهم في تكوين الوعي تكويناً احتواه جحيم اليأس ورتابة الزمن الممل «الذي بات عدو الإنسان، بينما المكان (الغرفة) هو الحصن الذي يحتمي به، فأمكنه بذلك أن يمتلك المكان ويعتبره امتداداً له»²، أضف إلى ذلك الأفكار الضارة العائدة إلى الإيديولوجية سببها أسئلة الوجود وضبابية المصير المجهول.

إذن هي تلك الصورة التي تقدمها الرواية عن البيت الجزائري وقت الأزمة، بيوت خاوية فارغة من دفء المشاعر، اغترب أهلها عنها، غادرها الأمان والراحة والسعادة، ولم يبق فيها سوى إحساس النفور والوحشة والعداء.

¹ - ياسمينة خضرة: بماذا تحلم الذئاب؟، تر: عبد السلام يخلف، ص 167.

² - سيزا قاسم: القارئ والنص، العلامة والدلالة، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، د.ط، 2002م، ص 68.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

المبحث الرابع: اغتراب اللغة ولغة الاغتراب

تعد اللغة أهم مكون سردي باعتباره يكفل التلاحم والارتباط بين باقي العناصر التي من شأنها أن تتوافق تارة، أو تتناظر وتتقاطب تارة أخرى فلولا اللغة ما حدث أي انفعال للشخصية ولا عبرت أو شعرت، ولا كان لها كيانهـ الورقيـ الخاص بها، وكذلك بالنسبة للزمن الذي أصبح معها في تماس دائم باعتمادها كوسيلة، كما أن اللغة فضل كبير في استتطاق الوظائف الروحية للمكان والتي تنعكس حتما على نفسية المقيمين به، ومهما بدت اللغة بسيطة في جزئياتها ومشكلاتها التعبيرية تبدو جزءا من شكل الحضور الإنساني فتكون بذلك قد تجاوزت نفسها كنظام من الرموز إلى ما هو أبعد من ذلك.

ولأن اللغة مرآة عاكسة للفكر الإنساني لم تأت لخصائصها المتعددة فضلا عن كونها مجرد شكل تعبيرى ثابت ومحدود يصف الحقيقة فقط، بل تعدت ذلك إلى الانسلاخ عن نفسها، ذلك لأن «العقل يعمل من خلال اللغة فيفرض فئات وأشكالا منطقية على أشياء قد لا تكون متأصلة فيها»¹ لأنها «لا تطابق العلامة الخارجية دائما، وهو الأمر الذي مكنها من الاستحواذ على بعض الجوانب اللصيقة بالبعد الغير محسوس فتجاوزت بذلك فكرة اعتبارها مجرد «نظام اجتماعي مهمتها الربط بين العمليات الإنسانية والعمليات الخارجية إلى احتوائها للإشعاعات الفكرية والعاطفية»²، فلا يمكن وجود قيم اجتماعية متجسدة بعيدا عن اللغة والسبب في ذلك يعود إلى خصائص اللغة التي ساهمت في إبراز التآزمات السياسية والاجتماعية وغيرها.

ويمكن التأسيس للاغتراب اللغوي انطلاقا من وصف "هيدغر" للغة وكيفية تعالقها الشديد مع الوجود فهي «الوجود، إذ لا وجود خارجها أو بدونها، فهي الحقيقة الإنسانية

¹ - مندولاو: الزمن والرواية، تر: بكر عباس، دار صادر، لبنان، ط 1، 1997م، ص132.

² - نبيلة إبراهيم: نقد الرواية من وجهة نظر الدراسات اللغوية الحديثة، مكتبة غريب، القاهرة، مصر، د.ط، د.ت، ص23.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

القابلة للإدراك»¹ والكينونة الإنسانية رهينة تجسد اللغة، فحقيقة الوجود الفعلي لا يتم إلا عن طريق اللفظية المشكلة لبنيته.

إذن اللغة تملك سلطات سياسية وأخرى اجتماعية وكذا دينية وعجائبية كلها تكشف عن الأساس اللغوي للذات التي تسعى دوماً إلى النفي والشك الأعظم والإنكار وكل ما يمكنه أن يغير من رتبة اللغة في الرواية.

لم يكتف الاستعمار باحتلال الأراضي ونهب خيراتها، بل امتد إلى نهب الممتلكات الرمزية للشعوب المستعمرة، من خلال تدمير بنياتهم الرمزية المتمثلة في اللغة والثقافة والعادات والتقاليد وكذا القيم المشكلة لهوية هذه الشعوب، كما أن لغة البلدان المستعمرة تعرضت للاضطهاد والتشويه والتدمير، وذلك من خلال إعطاء دور للنظام التعليمي الكونيالي في فرض لغة المستعمر، فمارست عنفا رمزيا على اللغات المحلية وعلى أشكالها التعبيرية من الفنون والآداب.

فقد أدرك المستعمر أن المعركة الحقيقية ليست تلك التي تحدث فيها المواجهة بالأسلحة وتحتضنها الأحرار والجبال، إنما هي أيضا تلك التي تدور في أرض اللغة، فكان لزاما على المحتل أن يفرض وجوده، ويضمن استمراريته، وهنا تلعب اللغة دورها المحوري في إعادة صياغة وتنظيم النظام داخل هذه المجتمعات، مع خلق ارتباكات في نظره المغلوب لوجوده وللعالم الذي ينبغي أن يعبر عنه من خلال لغته المحلية.

بما أن وجود الإنسان مشدود إلى شجرة اللغة، ومرهون بإدراكاته اللغوية لهذا الوجود فإن أي تغيير يطال نظام تعبيره، أو أي محاولة لإزاحته عن نظامه التقليدي سيحدث فيه تمزقا نفسيا وانفصامات ذهنية، وتخلخلات قيمية، من شأنها أن تعرضه للأزمات الوجود.

وفي هذا السياق الاستعماري تصبح «اللغة الوسيط الذي يجري من خلاله إضفاء طابع أبدي على بنية تراتبية للقوة، والوسيط الذي تصبح من خلاله مفاهيم الحقيقة والنظام

¹ - محمد سالم محمد الأمين الصلية: مستويات اللغة في السرد العربي المعاصر، دراسة نظرية تطبيقية في سيمانتيقا السرد، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2008م، ص16.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

والواقع راسخة، لكن هذه القوة تصبح مرفوضة في ظل ظهور صوت ما بعد كولونيالي¹ وقد كان صوتا فعالا.

فالمسألة في جوهرها تتعلق بتثبيت المستعمر لتجده من خلال ترسيخ نظامه اللغوي، ضمانا بذلك أبدية استمراريته، حيث يمكنه التغلغل إلى لا شعور شعوب هاته المستعمرات، ويصبح جزءا من وجودها الجديد، وهنا يظهر الدور الخطير للغة في إبراز الطابع الهيمني لهذا النظام، القائم على تراتبية للقوى في مقابل النظر إلى الآخر بفوقية وتعال، واعتبار لغته قبيحة بذيئة، لا تعبر إلا عن تخلف صاحبها وبدائيتيه.

إن مشروع فرنسا الاستعماري يتلخص في جعل الجزائريين ينفرون من لغتهم، ويقبلون على الفرنسية كتأشيرة للاعتراف بهم، أو لميلاده الجديد، غير أن هذا المستعمر لم يضع في حسبانته أن الواقع القائم على تراتيب سلطوية سيد/عبد، قوي/ضعيف، متحضر/متخلف التي سخر لها اللغة لتعزیزها، كانت سببا في انبثاق وعي جديد من داخل الجزائر، يسائل ذاته، ويشكك في مدى نزاهة لغة المستعمر، وفي مدى براءتها من أي نوايا سيئة، لقد جسدت هذا الوعي كتابات خرجت من رحم الجزائر المستعمرة، ومعظمها كان نتاج المدرسة الكولونيالية، هذه الأقلام التي تأكدت أن المقاومة هي فعل لغوي، وهي استعادة للصوت المستبعد.

فما أفرزه الواقع الاستعماري هو اغتراب اللغة لدى النخبة المثقفة من أبناء الجزائر هذه النخبة التي شقت طريقها للبحث عن المعبر الذي يوصلها إلى الوعي بذاتها وبهويتها الأصلية، وهو أحد أشكال القمع الرمزي الاستعماري الذي ظلت آثاره ماثلة على جسد اللغة والثقافة والإنسان.

لقد شكل استعمال اللغة الفرنسية علامة فارقة في الأدب الجزائري، حيث أعطت له بالقدر الذي أخذت منه، فقد مكنته من أرضية صلبة تمثلت في الروايات الكثيرة التي تزخر

¹ - بيل شكر وفنت وآخرون: الرد بالكتابة (النظرية والتطبيق في أدب المستعمرات القديمة)، تر: شهرت العالم، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، ط1، 2006م، ص25.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

بها الثقافة الفرنسية «المتمتعة ببنية تحتية وبصفوة متخصصة في الكتابة»¹، وبذلك تجاوزت هذه الإبداعات الشرط التاريخي المتمثل في القوانين الاقتصادية والاستهلاكية التي كانت ستأخذ وقتاً طويلاً لو سارت سيرا طبيعياً، «لقد ولدت ناضجة مكتملة... لقد بدأت من حيث انتهت الرواية الفرنسية»².

وبذلك تمكنت من اختصار الزمن والمسافة نحو إنتاج رواية تحكمها المعايير الجمالية والفنية العالية، إذ كانت المسألة تتعلق «على ما يبدو -خاصة مع كتاب الثورة- بإثبات تفوقهم ووجودهم عالمياً»³، ولكن في المقابل كان الاغتراب والنفي هو الثمن الذي دفعه هؤلاء الكتاب مقابل نجاحهم العالمي، حيث كان إحساسهم الفضيع «باستئصالهم من جذورهم، وفقدانهم لشخصيتهم وتمزقهم»⁴ وهذا كان أكثر السمات التي اضطبغت بها هذه الكتابات، يقول "محمد ديب" في نص "السيمورغ": «كنت نسيت التلطف بكلمة أبي ولم أبلغ عشر سنوات لأن والدي توفي وأنا في تلك السن، كلمة هجرت قاموسي ونادراً ما حدث لاحقاً واستعملها، وحين أستعملها فلإشارة إلى كلمة أبي في شكلها الصبياني، إلى آباء الآخرين سواء كانوا صغاراً أو كباراً، الأب الذي كان غريباً عني مما جعل الكلمة في حد ذاتها غريبة»⁵.

وكذا قوله: «لا يجب أن ننسى أننا ضيوف على اللغة الفرنسية، لسنا أبناءها ولا بناتها قد يغيب هذا عن أذهاننا لكن من حسن حظنا يوجد دوماً من يذكرنا بذلك وذلك بأحسن نية ممكنة»⁶، ففي هذين المقطعين نلمح تأكيد "ديب" على اغترابه في لغة الآخر، إنه الضياع

¹ - عبد الكريم الخطيبي: الرواية المغربية، تر: محمد برادة، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، ع 2، 1971 م، ص 97.

² - الشاذلي الساكر: سنوات الجمر في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، مجلة الحياة الثقافية، ع 32، 1994 م، ص 152.

³ - Abde Ikibir-Khatib : le romom maghrébine, sosité marocaine des édition rémis -Rabate, 2^{em} éd, 1979, 1^{er} éd 1968, p113.

⁴ - الشاذلي الساكر: سنوات الجمر في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، ص 72.

⁵ - Mohammed Dib: Smorgh, p91.

⁶ - Ibid, p103.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

والإحساس بعدم الانتماء والوقوف على الهامش من كلتا الحضارتين، الحضارة الأم وحضارة اللغة المضيفة.

فالكاتب الجزائري باللغة الفرنسية لم يتمكن من إرضاء قرائه لا الفرنسيين ولا الجزائريين، فالبعض اعتبر «لهجتهم قاسية والآخرين اعتبروها تقليدية، مما جعل هؤلاء يجدون أنفسهم على هامش مجتمعهم والمجتمع الفرنسي»¹ يقول "ديب" معبرا عن هذا: «... وهم يعكسون في عيوننا كل المنافع التي سنجنحها منه دون أن يكثرثوا، بما نقدمه نحن للغة الفرنسية، وكيف يمكنهم ذلك؟ ولا أحد منهم يرى فائدة في وضع أنفه في كتبنا لأن ذلك لا يهم وهذا ما لاحظته في كل مناسبة كما أنني لم أسمع بأنهم قد طرحوا نفس الأسئلة على كتاب غرباء آخرين يكتبون باللغة الفرنسية والله يعلم أنهم موجودون ولم يبدأوا كما بدأنا نحن حين أصبحنا فرنسيين قبل أن نتحول إلى غرباء!»².

فالمجتمع الفرنسي في غالبيته إما يرفضهم «في الأساس، أو يتقبلهم ولكن يضعهم في رتبة أدنى من الخادمت البرتغاليات»³، ومن هنا يتولد الاغتراب فهم لا إلى هذا ولا إلى ذلك يتحدث الراوي في رواية "شرف القبيلة" عن الاغتراب اللغوي يقول: «...ستسمع لي دون فهم ما أقول، فقد أصاب النسيان لغتنا»⁴، وما يزيد في غربة هؤلاء المبدعين أنه كلما بعث الجدل حول هوية هذه الكتابات نجد النقاد يضعونها ويعيدون وضعها في موقع ما هنا أو هناك، يكفي هذا فقط ليحس الكاتب بهذا الاغتراب ويتعمق لديهم الشعور بعدم الانتماء، فبين معترف «لها بالروح الجزائرية وبين ناف عنها كونها جزائرية»⁵ يظل هذا المبدع يعاني ويتحمل منفاه.

¹ - عابدة أحمد بامية: تطور الأدب القصصي الجزائري، ص55.

² - Mohammed Dib: Smorgh, p95.

³ - نجيب العوفي: حضور الأدب الجزائري في المغرب، مقاربة وصفية، مجلة التبيين، اتحاد الكتاب الجزائريين، الجزائر العدد 10، 1995م، ص18.

⁴ - Rachid Mimouni: L'Honneur de la tribu, p11.

⁵ - عبد المالك مرتاض: نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر (1925-1954م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1983م، ص25.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

إن لغة هؤلاء المبدعين الجزائريين الذين اتخذوا الحرف الفرنسي وسيلة لإنتاجهم الأدبي، لا تخلو من حس اغترابي، وكذا من معاناة البعد عن اللغة الأم، فقد أسقطوا غرتهم واغترابهم على أبطال رواياتهم، فما هو "محمد ديب" في رواية "السيمورغ" يحكي اغترابه في لغة الآخر عن طريق بطله، عندما يسترجع البطل ماضيه الطفولي الذي يبين تيهه وضياعه ذلك الماضي الدراسي الذي انكب فيه على تعلم ثم تعليم لغة المستعمر دون أن يحول الجوع والبؤس والحرمان بينه وبين تلك الحاجة الحيوية عنده والحتمية بالنسبة لباقي تلاميذه المزاولين للدراسة طمعا في تعلم اللغة الفرنسية بقدر طمعهم في سد جوعهم بما كانت تحضره الأم من طعام بائس: «...ولن تتأخر أيضا في تخصيص صبيحة أخرى لنقتل الكسكس، وهو القوت الوحيد الذي كنا نقنع به، ومن كان يفكر في الاستذكاء، ليس أطفالنا (الجزائريون) المحتاجين إليه لمواصلة تعلم لغة فرنسية يدرسها طفل جزائري لم يكن سنه يفوق سن أكبرهم إلا بقليل».¹

وهذا الاهتمام الخاص من طرف "ديب" باللغة الفرنسية يعكس التزاما لديه بمعرفة لغة الآخر التي بواسطتها «يعكس ذاته لا فوق الصورة التي يقدمها المستعمر حول الإنسان المغربي إنما وفق صورة حقيقية»² باحثة عن هوية عميقة، تسعى لفرض «إنسانية أخرى ينبغي على المستعمر الاعتراف بوجودها...تهدف إلى إثبات وجود ثقافة لا علاقة لها بالاحتلال»³، وهذا الالتزام لم يتوقف عند الراوي حتى بعد تحرر بلاده: «دافعت عنها، في ما مضى قدر استطاعتي ولم أنقطع عن خدمتها رغم أنني لم أعد فرنسيا منذ 1962م، ما الذي أعطيتي مقابل ذلك؟»⁴ وهو تساؤل دال على الجحود الذي لقيه مقابل تكريسه لحياته في خدمة اللغة الفرنسية.

¹ – Mohammed Dib: *Smorgh*, p146.

² – Jean Déjeux: *Literature Maghrébine de Langue françaises*, p24 .

³ – *Ibid*, p42.

⁴ – Mohammed Dib: *Smorgh*, p146.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

ولا ينحصر التزام "ديب" في معرفة لغة الآخر واتخاذها أدبا للاغتراب، بل يتسع نطاقه ليشمل لغة أخرى تعكس دلالة الغيرية عند كاتب ما انفك منذ بداياته الأولى يبتدع على حد تعبير جون ديجو "Jean Déjeusc" «أدب بحث»¹، وهو في حالة بحث، لتصبح «اللغة من هذا المنطلق ملكا لمن يستعملها»²، فما يسترجعه الراوي في ماضيه الطفولي على وجه التحديد هي ذكريات المدرسة في طورها: طور التلميذ وطور المعلم، غير أن طابع الأسى هو ما يلتصق بتلك الذكريات وهي دلالة ناتجة عن حالة بؤس وحرمان واغتراب، طبعت ووسمت حياته وحياته أترابه من أبناء الجزائر الذين عاشوا مأساة الاحتلال الفرنسي وشعروا قبل الألوان بمزالق «الوعي الطبقي ومأساة الحياة»¹، والتزموا الصمت إزاء قدر صنعه المحتل، فهو عند الراوي صمت يرادف معاني الانتقاء من المدرسة الاحتلالية والثورة ضد كل مظاهر القسوة والرتابة العالقة بها.

فالراوي لم يحب المدرسة يقول: «لم أحب يوما الدرس ولا الفروض، ولا الإملاءات ولا المساءلات خاصة أمام السبورة السوداء، ولا الامتحانات، ولا قاعة الدرس ولا التسمر فوق الكرسي لساعات من دون كلام، إذ لم أفعل ذلك فلكي أختفي بالمقابل أواجه خطر تلقي لكلمات المعلم على رأسي، هذا هو المشهد آنذاك. باختصار. ما أحببت المدرسة في مجملها. أسوارها كانت بمثابة سجن لي»³، يوضح هذا المقطع اغتراب الراوي في المدرسة التي يدرس فيها لغة غير لغته الأم لذا أصبحت كالسجن بالنسبة له.

يصرّح "ديب" باغترابه في لغة الآخر المستعمر، كونه أجنبي عنها، وحتى وإن أنقها وأبدع فيها فإن نظرة الدونية ستلاحقه من جمهور القراء الفرنسيين يقول: «أيها الأجنبي المستقر في فرنسا، ها أنت تحسن اللغة الفرنسية جيدا، وقد تكون حصلت على الجنسية الفرنسية، أما الشيء الذي لن تعرفه أبدا لأنه لا يخطر لك على بال هو أنك بالمناسبة إذا

¹ – Jean Déjeux: *Littérature Maghrébine de Langue françaises*, p160.

² – سعاد محمد خضر: الأدب الجزائري المعاصر، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، د.ط، 1967م، ص151.

³ – Mohammed Dib: *Smorgh*, p142.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

قلت: أنا لا أبالي أو أنا لا أعطي كثيرا من الأهمية لـ... أو نفس الكلام بطريقة أخرى: أنا لست قلقا على... فإن الفرنسي يقول بعفوية: أنا لا أضرب نفسي حول... حينها تقول أنت أنا قلق بشأن... أو منشغل بـ: يقول الفرنسي: بي لين ولكن بكلمة أخرى محليه، هذا ما يسمى استعمال لغة تعيشها من الداخل... بهذه الطريقة يرسم الفرنسي معالم إقليمه، وقد يكون هذا من دون علم منه لكنك أنت الغريب، أين هو الإقليم الذي ستبول عليه وتعلمه بإشارات من فرنسيتك كي تثبت ملكيتك له؟ أنت تملك اللغة من دون إقليم.

إن هذا السبب من بين مجموعة من الأسباب التي تفسر لا مبالاة غالبية الجمهور الفرنسي بكتابات الكتاب الجزائريين باللغة الفرنسية. هكذا يبدو لي¹.

إذن على الرغم من تمكنه من اللغة إلا أنه سيظل غريبا لا إقليم له، فهي لغة يكتسب بها أي يعايشها من الخارج بعكس أبناءها، فهو يحس فيها بالتيه والضياع أضف إلى ذلك نظرة الازدراء والتعالي من طرف الجمهور القارئ الذي لا ييالي بكتابات الجزائريين باللغة الفرنسية.

إن الإحساس بالاغتراب يتعمق أكثر فأكثر لدى ديب، في لغة الآخر، فيرى أن الكتابة بلغة غير اللغة الأم هو أكبر شقاء يكابده الكاتب يقول الراوي: «لا وجود لشقاء أكبر من ذلك الذي يدفعك للكتابة بلغة غير لغتك، هذا هو الشقاء الذي يجعل منا كتابا. أحاول أن أتخيل شقاء البلاد التي يطلع منها كتاب مثلنا، لا أستطيع، أو أن بلادي ليست شقية لتراني واحدا من بين كتابها الآخرين، أو أنها غير واعية بشقائها. لا أدري أيهما أفزع»² فهو يحن إلى اللغة الأم، ويأسف لعدم قدرته للكتابة بها، فهذا زاد في شقائه وضاعف من حدة اغترابه عن بلده وعن جمهور قراء بلده.

¹ – Mohammed Dib: *Smorgh*, p146.

² – *Ibid*, p77.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

لقد تمكن الروائيون من جعل اللغة الفرنسية أداة مطواعة لرسم لوحة الاغتراب الداكنة بريشة الرموز المشعة فكريا وأيديولوجيا، وهو ما جعل الذات الجزائرية تتماهى في ذات الآخر بفعل العامل التاريخي الاستعماري الذي خلق ازدواجية لغوية واغتراب ثقافي.

فها هو الراوي في رواية "شرف القبيلة" يعلن عن هذا الحس الاغترابي لدى رشيد ميموني من خلال التركيز على العداء بين أهل الأرض سكان قرية "الزيتونة" «ولغة الأجنبي فهم ما أحبواها أبدا. قد نفروا منها ولم يحبذوا أن يتعلمها أبناءهم، فهي لغة الأجانب الأعداء لا تضاهي أبدا لغة القرآن التي وجب الحفاظ عليها وتعلمها: "كان يستعمل لغة الرومي»¹.

- «وحيا القادمة بلغة الرومي»².
- «عرض عليه أبوه القضية بلغة الرومي»³.
- «العارف الوحيد بلغة الرومي»⁴.
- «تعلم لغة الرومي التي تفتح وحدها الطريق نحو الشعل والمردودية»⁵.
- «أنت الوحيد الذي يعرف لغة الرومي»⁶.
- «ولد علي كان الوحيد الذي تردد على مدرسة الرومي»⁷.

وفي هذا إعلان صريح عن الاغتراب اللغوي وعن الهوية التي تفصل الذات عن اللغة الأم، وعن هذه اللغة الأجنبية، فاللغة الفرنسية كانت منفى بالنسبة لرشيد ميموني، كما هي الحال بالنسبة لمواطنه مالك حداد الذي بلغ به الحد إلى أن تحول ذلك المنفى إلى وضع درامي بلغ به مبلغا من التألم الروحي، حيث لم يجد ما يشفي جراحه إلا التوقف عن الكتابة بلغة الآخر، إيماناً منه بأن لا استقلال إلا بفك الارتباط بفرنسا لغويا واستعادة علاقة الجزائر بمكوناتها الهويةية على رأسها اللغة العربية.

¹ - Rachid Mimouni: *L'Honneur de la tribu*, p174.

² - *Ibid*, p174.

³ - *Ibid*, p208.

⁴ - *Ibid*, p33.

⁵ - *Ibid*, p34.

⁶ - *Ibid*, p120.

⁷ - *Ibid*, p124.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

ومما زاد في حدة الاغتراب اللغوي لدى هؤلاء الكتاب، ما بلغوه من عزلة قاسية بسبب غياب القراء بل انعدامهم، فما كان يكتب من طرف هؤلاء لا يعدوا إلا أن يكون مجرد مونولوج داخلي لا يصل إلى هؤلاء الذين كانوا ضحايا التاريخ وضحايا سياسات الاستعمار فحينما صدح مالك حداد بعبارته الشهيرة "الفرنسية منفاي" لم يكن يقصد بهذه العبارة الذائعة الشائعة أن يحاكم اللغة الفرنسية من حيث هي «لغة مثل بقية اللغات البشرية، وإنما كان يشير إلى الطريق المسدود الذي وجد فيه الأدب المغربي المكتوب باللغة الفرنسية بعامة والأدب الجزائري بخاصة ولا سيما أن هذا المنفى انتقل إلى قرائه»¹، بالكتابة بلغة الآخر تتحول إلى انتقاء لجوهر الكتابة ذاتها وتغدو النصوص منافي باردة تضع الكاتب هدفا لوخر الحنين لا إلى الوطن بل إلى اللغة الأولى، اللغة الأم.

وعلى الرغم من أن هذه اللغة أشعرت كتابا كثر أمثال كاتب ياسين، محمد ديب آسيا جبار، مولود فرعون، مولود معمري، رشيد بوجدر، بالاغتراب في منفاها، إلى الحد الذي انقطع فيه بعضهم عن الكتابة بها، والعودة إلى الكتابة باللغة الأم، إلا أنه لا ينبغي أن نغفل عن حقيقة هامة مفادها أن هذه اللغة خدمت هؤلاء ومكنتهم من إسماع صوت الجزائر، والدفاع عنها بقوة الحرف حيث يقول مالك حداد: «إنني في اللغة الفرنسية في منفاي، غير أن بعض المنافي يمكن أن لا تكون غير مجدية، وإنني أشكر من كل قلبي هذه اللغة التي مكنتني من أن أخدم، وأحاول أن أخدم بلدي الحبيب»².

وما يمكن قوله في هذا الصدد، هو أن الفرنسية كانت منفى الكتاب الجزائريين الذين عاشوا فيها وبها تمزقا وتشظي لذواتهم فقد عانوا الاغتراب اللغوي، حيث هجرتهم الكلمة ولم يسعفهم الحرف العربي الذي لم يتمكنوا من تعلمه، وحتى اللغة التي تعلموها وبرعوا فيها أضحت وعاءا ضيقا لا يستطيع احتواء أحاسيسهم وأفكارهم كما يرى "ديب" أن اللغة الفرنسية لا يمكنها أن تحمل كل ما يختلج في صدره.

¹ - أحمد يوسف: علامات فارقة في الفلسفة واللغة والأدب، منشورات الاختلاف، الجزائر، منشورات ضفاف، لبنان، دار الأمان، الرباط، ط1، 2013م، ص172.

² - مالك حداد: الأصفار تدور في فراغ، تر: أحمد منور، دار الألفية، الجزائر، ط1، 2012م، ص11.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

المبحث الخامس: الاغتراب الاجتماعي

يعيش الفرد وسط مجتمعه ويسعى دائماً إلى الانسجام فيه حتى يحقق وجوده وكيانه غير أنه وفي أحيان كثيرة يفاجأ بوجود فوارق في العلاقات والمعاملات، تؤدي إلى بتر هذا التوافق مما ينجم عنه اختلال في الوحدة الاجتماعية التي تؤثر على النموذج الأسري. وعلى هذا فالاغتراب الاجتماعي هو: «شعور الفرد بالضعف والعجز إزاء المواقف المصيرية في حياته وشعوره بأن القيم السائدة غير ذات معنى بالنسبة له، أو هو الغريب عن جماعته الاجتماعية وتنظيمات الحياة»¹؛ بمعنى أنه حالة من عدم التوافق مع المجتمع ومع أفراد ونواميسه.

فحالة العجز وعدم القدرة التي يحسها الفرد أثناء مواجهته للقرارات الهامة في حياته والتي تسبب له توتراً داخلياً ينعكس على حياته كلها، أضف إلى ذلك غياب القيم النبيلة التي يطمح إليها تجعله أميل إلى الانعزال عن المجتمع، وهذا ما يراد به «الانسلاخ من المجتمع أو الانعزال» وهو ذات المعنى الذي تضمنه التعريف التالي: «حالة اجتماعية تسيطر على الفرد وتجعله غريباً وبعيداً عن بعض نواحي واقعه الاجتماعي»²، فالسيطرة الاجتماعية تؤدي بالفرد إلى الثورة والتمرد «على كل المبادئ والمفاهيم التي تسير المجتمع»³، وهو ما يؤدي بدوره إلى اهتزاز الروابط الأخلاقية والإنسانية التي تربط الفرد بالمجتمع، كما يعد الاغتراب الاجتماعي حالة من اللااستقرار وافتقاد الطمأنينة لبلوغ غد أفضل في ظل عدم يقينية العلاقات الإنسانية المتسارعة.

¹ - أحمد فلاح: الاغتراب في الشعر العربي في القرن السابع الهجري (دراسة اجتماعية نفسية)، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2013م، ص25.

² - مصطفى الشاذلي: الاغتراب ظاهر في النقد العربي، مطبعة أنفو-برانت، قاس، فاس، المغرب، ط1، 2009م، ص32.

³ - ينظر: محمد عبد السميع زامل: الاغتراب لدى المكفوفين (ظاهرة وعلاج)، دار الوفاء، مصر، ط1، 2008م، ص36.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

وعليه يمكن ملاحظة أن الاغتراب الاجتماعي هو انفصال الفرد وانسلاخه عن المجتمع وعن كل الأنشطة الاجتماعية كونه لم يتمكن من الانسجام مع الكل، لذلك يعتمد المبدع إلى تصوير ملامح الشخصية من خلال إضفاء معلومات عن «منزلها وعلاقتها بالآخرين»¹، حتى نتمكن من الكشف عن تمظهر الشخصية اجتماعيا، وهو ما سنحاول الوقوف عليه من خلال رواية "بماذا تحلم الذئب؟" التي أبرزت هاته الظاهرة من خلال بيان اغتراب الفرد في أسرته ومع أقاربه ومجتمعه وقيمه.

أ- اغتراب الذات عن أسرته:

وبالبدية مع الزوجة التي تمثل السند للزوج، وهو يمثل الأمان والاستقرار لها، فالواحد منهما سكن الآخر وعلى هذا الأساس كان لزاما على الإنسان أن يوطد أواصر المحبة مع الطرف الآخر، حيث يكن الرجل الحب والاحترام لزوجته وتبادلها بدورها نفس المشاعر، غير أن السيد راجا أحد شخصيات رواية "بماذا تحلم الذئب؟" غابت هذه السمة عن حياته، حيث أنه لم يكن هناك لا حب ولا ود بينه وبين زوجته، فهو دائم الغياب، وهي منظوية على نفسها حادة الطباع يقول الراوي: «...فالسيد راجا غائب على الدوام أما السيدة فلا أعرف منها سوى صوتها الحاد الذي يربع مجموعة الخدم ويحدث تشتتا حقيقيا داخل القصر».²

لقد ذهبت السيدة راجا بعلاقتها مع زوجها إلى درجة التجاهل وغياب التواصل معه لأنها كانت ملتهية بمرضها وثقل السنين التي مرت عليها يقول الراوي: «...السيدة راجا كانت في شبابها قد سحرت الكثير من المغرمين، تقاسيمها البهية مازالت تحتفظ ببقايا من نبل حقيقي، في الخامسة والخمسين من العمر، ها هي تنهار تماما مثل البناية التي طالتها الصاعقة، أدركها الوقت واسترجعها في الوقت الذي لم تكن تتنظره أبدا، ما عادت تعرف كيفية التفاوض معه، أصبحت تشبه المومياء... أمام وجهها المتآكل بفعل المرض»³، فقد نأت بنفسها عن مخالطة الآخرين لتصبح في قصرها غريبة مغتربة عن زوجها وعن أولادها.

¹ - محمد بوعزة: تحليل النص السردي، تقنيات ومفاهيم، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط1، 2010م، ص40.

² - Yesmina Khadra: À Quoi rêvent les loups, p43.

³ - Ibid, p48.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

ولعل اغتراب السيد راجا عن أهله وعن زوجته متخذاً العمل لنفسه ذريعة، يتخفى وراءها، ويمارس طقوسه الانحرافية متخذاً من الممل والرتابة مبرراً لذلك، فراح يقيم علاقة مع أخت زوجته الشابة يقول الراوي: «نزلت من دون مساعدتي ودقت جرس الباب، فتحت لنا الباب شابة انسحبت بمجرد تعرفها على الزائرة... جلس رجل بتكاسل داخل أريكة وبيده غليون قريب من حركة لا إرادية... بمجرد أن رأنا قفز من مكانه امتعاضاً أكثر منه مفاجأة... تسلق السيد راجا داخل السيارة متبوعاً بالسيدة راجا بأنفتها وبرودها وأمرتني أن أوصلهما إلى المنزل خيم صمت عامر بالحقد في المقعد الخلفي للسيارة».¹

فكبر السيدة "راجا" ومرضها جعلاً زوجها يحس بالملل إلى جانبها كونها فقدت جاذبيتها، وهو الأمر الذي دفعه إلى خيانتها لها مرات عدة وقد قبلت المرأة بذلك إلا أنها هذه المرة أبت واستهجنّت الأمر لأنه حصل مع أختها تقول: «إلى أين تريد الوصول يا صالح؟ قالتها وهي تلهث. أن تخونني مع فريق السكرتيرات، فهذا أستطيع تفهمه، لكن أن تفعل هذا مع أختي»²، يظهر هذا المقطع أن الزوجين على الرغم من تقاسمهما البيت إلا أنهما كانا غريبين عن بعضهما البعض حيث لا قاسم مشترك بينهما يصهر أكوام الجليد الذي حوّل المشاعر إلى جماد؛ ذلك لأن أبواب الحوار أوصدت، وروابط الحب انقطعت، والثقة انعدمت ولم يبق إلا الصمت ليداوي حالة الجفاء والبعد بينهما.

يواصل الروائي تعرية المجتمع الجزائري من الداخل عبر علاقة السيد راجا بأمه حيث فقد الاتصال بها منذ زمن يقول الراوي: «إنها والدّة السيد الذي تعلم أنت لديه، يا صديقي نافع، أم صالح راجا العظيم، إنها تتعفن هنا منذ سنوات لكنه لم ير في يوم من الأيام فائدة من زيارتها، حتى أنه ليس هو من يرسلني»³، وفي هذا دليل قاطع واضح على وجود هوة عميقة بين الابن والأم.

¹ – Yesmina Khadra: *À Quoi rêvent les loups*, p49.

² – *Ibid*, p49.

³ – *Ibid*, p54.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

هذه الأم التي على الرغم من إهمال ولدها لها، تشتاق له وتضع له الأعذار، لأنها تحبه يقول الراوي: «أنا لا أتشبث بالحياة سوى لأشتم رائحة ابني من جديد، إنه الميناء الوحيد فوق هذه الجزيرة... لا، قامت. برودة فعل مباغته، لا تقلقه، أنا بخير، أنا بحاجة فقط لأستمع إلى نبرة صوته، لأتحسس أنفاسه فوق خدي، لا أحد لي سواه سأحس بنفسي أقل وحدة هناك، لن أبرد كثيرا في قبري إذا ما كان لدي الاعتقاد أنه بخير...أصدقك ليس لك أي ذريعة كي تكذب عليا لكن الأم مثل الطفل تحتاج إلى لمس الأشياء كي تصدق. جاؤوني بالطبيب إلى سريري مرات عديدة، قال إنني انتهيت لكن جثتي ترفض قبول ذلك. قلبي غير مطمئن، هل تفهمني؟ دقيقة واحدة من وقته كافية لصناعة سعادتي، سأرحل بعدها دون حسرة»¹، وهنا يتجلى مدى حب الأم لابنها ومدى حرصها على سلامته على الرغم من جفائه، ولربما كثرة انشغاله كانت السبب في اغتراب السيد راجا عن عائلته وعن أمه.

أما عن أبناء السيد راجا فاغترابهما عنه يفوق اغترابهما عن بعضهما وعن أمهما فهذا ابن السيد راجا جنيور الثري المنحرف يقول الراوي: «توقفت السيارة قبالة واجهة زجاجية، كان هناك رجل بلباس الكيمونو يرتاح على كرسي قلاب على حافة مسبح، بين شفتيه سيجار هائل كالطيف، بعينه نظرة سيدة...تنبعث منه رائحة الثراء على مئات المسافات في محيط دائرته»².

وكذلك قول الراوي: «...ستأتني بامرأة، إنها بانتظارك في "فوكا مارين" أنت تعرف على الأقل أين يقع هذا المكان»³، فقد كان جونيور يتعاطى المخدرات ويشرب الخمر ويعاشر نساء كثيرات، إلى الحد الذي أودى بحياة إحداهن ذات مرة بجرعة مخدر يقول الراوي: «...تسلقت سلالم حلزونية. ضوء خافت راح يقطر من عمق الرواق. كان جونيور هناك ببذلة الكيمونو، مرتميا فوق الأريكة ورأسه بين يديه وهو يئن.

¹ – Yesmina Khadra: *À Quoi rêvent les loups*, p54.

² – *Ibid*, p38

³ – *Ibid*, p39.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

كانت هناك فتاة عارية، مستلقية على ظهرها، بذراع مائلة على حافة السرير، عيناها مفتوحتان عن آخرهما وهما يحدقان في السقف... الخطأ خطوك، قال جنيور بصوت حاد من أين تدبرت ذلك المخدر اللعين؟ عند مموننا المعهود... أخذ معصمها، بلع كلمة "تبا" ثم ترك الذراع فسقطت باسترخاء. إذ ذاك فهمت أبعاد الضرر. الفتاة مراهقة تفتحت كالزهرة لتوها لن تستفيق بعد هذا، وجها الطفولي به مسحة من السكينة التي لا تخدع، كانت ميتة»¹.

إذن الابن كان مغتربا عن أهله عن والديه، لقد كانت له حياته الخاصة المتمثلة في العمل الخمرة والنساء، لقد غرق في عالم الرذيلة الذي لا عودة منه، والأمر ذاته بالنسبة لأخته صونيا التي كانت مخطوبة لشخص أصولي فشلت علاقتها به بسبب خيانتها لها.

فالفراغ العاطفي الذي سيطر على أجواء البيت، حوَّله إلى جسم من غير روح؛ لأن الجانب الوجداني والروحي لم يكن موجودا بل كانت هناك قيم مادية أفقدت هذا الجانب مكانته وقول الراوي على لسان السيدة راجا يوضح ذلك: «كانت عائلتنا الأحسن في العالم منحتني ثروتي أفراحا عارمة أما سعادتي الحقيقية فجاءتني من حب أبوي... المال ما هو سوى وابل من التنازلات يا سيد وليد»²، فانهيار علاقتها الزوجية والأسرية جعل كل واحد من أفراد العائلة يعيش اغترابا اجتماعيا جعله يتجرع مرارة الوحدة والضياع.

فتتبعنا للتفاصيل الدقيقة والبسيطة لحياة عائلة السيد راجا صالح، ما هي إلا محاولة منا للكشف عن هذه الانشاقات في العلاقات الأسرية السامية، والتي أسهمت بطريقة ما في زعزعة هذه القيم، فغدا كل منهم غريب عن الآخر.

إذن أسرة راجا نموذج يمثل الأسر العربية عامة والجزائرية خاصة في هذا العصر حيث أضحى التفكك شعارها مما صعب سبر أغوار أفرادها، فالمجتمع لا يعبر عن جماعات بقدر ما يعبر عن فرديات، فغياب عمليات التواصل وقنواته وكذا التفاعل بين أفراد الأسرة وتلاشي روابط المودة والتعاطف والألفة، وضعف أواصر المحبة والروابط الاجتماعية داخل الأسرة زادت من حدة شعور الفرد بالاغتراب.

¹ – Yesmina Khadra: *À Quoi rêvent les loups*, pp71-72.

² – *Ibid*, p72.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

ب- اغتراب الفرد عن المجتمع وقيمه:

لقد تطرقت الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية إلى موضوع اغتراب الإنسان الذي لم يعد قادرا على فهم واقعه ومعاشته، وهو ما تسبب له في اغتراب وعزلة شديدين فاللإنتماء سمة بارزة تعرف بها الكثير من الشخصيات، داخل مجتمع يقيد الحريات ويحاصر الذات ليفصلها عن هذا المجتمع، وقد يصل الحد معها إلى الثورة والتمرد عليه ثورة تهدف إلى إيجاد البدائل لواقعه.

فالإنسان العربي عامة والجزائري خاصة يولد في أجواء من التسلط والقمع والإكراه ويكبر في مجتمع مليء بالقمع والقهر، لينتهي به المطاف مكبلا في زنزانة الخوف والرعب مهددا من كل صوب وحذب، فالذات تعاني الرهاب والخوف مما يدخلها حالة عدم الاستقرار نتيجة تأثرها بما يحدث في الوطن من خراب ودمار.

ففي ظل نظام اجتماعي تقليدي تفككت أوصاله لم يعد قادرا على منح المرأة الحماية والأمن، بسبب انهيار القيم التقليدية الأصلية ولم تبق إلا شعارات لا معنى لها، فلم يبق هناك نظام بديل يضمن الحقوق والكرامة للمرأة مما زاد في قهرها وظلمها وشعورها بالاغتراب في مجتمع يعج بقيم الزيف والنفاق لقد تفككت الأسرة وغابت العادات وقطعت الروابط تقول الروائية مليكة مقدم عن هذا في روايتها "الممنوعة": «مزقت المدينة أفراد القبيلة بإغراءاتها المتنوعة-الآن-أنهى البعد ما تبقى من العلاقات وحطّم التضامن، الآن تجد المطلقة أو الأرملة نفسها في الشارع مع أطفالها لا أحد يستطيع إعالتها أو حمايتها لا أحد...الخ»¹ ففي مجتمع كهذا يشعر المرء بالاغتراب.

فسلطانة عانت الاغتراب عن مجتمع القرية منذ طفولتها، إذ أنه لم يقبل بها لأنها مختلفة ابنة رجل أجنبي، مما جعلها تتعزل عن مجتمعها بسبب تعليمها، فالعزلة والغربة تلحق كل من لا يشبه الآخرين ويخترق اجتماعهم ويقينياتهم التي يتحصنون فيها، تذكر نساء القرية لسلطانة أن معاملة والدها لها ولأمها هي السبب في جعلها تهمش وتبدو أجنبية.

¹ - مليكة مقدم: الممنوعة، ص178.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

فالاختلاف والثقافة في ظل العقليات المغلقة خطيئة ثمنها الاغتراب والعزلة لقد عاشت سلطنة المنفى في وطنها.

ويقوم الإنسان الذي يعاني اغترابا اجتماعيا بالخروج الكلي عن كل القوانين الاجتماعية السائدة، بل أكثر من ذلك التمرد عليها، ومحاولة إسقاطها وبخضع ذلك لرؤيتين إحداهما سلبية والأخرى ثورية إيجابية هدفها تغيير القانون الاجتماعي، ويكون هذا الإنسان متعدد الأبعاد والأنشطة والرغبات والاهتمامات وكذا الانتماءات، فيأتي إلى العالم تقيده مجموعة من الأغلال التي لا دخل له فيها، سواء الوراثة أو الاجتماعية منها، وإنما كان مجبرا على اكتساب موروثاته وجنسه ولغته وثقافته وعقيدته وعاداته وتقاليده ومجمل وعيه.

تتقشى القيم المادية في المجتمعات التي تعيش فيها شخصيات أغلب الروايات الجزائرية سواء المكتوبة بالعربية أو تلك التي اتخذت من الحرف الفرنسي أداة تعبر به — وهي محل الدراسة — فالمرء وفق هذه القيم يقيم وفق ما يقابله من أصفار، وبذلك تترسب هذه القيم إلى سلوكات الأفراد، ويعد "نافع وليد" في رواية "بماذا تحمل الذئاب؟" نموذجا للشخصية التي تعاني من هذه الظاهرة حيث تبدأ معاناته من لحظة دخوله بيت السيد راجا ومقابلته لرئيس الخدم الذي لم يعامله كما يجب يقول الراوي: «انكفأ رئيس الخدم عن مد يده لتحتيتي أو الإشارة إلى أريكة استقبلني ببرودة في مكتبه الذي يدخله ضوء خافت من نافذة كبيرة... كان يرغب في السيطرة عليا روحا وجسدا، أن يبعث بي إلى الأسفل في دور العبد المأمور»¹ فحفاوة المقابلة وبرودة التحية ليست نابعة من أهمية الرتبة أو الوظيفة بل من ما يؤديه صاحبها من منافع.

أما بالنسبة لفقدان القيم الوجدانية، فهي ناجمة عن تفشي القيم المادية، ويظهر ذلك في علاقة صونيا ابنة السيد راجا بخطيبها الذي تقدم لخطبتها لأنها ثرية ولم تجمعها بها علاقة حب كما كان يدعي يقول الراوي على لسانها: «الحقير، الحقير، قالت صونيا بطريقة مسعورة الوصولي الساقط. أيتجراً على فعل هذا في حقي، أنا ابنة صالح راجا؟ من أجل فتاة

¹ — Yesmina Khadra: *À Quoi rêvent les loups*, p25.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

مغرية من الأحياء الفقيرة؟... سأبهدله في كل مكان، إذا ما استقبله الناس فبفضلي. أنا التي صنعتها. لم يكن في السابق شيئاً يذكر ولا شيء، إذا كان يعتقد بأنه وصل إلى القمة فعليه أن يدخل أصبعه في عينيه حتى المرفق».¹

يسود قانون الغاب كثيرا من الشخصيات التي تتعامل مع الآخر ضمن منطق القوة ويمر هذا القانون بثلاث مراحل، الأولى تقوم فيها الشخصيات القوية باستغلال الآخر القابع تحت سيطرته بحكم ضعفه، إذ تؤمن الشخصية بهذا المنطق ليصبح منطلقها للتعاطي مع الآخر كمنطلق حميد الملاك في رواية "بماذا تحلم الذئب؟" فإما أن تقهر أو تصير أنت المقهور يقول الراوي: «نعم ولكن أصحاب الزيف من الفدرالية أبدوا جشعهم فقلت لهم: لن أقتسم معكم. طردوني. قضيت سنتين في مرسيليا. رحلت المباريات الأولى قبل الآجال وفجأة وجدتي أغسل الأواني في أحد البارات. كيف ذلك؟

تكفل أصحاب الفدرالية بسن قوانين أخرجوها من عمق خليط ما وألغو كل عقودي. عدت إلى البلد كي أبدأ من جديد، ألبوا الطاقم الفني ضدي ثم ألقوا بي خارج الفريق الوطني، لماذا؟ أرادوا استغلالي وسيلة نجاح أكيدة. أنا آخذ للكلمات وهم يأخذون الأموال. هذه هي الحال في الفيدرالية بلال الروجي، رشيد يانس، القوشي كان بإمكانهم كلهم أن يصبحوا أبطال العالم لقد تم تحطيمهم فقط لأنهم رفضوا قبول المخططات الجهنمية للصوص الرياضة... بلادنا يا صديقي ليست للأحصنة الأصيلة حتى تتمكن من العيش عليك أن تكون حمارا أو جوادا رديئا».²

أما المرحلة الثانية: فتبدأ بعد ذلك المحركات الاجتماعية الذاتية بتعزيز هذه المقولة وزرعها في الآخر الأضعف لتثبتها في اللاوعي لإضفاء مشروعية استخدام منطق القوة ضده كما هو الحال مع نافع وليد وما يعانيه مع عائلة راجا إلى الحد الذي فقد فيه كرامته وعزته يقول الراوي: «ألعن نفسي بكل الأسماء حتى في النوم أقيس ضعف أنفتي بعدم

¹ – Yesmina Khadra: *À Quoi rêvent les loups*, p65.

² – *Ibid*, p37.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

تجرئي على مغادرة هذه المهنة، لم أكن بحاجة إلى وسائل جبارة. لقد تخلت عني عزة النفس، هي أيضا مصعوقة بحجم التنازلات التي قدمتها، بين غلق الباب الخلفي أو الإنمحاء اخترت الزحف، بكل بساطة هل هو تعذيب للذات؟... ربما وصولي إلى هذا المستوى من العبودية جعلني أعتقد أننا لا نحصل سوى على ما نستحق».¹

أما المرحلة الثالثة فيسري قانون الغاب داخل الشخصيات الأضعف ولا تعود تحترم إلا من يستخدم القوة ضدها فقد مل نافع وليد من كتابة طلب لكي يركب جهاز الهاتف في منزله فطلباته لم تلق صدى لدى السلطات لكن نظرا للمركز الذي تحتله عائلة راجا، فإنه بمجرد أن صار يعمل لديهم وتقدمت هي بطلب فإن الأمر احتاج إلى يوم واحد ليركب الهاتف في بيت نافع يقول الراوي: «...منذ سنوات عديدة وأنا أبعث الطلب تلو الطلب وأحاول تقديم الرشاي للعامل تلو الموظف وأرسل تذكرة تلو رسالة التماس من أجل الحصول على خط هاتفي دون جدوى، كان يكفي ترك عنواني لدى سكرتيرة عائلة راجا كي يتم تركيب الهاتف في نفس اليوم.

- هل رأيت؟ صرح دحمان بتعجب. هذه أفضل الأثرياء التي لا يتم انتظارها طويلا».²

كما أن النفاق الاجتماعي والكذب الذي يسيطر على حياة المجتمع يقوم بخلخلة العلاقات وتغييب الحقيقة نتيجة لضعف من يحمل الحق والخير والحقيقة، أمام طغيان النفاق يحدث اغتراب قسري نتيجة لاغتراب المجتمع عن قيمه، لينعكس على النتاج الثقافي الحضاري لتلك المجتمعات، فلقد كان نافع وليد يرى حوله مجتمعا تخلقى عن التقاليد وتتصل من العادات وقطع صلته بالقيم النبيلة، مجتمع ينمي أفكاره المسبقة ويتمسك بامتيازاته، لذا استحق أفراد العيش والموت وسط الكذب والنفاق.

هكذا إذن حدث اغتراب الذات عن مجتمعا وقيمه، في ظل حالة انهيار القيم التي تنظم السلوك وتوجهه، حيث يشعر الفرد «بأن الوسائل غير المشروعة هي المطلوبة اليوم

¹ - Yesmina Khadra: *À Quoi rêvent les loups*, p51.

² - *Ibid*, p31.

الفصل الرابع — غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

وأنه بحاجة إليها لإنجاز أهدافه»¹، حيث تضيع القيم وتندثر في خضم إشباع الحاجات والرغبات الخاصة، التي تتوسل الأفعال السلبية طريقة لتحقيقها مما يغرق المجتمع في مهاوي الرذيلة، ويكسر الحواجز القيمية التي تُعدُّ تَعَدِّيا صارخا على الخطوط الحمراء التي تواضع المجتمع على عدم خرقها، وبذلك ينكشف عمق الشرخ الذي أصاب القيم فأغرقها في متاهات الفساد والآفات الاجتماعية.

¹ - يحي الجبوري: الحنين والغربة في الشعر العربي، ص19.

خاتمة

خاتمة:

بعد هذه الجولة الذي قضيناها في رحاب الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية من خلال تعاطيها مع مسألة البحث عن الذات في رحلة بحث مضني عن الماهية والوجود والانتماء والهوية، في محاولة منها لعلاج كل الأزمات والإشكالات التي تواجه الذات خلصنا إلى جملة من النتائج نوردتها كالآتي:

- كشفت هذه الإبداعات في ما وراء الحاجز اللغوي المستعار عن الوعي بعمق علاقتها بالجزائر وانتمائها لها وطنا وأمة، حيث أكدت على أصالتها، وأصالة مبدعيها وانتمائهم إلى الجزائر فعلى الرغم من اختلاف اللغة، إلا أن القضايا التي طرقتها والقيم التي حضرت في إبداعاتهم تؤكد هويتهم الجزائرية، كما أن قدرتهم الفائقة على تطويع اللغة المستعارة من خلال تحميلها أفكار جزائرية تعبر عن المجتمع الجزائري وعن ثقافته، وارتباطها بآلام الروح والطن خير برهان على أصالتها، مؤكدة في الوقت ذاته على أن اللغة المستعارة لم تكن عائقا بالقدر الذي كانت فيه عامل ثورة وتمرد لإيصال صوت الذات إلى الآخر.

- جاءت هذه الإبداعات من موقع المحاور مع الآخر بغية فهم الذات الجزائرية وهذا لا يتم إلا من خلال فهم الآخر وهو الأمر الذي أكده مولود فرعون في إحدى رسائله التي بعث بها إلى الكاتب الفرنسي ألبير كامو حيث قال: «كنتم أول من قال لنا: هكذا نحن... فأجبناكم عندئذ نحن من جهتنا... وبهذه الطريقة بدأ الحوار بيننا وبينكم»، فقد وضعت اللغة المستعارة الذات المبدعة في مواجهة بين ذاتها ومجتمعها وثقافتها من جهة ومن جهة أخرى وضعتها في تقاطع مع الآخر.

- العلاقة بين الذات والآخر يحكمها العداء والرفض، على الرغم من جسور التواصل التي مدت، وسبل اللقاء التي هيأت، إلا أن الصراع والجدل بين طرفي الثنائية ظل قائما، فخلاص الذات يكمن في فهم الأنا ونقدها من خلال فهم الآخر

- وفهمه، دون التماهي والذوبان التام إلى الحد الذي يعمل من الذات نسخة عن الآخر، وإنما وجب الحفاظ على مسافة من الاختلاف.
- أظهرت هذه الإبداعات أن الذات الجزائرية مبنية على رفض الآخر الأجنبي المختلفة دينا ولغة وحضارة وكذا على رفض الآخر الأهلي المختلف عنها تطرفا وعنفا.
- كشفت هذه الرواية عن ضرورة الجمع بين مكتسبات الذات الجزائرية وخصوصيتها الجوهرية، والاستفادة من الآخر الغربي بقدر حاجتها إليه، لتستعيد نهضتها دون الانسلاخ عن هويتها.
- رصدت هذه الإبداعات الصادرة في هذه الحقبة عمق الصراع بين الذات والآخر، فلأن كان التركيز فيما مضى على غطرسة الآخر في مقابل ذات مضطهدة، فما يمكن ملاحظته الآن عودة العلاقة بين طرفي الثنائية إلى الندية، فاستيعاب الآخر لا يتم دون استيعاب الذات وفهم ماهيتها، بحيث أن وعي الذات بأنها يؤهلها حتما للوعي بالآخر.
- لقد تجاوزت الأنثى الكاتبة الآخر الرجل الذي شكل حضورا تيمة ملاصقة لتعبير الذات الأنثوية عن أنها، فأصبحت ذاتا تبحث عن هويتها مقابل آخر لا يعترف بها كائنا مستقلا، ذات يبحث عن هويتها في مقابل آخر مستغل، وآخر معتدي داخلي، ذات تبحث عن هويتها في مجتمعات لم تعطها حقها، ذات تبحث عن خلاصها الروحي، ذات تبحث عن وجودها المستقل عن الرجل.
- لقد أولت الروايات المدروسة عناية كبيرة بالتأزم الذاتي وتأثيره على العلاقة بين الذات والآخر، تأزم ينجم عنه الأطراف والعنف، وهو الأمر الذي دفع بالروائيين إلى توجيه دعوة إلى التعايش السلمي والاعتراف بالآخر، وإدانة التناحر الداخلي والتناحر الديني مع الآخر (الأجنبي أو الأهلي) وإدانة العنف بكل أشكاله.

- أكدت هذه الإبداعات على ضرورة حفظ الذاكرة وصيانتها، لأنها الوعاء الذي يستوعب القيم الثقافية للأمة، ويحرص على تحصينها وبلورة موقفها من الحياة والوجود، فخصوصية أي مجتمع تكمن في قدرته على تشييد هويته وتجسيد قوته من خلال عملية الإبداع الأدبي.
- كشفت هذه الإبداعات أن انغلاق الذات على نفسها ورفضها الآخر يجعلها تقف ضد نفسها وضد كل من لا يشاطرها الرأي والمعتقد حتى وإن كان جزء منها، كان لزاما والحال هذه الدعوة إلى الانفتاح على السانية لا تحدها حدود، ولا توقفها عقبات في عالم منسجم مع نفسه يقوم على الاختلاف والاعتراف بالآخر.
- شكلت هذه الإبداعات رحلة بحث عن الباطن وعن الذات الإنسانية التي تعاني الضياع والتفكك، فأبت إلا أن تقضح هذا الوضع الذي أوشك أن يعصف بالإنسانية، في محاولة جادة لإيجاد حلول علاجية تهدف إلى إنقاذ الذات المستهدفة، حيث راحت تصور أزمة الوجود المتطلع إلى الخلاص من واقع مأساوي من خلال ابتكار صيغ من التعبير تعكس تقاطع الوعي الذاتي بالوعي الاجتماعي.
- أخذت اللغة الفرنسية تحت أقلام المبدعين الجزائريين طابعا مختلفا، حيث قاموا باستحداث وسائل تعبيرية أكثر ملائمة للواقع الجزائري وخصوصيته الثقافية، وراهنّت على قدرتها الفائدة في استيعاب الفكر الجزائري والتعبير عنه تعبيرا يتوافق مع مزاج الذات الجزائرية وطموحها وتصوراتها.
- كتابة المحنة هي الوجه الآخر لمحنة الكتابة بل المرادف الحقيقي للعقل والروح والوطن والثقافة والهوية، فالكتابة تعد رحلة بحث عن الذات، كونها تمثل ملاذ المبدع الوحيد يهرب إليه من عنف الواقع وعفونته، إنها فعل المقاومة، بل فعل الحياة حيث يتحول الوجود المادي إلى وجود لغوي متخيل، تهرب الذكريات إليه

أملا في انبعاث جديد وحياة جديدة، وعليه تكون هذه النصوص وفق هذا المنظور فعل مقاوم وإثبات وجود.

- المثقف في هذه المتنون كان إنسانا سلبيا مصدوما لا يملك القدرة على التغيير، مما أجبره على الانسحاب والانكفاء على الذات، متحولا إلى شخص انهزامي، كون الثقافة في وطنه أعدمته، وهمش هو كذات.

- كشفت هذه الروايات عن عجز الذات في ظل هذا الوقع البائس عن إثبات وجودها، لأنها لم تتمكن من الصمود أمام المتغيرات، لتقف عاجزة عن الاستمرار، وهو الأمر الذي أدخلها دوامة الحيرة بين قبول ورفض الراهن بالتضحية بأساسياتها التي دافت عنها ضد المحتل أو ضد من يحمل أفكاره وثقافته، أو الموت من خلال الاستسلام للواقع، فكانت النتيجة انشطار الذات الجزائرية.

- أبانت هذه الروايات حقيقة هامة من خلال عرضها لعمليات اغتيال رموز الثقافة الجزائرية، ألا وهي الكتابة كانت خيار المثقف الوحيد لإدانة كل أشكال الإهمال والتهميش اللذين عانت منهما الذات المثقفة.

- لقد اتخذت هذه الروايات من أزمة الوطن موضوعا لها، فصورت الواقع المؤلم كما هو، لكن برؤى إبداعية فنية ترفض أن تكون صورا مكررة، حيث صورت الأزمة بمختلف أبعادها النفسية والأيدولوجية والاجتماعية والسياسية، فجاءت محملة بقلق الذات وألم المجتمع الجزائري، فكانت تحديا للموت ورهانا على الحياة.

- صورت هذه الإبداعات وطنا فقد قيمته، ومجتمعا يعج بالفساد والظلم، مجتمع تراجعت فيه قيم الخير وانمحي فيه الأمان، وطن انعدمت فيه الطمأنينة، ليستأثر القتل في أبشع صورة بالسيادة المطلقة، لقد ضاع الوطن، واستبيحت فيه الحرمات، وأضحى وطنا تساوى فيه القاتل بالمقتول.

-تمكنت هذه الروايات من تعرية الذات، لتكشف عن تحولها بعد فقدانها كل وسائل الدفاع عن نفسها وعن الثقافة والوطن والهوية إلى ذات متوحشة تمتن القتل وتتفنن في ممارسته.

-عاجت هذه الروايات إشكالات الهوية والانتماء، فأظهرت الوعي بالهوية المتصدعة الناجمة عن استغلال الآخر للذات التي تعد جزءا منه، وجسدت الهوية المنغلقة المتمسكة بالانتماء الديني ودعت إلى هوية مفتوحة تتجاوز الانتماءات الضيقة، كما رسمت معالم هوية مأزومة بسبب ما يجري في الوطن.

-مرحلة بناء هوية الذات المبدعة هي مرحلة أزمة حيث تسعى إلى تفتيت سقف الأفكار والمواقف لتتعرف على ذاتها وتحاول تحقيقا مع تحديد القيم التي ستبناها والاتجاهات التي ستختارها لتحديد طريقها وحياتها، إنها ولادة ثانية.

-لقد أصبح لزاما على الفرد المنتمي إلى الإنسانية في عمومها أن يدرك أهمية التشارك الإنساني، مع الحفاظ على عناصر هويته جاعلا الانتماء الإنساني أهم انتماءاته لمواجهة كل الأخطار التي تهدده وتهدد العالم بأسره.

-كشفت روية الأزمة المكتوبة بالفرنسية عن وعي خاص من لدن الذات الروائية التي عرفت كيف تفضح -بكثير من الجرأة- حقيقة ما يحدث على الرغم من عمليات التصفية للمتقنين، لقد أثبتت بما لا يدع مجالا للشك أن الإرهاب كان نتيجة حتمية للظروف السياسية والاجتماعية والتاريخية.

- الأيديولوجيات التي وظفت في هذه النصوص تتحاور وتتصارع كما في الواقع وكل منها يرفض الآخر ويسعى إلى تجاوز أطروحاته النظرية، وإظهار عجزها في إيجاد الحل الأمثل، فالرفض سمة كل أيديولوجيا، فالملاحظ في المدونات المدروسة أثناء رصد الكاتب لهذه الأيديولوجيات عدم حياديته أثناء طرحه لموضوع الأزمة، إذ ركز

أثناء عرض أحداث الرواية على إظهار سلبيات الجماعات الإسلامية وتطرفها الديني وتعسفها وقهرها للمتقف والمواطن.

- عكست هذه الروايات ظاهرة الاغتراب بكل أنماطه، لتؤكد الواقع المتأزم لشخصياتها التي تعاني معاناة عميقة من حالات اغترابية قاسية، فتجسيد الألم والمعاناة الاغترابية من قبل الروائيين ما هي إلا إدانة لذواتهم المنهارة بعد غياب القيم الإنسانية والروحية وسيطرة المادة.

- لقد أبانت هذه الروايات أن غربة الكاتب واغترابه هو في حقيقته غربة جيل ووطن غربة ذات تتشد السعادة والطمأنينة في وطن فقد قيمته ووحدته ومعناه.

- تمكن الروائيون من تجسيد الاغتراب تجسيدا فنيا كشفوا من خلاله عن الواقع الحي وعكسوا صوره بلغة وأساليب فنية مثلت الأجواء الاغترابية تمثيلا صادقا، أضاف للروايات مسحة جمالية وزادها تماسكا فنيا.

- بينت هذه الروايات أن زمن الشخصيات كان زمنا إشكاليا مرضيا، حيث عاشت الشخصيات أزمنة مختلفة، تمثلت في زمن الهوان، زمن القلق، زمن الحزن، زمن الصراع، إنه زمن مأساوي سواء الماضي أو الحاضر الذي هو امتداد له، هو زمن العنف.

- تمكن الزمن من تجسيد وتصوير الملامح الاغترابية للأفراد لأنه لم يعد مجرد إطار زمني يرسم أحداثا وقعت أو ستقع، بل اتسع ليشمل المجالات النفسية للأفراد والجماعات.

- إن استخدام تقنيتي الاستباق والاسترجاع في الزمن، تأكيد على الفجوة التي يعانيها المغترب في حاضره المأساوي، والملاحظ على نماذج المدونات غلبة تقنية الاسترجاع على الاستباق وهو اعتراف من قبل الراوي ومن خلفه الروائي على حنينه للماضي

الجميل، ماضي يجسد قيم الجماعة وروحها، وعزوفه عن الاستباق يؤكد تخوفه من المستقبل لغموضه وضبابيته.

- كشفت هذه الروايات عن تحول المكان إلى مكان غريب خالي من الألفة والانسجام وإسقاطها لمشاعر الضيق والعزلة والوحدة، وعليه وفق الروائيون في شحن المكان بمختلف الدلالات التي تعبر عن اغتراب الذات عن واقعها بسبب الظروف المعقدة التي عاشتها والتي أفقدتها توازنها النفسي، فنشأ لديها هذا الشعور بالاغتراب في المدينة والبيت والشارع والقرية، حيث فقدت دلالاتها السابقة وأصبحت رمزا للقتل والدمار، وفقدان الأمن والحماية، وفي مكان كهذا تضع الشخصية وتفقد إحساسها المألوف بالمكان.

- لم تبرز هذه الروايات فضاءات الإقامة الاختيارية بشكل مكثف، مما يوحي للقارئ بدلالات التشرد والضياع التي أصبحت قيمها لصيقة بكل فضاء نستقرئ بنيته، وهذا ما يفسر خضوع الوصف لمنظور الراوي من جهة وطبيعة النص المقروء من جهة أخرى حيث يتنافى الشعور بالحماية والألفة التي بإمكان هذه الأمكنة توفيرها في ظل زمن الخوف وزمن المادة الزائفة.

- تمكنت هاته الروايات من استبطان الذات والوجدان الإنساني من خلال عملية الوصف.

- سايرت لغة هاته المتون مضامين موضوعاتها، فجاءت عنيفة متوترة، موحية بالألم والتمزق والرفض والاغتراب، بعيدة عن اليقينية مثيرة للتساؤلات أكثر مما هي مقدمة للإجابات وهذا لا ينفي أنها اتسمت بلمح شاعري دافئ، يكشف عن الحنين الدفين لزمن الاستقرار والأمن، فكانت مليئة بالجمال والتخيل، فنقل الواقع لا يعني بالضرورة السذاجة والسطحية في الطرح بقدر ما يوحي بدرجة من الاستيعاب والفهم.

- لم تكن اللغة الفرنسية عائقا لهؤلاء الأدباء، فعلى الرغم من غربتهم واغترابهم فيها، إلا أنها لم تقف حائلا بينهم وبين مجتمعهم الجزائري، لم تستطع النيل من شخصيتهم

- وأصالتهم، بل على العكس من ذلك غدت عاملا من عوامل الثورة وتحرير الذات وإثبات فاعليتها.
- الكتابة بلغة الآخر على الرغم من مشاعر الاغتراب التي يعانيتها المبدع، إلا أنها تعد تحديا لإظهار الثقافة الجزائرية وذلك من خلال التعبير بغير اللغة الأم، فقد شكلت هاته اللغة أهمية بالغة في الدفاع عن الهوية الوطنية بكل ثوابتها ومقوماتها.
 - هذه الروايات هي روايات المغربين في لغة الآخر المؤمنين بوطن لا يعترف بالحدود ولا بالفوارق اللغوية ليحدد الانتماء والهوية.
 - لقد أبرزت هذه الروايات اغتراب الإنسان عن ذاته وعن مجتمعه الذي رفض الاندماج معه نظرا لتقهقر أعرافه وانحلال أخلاقه، واختلال موازينه.
 - ارتبطت هذه الروايات بذاكرة مؤلفيها التي كانت تيمة مهمة ومركزية، فشعور الذات بالغربة والاغتراب والفقدان، جعلها تعود إلى الذاكرة من أجل التخلص من ثقل الواقع.
 - إن الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية التي سعى الروائيون من خلالها إلى التأكيد على الهوية الوطنية، في سعيها لإثبات ذاتها أيام التحولات الفارقة التي عرفتها الجزائر، حيث يتقاطع الذاتي والوضوعي والواقعي بالتخيلي، بفاعلية فنية تعكس عمق التجربة وجمالية التعبير.
 - فقد تمكن كتاب هذه الروايات من صياغة أعمال أصيلة ذات نسيج تتحد حبكة خيوطه بألوان مختلفة، أعمال رائعة تدل على أصالة في الفكر، وعمق في الثقافة، ورهافة حس فني للتصوير وحكمة معالجة، وروعة خيال.
 - هذه الروايات تمكنت من أن تؤرخ لفترة حرجية من تاريخ الجزائر مرجعيتها العنف، ورحلة البحث عن الذات الضائعة بين شطوط الحياة.



قائمة

المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

❖ المصادر:

- 1- Assia Djebar: *Loin de médine*, éditions Albin mechal, paris, 1991.
- 2- Mohammed Dib : *simorgh*, éditions Albin michal, paris, 2003 .
- 3- Rachid mimouni : *l'honneur de la tribu*, éditions sédia, Alger, 2008 .
- 4- Yasmina khadra : *À quoi revent les loups*, éditons julliard S-A, paris, 1999 .

5- رشيد بوجدر: تيميمون، منشورات ANEP، الجزائر، ط2، 2002م.

6- محمد ديب: السيمورغ، تر: عبد السلام يخلف، دار سيديا، الجزائر، ط1، 2001م.

7- مليكة مقدم: الممنوعة، ترجمة: محمد ساري، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2008م.

8- ياسمين خضرة: بماذا تحلم الذئاب؟، تر: عبد السلام يخلف، سيديا، مطبعة مورغان، الجزائر، 2014م.

❖ المراجع باللغة العربية:

9- أبو القاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائري الحديث، دار الرائد للكتاب، الجزائر، ط5، 2007.

10- أحمد عبد الحليم: جدل الأنا والآخر (قراءات نقدية في فكر حسن حنفي)، مكتبة مدبولي الصغير، القاهرة، ط1، 1997م.

11- أحمد فلاح: الاغتراب في الشعر العربي في القرن السابع الهجري (دراسة اجتماعية نفسية)، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2013م.

12- أحمد منور: الأدب الجزائري باللسان الفرنسي نشأته وتطوره وقضاياها، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط، 2007م.

13- أحمد يوسف: علامات فارقة في الفلسفة واللغة والأدب، منشورات الاختلاف، الجزائر، منشورات ضفاف، لبنان، دار الأمان، الرباط، ط1، 2013م.

14- أدونيس: الثابت والمتحول، ج3، صدمته الحداثة، دار العودة، بيروت، ط4، 1983م.

الأخضر بن السايح:

15- جماليات المكان القسنطيني في رواية ذاكرة الجسد (دراسة نقدية تحليلية)، دار الأديب، وهران، د.ط، د.ت.

16- سرد المرأة وفعل الكتابة، دراسة نقدية في السرد وآليات البناء، دار التنوير، الجزائر، 2012م.

17- الشريف حبيلة: الرواية والعنف، دراسة سوسيونصية في الرواية الجزائرية المعاصرة، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2010م.

18- الطاهر لبيب: صورة الآخر العربي ناظر ومنظورا إليه، إعداد مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1999م.

19- العربي الزبيري، المثقفون الجزائريون والثورة، منشورات متحف المجاهد، الجزائر، 1995م.

20- أم الخير جبور: الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية دراسة سوسيونقدية، دار ميم، الجزائر، ط1، 2013م.

21- أمجد ريان: صوت صارخ في الشوارع، قراءة في أعمال إدوارد الخراط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، د.ط، 1988م.

22- أمل اليازجي ومحمد عزيز شكري: الإرهاب الدولي والنظام العالمي الراهن، دار الفكر، سوريا، د.ط، 2002م.

23- آمنة بلعلی: المتخيل في الرواية الجزائرية من المماثل إلى المختلف، الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، تيزي وزو، الجزائر، ط2، 2011م.

24- أمين معلوف: الهويات القاتلة، قراءات في الانتماء العولمة، تر: نبيل محسن، دار ورد للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط1، 1999م.

- 25-** أوريدة عبود: المكان في القصة الجزائرية الثورية، دراسة بنيوية لنفوس ثائرة، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، د.ط، 2009م.
- 26-** أيمن عبد الرسول: في نقد المثقف والسلطة والإرهاب، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2004م.
- 27-** بشير بويجرة: الأنا والآخر، منشورات دار الأديب، وهران، ط1، 2007م.
- 28-** ثامر إبراهيم الجهماني: مفهوم الإرهاب في القانون الدولي، دار الكتاب العرب، دار حوران، الجزائر، سوريا، ط1، 2002م.
- 29-** حازم خيرى: الآخر في مواجهة الذات العربية، دار مصر، المحروسة، القاهرة، مصر، د.ط، 2007م.
- 30-** حبيب الشاروني: الاغتراب في الذات، عالم الفكر، الكويت، مج10، العدد الأول، سبتمبر 1979م.
- 31-** حسن الواد: قراءات في مناهج الدراسات الأدبية، دار سراس للنشر، تونس، ط1، 1985م.
- 32-** حسن عجمي: السوبر حداثا "علم الأفكار الممكنة"، بيسان للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2005م.
- 33-** حفناوي بعلي: أثر الأدب الأمريكي في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، د.ط، 2004م.
- 34-** حفناوي بعلي: مدخل في نظرية النقد النسوي وما بعد النسوية، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2009م.
- 35-** حكيم أومقران: البحث عن الذات في الرواية الجزائرية، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، د.ط، 2005م.
- 36-** الحميد تركي: الثقافة العربية في عصر العولمة، دار الساقى، بيروت، ط1، 1999م.

- 37-** روزوماري شاهين: قراءات متعددة للشخصية، دراسة تطبيقية على شخصيات نجيب محفوظ، دار مكتبة الهلال، مصر، ط1، 1995م.
- 38-** رياض القرشي: النسوية قراءة في الخلفية المعرفية لخطاب المرأة في الغرب، دار حزموت للدراسات والنشر، اليمن، ط1، 2008م.
- 39-** زهرة ديك: ياسمينه خضرة "هكذا تكلم"، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ط1، 2013م.
- سامية إدريس:**
- 40-** الرواية الجزائرية الحديثة بين الهوية الثقافية والهوية السردية، المجلس الأعلى للغة العربية، أعمال اليوم الدراسي (الرواية بين ضفي المتوسط)، الجزائر، 2011م.
- 41-** تمثيل الصراع الرمزي في الرواية الجزائرية -دراسة في علم اجتماع النص الأدبي- منشورات الاختلاف، الجزائر، منشورات ضفاف، بيروت، ط1، 2015م.
- 42-** سعاد محمد خضر: الأدب الجزائري المعاصر، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، 1997م.
- سعد البازعي:**
- 43-** شرفات للرؤية، العولمة والهوية والتفاعل الثقافي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، ط5، 2005م.
- 44-** مقارنة الآخر مقارنات أدبية، دار الشرق، القاهرة، ط1، 1999م.
- سعيد يقطين**
- 45-** انفتاح النص الروائي، النص والسياق، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، ط2، 2001م.
- 46-** القارئ والنص، العلامة والدلالة، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، د.ط، 2002م.
- 47-** سهير عبد السلام: مفهوم الاغتراب عند هريبرت ماركيز، دار المعرفة الجامعية، الأزاريطة، مصر، د.ط، 2003م.

- 48-** سيزا قاسم: بناء الرواية (دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، د.ط، 1984م.
- 49-** شرف الدين مجدولين: الفتنة والآخر، بالاشتراك بين الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر، ودار الأمان، الرباط، المغرب، ط1، 2012م.
- 50-** صالح فيلالي: إيديولوجيا الحركة الوطنية الجزائرية، الأزمة الجزائرية الخلفيات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، مركز الدراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 1999م.
- 51-** صالح مفقودة: المرأة في الرواية الجزائرية، دار الهدى، عين مليلة، ط1، 2005م.
- 52-** طه وادي: صورة المرأة في الرواية المعاصرة، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1994م.
- 53-** عادل ضرغام: في السرد الروائي، الدار العربية للعلوم ناشرون، دمشق، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010م.
- 54-** عاطف عصبيات: أزمة المثقفين العرب، دراسة تحليلية في الأنتلجيسيا العربية، الدار العربية للكتاب، د. ط، د. ت.
- 55-** عباس عبد الحليم: قضايا القصة العراقية المعاصرة، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، العراق، د.ط، 1982م.
- 56-** عبد الرحمن بن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، ط1، 2004م.
- 57-** عبد الرحمن منيف: الديمقراطية أولاً، الديمقراطية دائماً، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط3، 1995م.

- 58- عبد السلام بن عبد العالي: ثقافة الأذن وثقافة العين، دار توبقال، الدار البيضاء، ط1، 1994م.
- 59- عبد الصمد زايد: المكان في الرواية العربية الصورة والدلالة، دار محمد علي للنشر، تونس، ط1، 2003م.
- 60- عبد العزيز شرف: المقاومة في الأدب الجزائري المعاصر، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1991م.
- 61- عبد الكريم الجبوري: الإبداع في الكتابة والرواية، دار الطليعة الجديدة، دمشق، ط1، 2003م.
- 62- عبد اللطيف صديقي: الزمان وأبعاده وبنيته، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1995م.
- عبد الله ركيبي:
- 63- الفرانكفونية مشرقا ومغربا، شركة دار الأمة للطباعة والترجمة والنشر والتوزيع، برج الكيفان، الجزائر، د.ط، 1993م.
- 64- القصة الجزائرية القصيرة، دار الكتاب العربي، الجزائر، د.ط، 2009م.
- 65- عبد المالك أشبهون: الحساسية الجديدة في الرواية العربية، روايات إدوارد سعيد نموذجاً، منشورات الاختلاف، الرباط، ط1، 2010م.
- 66- عبد المالك مرتاض: نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر (1925-1954م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1983م.
- 67- عبد المجيد حنون: صورة الفرنسي في الرواية المغاربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986م.
- 68- عبد الوهاب بن خليف: تاريخ الحركة الوطنية من الاحتلال إلى الاستقلال، دار طليطلة، الجزائر، ط1، 2009م.
- 69- عزت القرني: الذات ونظرية العقل، دار قرطبة، ط1، 2012م.

- 70- عزت حجازي: الشباب العربي ومشكلاته، عالم المعرفة، الكويت، د.ط، 1985م.
- 71- عزيز نعمان: رواية مابعد الحداثة-دراسة في نص "سيمورغ" لمحمد ديب، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2013م.
- 72- علال سنقوقة: المتخيل والسلطة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2000م.
- 73- علي العلوي: الذات المغتربة والبحث عن الخلاص الشعر المغربي المعاصر أنموذجا، دار الوطن للصحافة والطباعة والنشر، الرباط، المغرب، ط1، 2013م.
- 74- علي حرب: حديث النهايات "فتوحات العولمة ومأزق الهوية"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2000م.
- عمار بلحسن:
- 75- أنتلجنسيا أم مثقفون في الجزائر؟، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، ط1، 1986م.
- 76- في الأدب والأيديولوجيا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
- 77- عمر بوقرورة: الغربة والحنين في الشعر الجزائري الحديث 1945م-1962م، منشورات جامعة باتنة، الجزائر، د.ط، د.ت.
- 78- غالي شكري: الأدب والماركسية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1979م.
- 79- فتحي المسكيني: الهوية والزمان، تأملات فينوميولوجية لمسألة النحن، دار الطباعة للنشر، بيروت، ط1، 2001م.
- 80- فرانس فانون: معذبو الأرض، موفم للنشر، الجزائر، د.ط، 2006م.
- 81- فيصل عباس: الاغتراب، الإنسان المعاصر وشقاء الوعي، دار المنهل اللبناني، لبنان، ط1، 2008م.

- 82-** قادة عقاق: دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر، دراسة في إشكالية التلقي الجمالي للمكان، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، ط1، 2001م.
- 83-** كمال حماد: الإرهاب والمقاومة في ضوء القانون الدولي العام، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1423هـ.
- 84-** ماجد قاروط: المعذب في الشعر العربي الحديث في سوريا ولبنان من عام 1945م إلى 1985م، دراسات جمالية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، د.ط، 1999م.
- 85-** ماجد مورييس إبراهيم: الإرهاب...الظاهرة وأبعادها النفسية، دار الفرابي، الجزائر، ط1، 2008م.
- 86-** مجموعة من الأكاديميين العرب، الفلسفة النسوية، إشراف وتحرير عبود المحمداوي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2013م.
- 87-** مجموعة من المؤلفين: الهوية والتخييل في الرواية الجزائرية قراءات مغربية، دار أهل القلم، سطيف، ط1، 2008م.
- 88-** مجموعة من الكاتبات والكتاب: الكتابة النسائية، محكي الأنا، محكي الحياة، منشورات اتحاد الكتاب، المغرب، د.ط، 2007م.
- 89-** مجموعة من المؤلفين: الرواية العربية بين الواقع والإيديولوجية، دار الحوار، د.ط، 1986م.
- 90-** محمد الشيخ: المثقف والسلطة دراسة في الفكر الفلسفي الفرنسي المعاصر، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1991م.
- 91-** محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط، 2006م.

- 92-** محمد أمنصور: خرائط التجريب الروائي، مطبعة أنفوبرانت، فاس، المغرب، ط1، 1999م.
- 93-** محمد بوعزة: تحليل النص السردي، تقنيات ومفاهيم، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط1، 2010م.
- 94-** محمد راضي جعفر: الاغتراب في الشعر العراقي المعاصر، مرحلة الرواد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، د.ط، 1999م.
- 95-** محمد رسول: محنة الهوية مسارات البناء وتحولات الرؤية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، دار فارس للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2002م.
- 96-** محمد رياض وتار: شخصية المثقف في الرواية العربية السورية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د.ط، 2000م.
- 97-** محمد سالم محمد الأمين الصلبة: مستويات اللغة في السرد العربي المعاصر، دراسة نظرية تطبيقية في سيمانطيقا السرد، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2008م.
- 98-** محمد سبيلا: الحداثة وما بعد الحداثة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 2000م.
- 99-** محمد شوقي الزين: الذات والآخر، كتاب مشترك بين دار الضفاف بيروت ودار الأمان الرباط، ودار الاختلاف الجزائر.
- 100-** محمد عابد الجابري: المثقفون في الحضارة العربية، محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان.
- 101-** محمد عبد السميع زامل: الاغتراب لدى المكفوفين (ظاهرة وعلاج)، دار الوفاء، مصر، ط1، 2008م.
- 102-** محمد عبد المختار: الاغتراب والتطرف نحو العنف، دراسة نفسية اجتماعية، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، د.ط، د.ت.

- 103-** محمد عزيز شكري: الإرهاب الدولي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، د.ط، 1991م.
- 104-** محمد عمارة: مخاطر العولمة على الهوية الثقافية، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ط1، 1999م.
- 105-** محمد محفوظ: الحضور والمثاقفة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2000م.
- 106-** محمد مسلم: خصوصيات الهوية وتحديات العولمة، دار قرطبة للنشر والتوزيع، المحمدية، الجزائر، ط1، 2004م.
- محمد نور الدين أفاية:**
- 107-** الغرب المتخيل، صورة الآخر في الفكر العربي الإسلامي الوسيط، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2000م.
- 108-** المتخيل والتواصل مفارقات العرب والغرب، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1993م.
- 109-** مخلوف عامر: الرواية والتحويلات في الجزائر، دراسة نقدية في مضمون الرواية المكتوبة بالعربية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د.ط، 2000م.
- 110-** مصطفى الشاذلي: الاغتراب ظاهر في النقد العربي، مطبعة أنفو-برانت، قاس، فاس، المغرب، ط1، 2009م.
- 111-** مصطفى مرتضى علي محمود: المثقف والسلطة دراسة تحليلية لوضع المثقف المصري في الفترة 1970-1995م، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1998م.
- 112-** مها القصاروي: الزمن في الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2004م.

- 113-** نبيل سليمان: الرواية العربية والمجتمع المدني، الإرهاب-الديكتاتورية حقوق الإنسان، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2010م.
- 114-** نبيلة إبراهيم: نقد الرواية من وجهة نظر الدراسات اللغوية الحديثة، دار الغرب، مصر، د.ط، د.ت.
- 115-** نهال مهيدات: الآخر في الرواية النسوية العربية في خطاب المرأة والجسد والثقافة، عالم الكتب الحديث، ط1، 2007م.
- 116-** نور الدين مسعودان: مالك بن نبي بقلم معاصريه، دار النون للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط، د.ت.
- 117-** نور سليمان، الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرر، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1981م.
- 118-** واسيني الأعرج: اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، بحث في الأصول التاريخية والجمالية للرواية الجزائرية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م.
- 119-** ياسين النصير: الرواية والمكان، دراسة المكان الروائي، دار نينوى، دمشق، سوريا، ط2، 2010م.
- 120-** يحيى الجبوري: الحنين والغربة في الشعر العربي، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2002م.
- 121-** يحيى العبد الله: الاغتراب، دراسة تحليلية لشخصيات الطاهر بن جلول الروائية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الأردن، ط1، 2005م.
- 122-** يحيى اليحياوي: العولمة أية عولمة، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، د.ط، 1999م.
- 123-** يمنى العيد: الكتابة، تحول في التحول، دار الآداب، بيروت، ط1، 1993م.
- 124-** يوسف الأطرش: المنظور الروائي عند محمد ديب، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، الجزائر، د.ط، 2004م.

❖ المراجع المترجمة:

- 125- إدوارد سعيد: المثقف والسلطة، تر: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2006م.
- 126- إدوارد سعيد: صورة المثقف، تر: غسان غصن، دار النهار للنشر، بيروت، ط1، 1996م.
- 127- أريغوكون: البحث عن الذات "دراسة في شخصية ودواعي الذات"، تر: عنان نصير، دمشق، سوريا، د.ط، د.ت.
- 128- آلان تورين: نقد الحداثة، تر: أنور مغيث، المجلس الأعلى للثقافة الدار البيضاء، المغرب، د.ط، 1997م.
- 129- أليكس ميكشيللي: الهوية، تر: علي وطفة، دار الوسيم، دمشق، د.ط، 1993م.
- 130- بول تيلش: الشجاعة من أجل الوجود، تر: كامل يوسف حسين، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1981م.
- 131- بيل شكروفت وآخرون: الرد بالكتابة (النظرية والتطبيق في أدب المستعمرات القديمة)، تر: شهرت العالم، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، ط1، 2006م.
- 132- تزفيتان تودروف: فتح أمريكا، مسألة الآخر، تر: بشير السباعي، دار سينا للنشر، مصر، 1992م.
- 133- تيري إيغلتن: أوهام ما بعد الحداثة، تر: ثائر ديب، دار الجوار للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا، ط1، 2000م.
- 134- صامويل فليب هانتجتون: الإسلام والغرب وآفاق الصدام، تر: مجدي شرشر، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، ط1، 1995م.
- 135- عايدة أوديبي بامية، تطور الأدب القصصي الجزائري (1925-1967م) ترجمة محمد صقر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ت.

- 136-** عبد الكريم الخطيبي: الرواية المغربية، تر: محمد برادة، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، العدد الثاني، 1971م.
غاستون باشلار:
- 137-** جدلية الزمن، تر: خليل أحمد خليل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، لبنان، د.ط، 1996م.
- 138-** جماليات المكان، تر: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1984م.
- 139-** فاطمة المرنيسي: سلطانات منسيات نساء حاكمات في بلاد الإسلام، تر: فاطمة الزهراء أزرويل، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط2، 2006م.
- 140-** فرانسيس فوكوياما: نهاية التاريخ وخاتم البشر، تر: حسين أحمد أمين، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، مصر، د.ط، 1993م.
- 141-** فلاديمير ماكسيمكو: الانتلجانسيا المغاربية المثقفون أفكار ونزعات، تر: عبد العزيز بواكير، دار الحكمة، الجزائر، ط1، 1984م.
- 142-** لويس جان كالفي: حرب اللغات والسياسات اللغوية، تر: حسن حمزة، مركز دراسات الوحدة العربية، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، د.ط، 2005م.
- 143-** مالك حداد: الأصفار تدور في فراغ، تر: أحمد منور، دار الألمعية، الجزائر، ط1، 2012م.
- 144-** نقولا برديائف: العزلة والمجتمع، تر: فؤاد كامل عبد العزيز، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، د.ط، 1976م.
- 145-** مندولاو: الزمن والرواية، تر: بكر عباس، دار صادر، لبنان، ط1، 1997م.
- 146-** هانز ميرهوف: الزمن في الأدب، تر: أسعد رزق، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، د.ط، 1964م.

❖ المراجع باللغة الأجنبية:

- 147-** Abde lbebire-Khatib : *le romom maghrébine, suscité marocaine des édition rémis –Rabate, 2^{em} éd, 1979, 1^{er} ed 1968.*
- 148-** E.levinas. N. *Entre nous: Essais sur le penser a lautre ED, Guassort, Paris, 1991.*
- 149-** Fatima medjad: *Histoire et mémoire des femme dans L'ouvre d'assia Djebare, Synergies Algérie, N° 1, 2007.*
- Jean Déjeux:**
- 150-** *Littérature Maghrébine de la langue Française, édition Nomaan Sherbrooke, Québec, Canada, 2^{ème} édition, 1982.*
- 151-** Jean Déjeux: *Situation de la littérature Maghrébine de langue françaises, éd office des publication, Universitaires, Alger, 1982.*
- 152-** *Le petite La rousse, Dictionnaire multimédias (CD Rom), 2009.*
- 153-** Malek Hadad : *je t'offrirais une gazelle, Paris, Julliard 1959.*
- 154-** Malek Haddad : *L'élève et la leçons, Paris, Julliard 1960.*
- 155-** Mohammed Dib: *laiezza, édition Albin Michel , paris, 2006 .*
- 156-** Mourad Yelles: *les miroirs de Janus littératures orales et écritures postcoloniales (Maghreb-caroubes), OPU. Alger, 2002.*
- 157-** Naget Khadda: *Mohammed dib, cette intempestive vois, recluse, edition Edisud, Aix-en-Rrovences, 2003.*
- 158-** Najiha Regaieg: *L'amour la fantasia d'assia Djabar, de l'autobiographie à la fiction, revue Itinéraire et contacts de cultures, paris, Le Harmattan et université paris 13, N°27, 1 Semestre, 1999.*
- 159-** *Nouveau petit Larousse illustré, librairie Larousse, paris, 1949.*
- 160-** Patritia wangh: *métafiction, the theory and Practice of self. Conscious fiction Methueh, London, 1984.*

❖ المعاجم والموسوعات:

✓ المعاجم:

- 161- ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، تح: شهاب الدين أبو عمر، دار الفكر، بيروت، د.ط، 1994م، مادة (رهب).
- 162- الجرجاني الشريف: كتاب التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1983م.
- 163- الخليل بن أحمد الفراهيدي: كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي إبراهيم السامرائي، مطابع الرسالة، الكويت، د.ط، 1980م، مادة (غرب)، ج4.
- 164- الفيروز أبادي: القاموس المحيط، تقديم: أبو الوفا نصر الهوريني المصري الشافعي، منشورات محمد علي البيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2004م.
- 165- جبران مسعود: معجم الرائد، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1978م.
- 166- جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور: لسان العرب، الدار المتوسطة للنشر والتوزيع، تونس، ج1، 2005م.
- 167- جميل صليبا: المعجم الفلسفي، تر: خليل أحمد خليل، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، لبنان، ط2، ج2، 2001م.
- 168- ر. بودون وف. بوريكو: المعجم النقدي لعلم الاجتماع، تر: سليم حداد، ديوان المطبوعات الجامعية، بيروت، ط2، 2007م.
- 169- مجموعة مؤلفين: المنجد في اللغة والإعلام، دار المشرق، بيروت، ط2، 1982م، (مادة رهب).
- 170- مصطفى سويف وآخرون: معجم العلوم الاجتماعية، الهيئة المصرية للكتاب، د.ط، 1975م.

✓ الموسوعات:

171- أندريه لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، تر: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، ط2، 2001م، المجلد الثالث.

❖ المجلات والدوريات والجرائد:

✓ المجلات والدوريات:

172- عزيز نعمان: آسيا جبار مسيرة حثيثة على خطى التاريخ والذاكرة، مجلة الخطاب، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، العدد 16، نوفمبر 2013م.

173- نجيب العوفي: حضور الأدب الجزائري في المغرب، مقاربة وصفية، مجلة التبيين، اتحاد الكتاب الجزائريين، الجزائر العدد 10، 1995م.

174- الشاذلي الساكر: سنوات الجمر في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، مجلة الحياة الثقافية، وزارة الثقافة والمحافظة على التراث، تونس، ع 32، 1984م.

175- مجلة الاختلاف، دورية ثقافية تصدر عن رابطة كتاب الاختلاف، الجزائر، العدد الثاني، سبتمبر 2002م.

176- أيمن طلال يوسف: التفاعل الإيجابي بين المثقف العربي وقضايا الأمة إدوارد سعيد أنموذجا، مجلة الفكر السياسي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد 26، السنة الثامنة، 2006م.

177- بوبكر بوسكين: حوار مع واسيني الأعرج، مجلة الموقف الأدبي (شهرية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب)، السنة الخامسة والثلاثون، العدد 434، دمشق، سوريا، حزيران 2007م.

178- رشيد بن مالك: سيمياء الفضاء في رواية ربح الجنوب، مجلة اللغة والأدب، معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، ع13، 1998م.

179- صالح ولعة: صورة المثقف في روايات عبد الرحمن منيف، مجلة الموقف الأدبي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد 386، ص2003م.

- 180-** صبار نور الدين: الاغتراب بين القيمة المعرفية والقيمة الجمالية، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، ع355، سبتمبر 2000م.
- 181-** عبد الحميد هيمة: المأساة الوطنية في الرواية الجزائرية، قراءة في نماذج من الرواية الجزائرية، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، العدد 29، 2013م.
- 182-** عبد الصمد بلكبير: في الهوية والغزو الثقافي، مجلة عيون المقالات، الدار البيضاء، المغرب، العددان 14، 15، 1990م.
- 183-** عبد القادر شرشار: كتابة الآخر في الرواية العربية المعاصرة، مجلة الخلدونية، العدد التجريبي، نشر ابن خلدون، تلمسان، د.ط، 2005م.
- 184-** لعموري زاوي: العولمة والهوية، حوار الكونية والأنا، مجلة الاختلاف، دورية ثقافية تصدر عن رابطة كتاب الاختلاف، الجزائر، العدد 3، 2003م.
- 185-** ماجدة حمود: مقارنة تطبيقية في الأدب المقارن، مجلة الموقف الأدبي، شهرية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد 185، ماي 2000م.
- 186-** محمد داود: الأدباء الشباب والعنف في الوقت الراهن، ضمن مجلة دفاتر إنسانيات، مجلة جزائرية في الأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية تصدر عن مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران، العدد 1، د.ت.
- 187-** مخلوف عامر: أثر الإرهاب في الكتابة الروائية، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مجلد 28، عدد 1، 1999م.
- 188-** نزيه أبو نضال: السمات الفنية في رواية القمع العربية، مجلة فصول، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، م12، ع3، 1993م.
- نوال بن صالح: الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية وثورة التحرير، صراع اللغة - **189** والهوية، مجلة المخبر، جامعة محمد خيضر، بسكرة، العدد السابع، 2011م.

✓ الجرائد:

- 190- أحمد منور: جريدة الاتحاد، الجزائر، 29 يونيو 2013م Alitthad.Ae/details.php
- 191- جميل حمداوي: صورة جدلية الأنا والآخر في الخطاب الروائي العربي، صحيفة المثقف، العدد 1440، 27/06/2010م.
- 192- عمر أزراج: الهوية شرط اللغة وإمكانات التحويل، يومية الخبر، الجزائر، السنة 20، العدد 5972، الخميس 22/04/2010م.
- ❖ الملتقيات:
- 193- إبراهيم سعدي: الرواية الفرنكوفونية بوصفها نصا متعدد الثقافات، المجلس الأعلى للغة العربية، أعمال اليوم الدراسي (الرواية بين صفتي المتوسط)، الجزائر، 2011م.
- 194- بن جمعة بوشوشة: التجريب وسؤال الحداثة، الملتقى الدولي الخامس للرواية عبد الحميد بن هدوقة، وزارة الثقافة، ولاية برج بوعريريج، الجزائر، ط5، 2002م.
- 195- حمودي محمد: جدل الأنا والآخر في المتن الجزائري المعاصر، بوح الرجل القادة من الظلام لإبراهيم سعدي أنموذجا، الملتقى الدولي حول السرديات أسئلة الهوية في الخطاب السري، المركز الجامعي، بشار، الجزائر، 2001م.
- 196- عبد القادر شرشار: بناء الآخر والهنالك في الرواية المغاربية، بحث عن الفردوس المفقود، جامعة وهران، ضمن أعمال الملتقى الدولي حول السرديات، أسئلة الهوية في الخطاب السري، جامعة بشار، الجزائر، 2001م.
- 197- عبد الواهب بوشليحة: أزمة الذات والعالم في الرواية الجزائرية، رواية تميمون لرشيد بوجدره نموذجا، ضمن أعمال الملتقى الدولي حول السرديات أسئلة الهوية والخطاب السري، جامعة بشار، الجزائر، 2001م.
- 198- لعموري زاوي: ازدواجية اللغة في أدب رشيد بوجدره، وقائع الملتقى الدولي رشيد بوجدره وإنتاجية النص، وهران، د.ت.

199- ملاح كيساء: كتابة العنف/ عنف الكتابة في رواية فوضى الحواس لأحلام مستغانمي، مجموع محاضرات الملتقى الدولي العاشر، لعبد الحميد بن هدوقة، وزارة الثقافة، مؤسسة الفانوس للثقافة والفنون، الجزائر، 2008م.

200- نورة بعيو: الخطاب الروائي وضغوطات العولمة، بين حدود المفهومين: الهوية/ العولمة، جامعة تيزي وزو، عن الملتقى الدولي حول السرديات، أسئلة الهوية في الخطاب السردية، الجزائر، 2001م.

❖ **الرسائل الجامعية:**

201- الشريف حبيلة: بنية الخطاب الروائي (دراسة في روايات نجيب الكيلاني)، بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير، كلية الآداب واللغات، جامعة باجي مختار، عنابة، 2000م.

202- بلحر ياقوت: تمظهرات الآخر في رواية "سيدة المقام" لواسيني الأعرج، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، كلية الآداب والفنون واللغات، جامعة وهران، الجزائر، 2004-2005م.

203- بوعلام صوافي: أشكال الكتابة الروائية في الجزائر بين (1990-2000م)، بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة وهران، 2006 - 2007م.

204- حسان راشدي: ظاهرة الرواية الجديدة في الجزائر، مرحلة التحولات، 1988-2000م، أطروحة دكتوراه دولة في الأدب والعلوم الإنسانية، جامعة قسنطينة، 2001م.

205- رائد حميد مجيد البطاط: جدلية الذات والآخر في شعر السجون العصرين الأموي والعباسي، دراسة نفسية، أطروحة دكتوراه، جامعة البصرة، 2011م.

206- سلاف بوحلايس: صورة الأنا والآخر في شعر مصطفى الغماري، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الأدب الجزائري الحديث، باتنة، 2008-2009م.

207- صوافي بوعلام: محددات الأنا والآخر في المتن الروائي الجزائري الجديد، أطروحة جامعية لنيل درجة الدكتوراه في الأدب العربي، جامعة أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، 2014-2015م.

208- فاروق جقريف: أدب الأزمة في رواية ذاكرة الماء لواسيني الأعرج، مذكرة معدة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي، تخصص أدب جزائري معاصر، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، 2010-2011م.

❖ المواقع الإلكترونية:

209- آلان تورين: في الحادثة وما بعدها، مصائر الحادثة، تر: قاسم مقداد ومحمود موعد، www.athakerah.net، 16 مارس 2008م.

210- آلان تورين: في الحادثة وما بعدها، مصائر الحادثة، تر: قاسم مقداد ومحمود موعد، www.athakerah.net، 16 مارس 2008م.

211- جميل حمداوي: تصنيف المثقفين، ستار تايمز، <http://www.startimes.com/F.asps?t=9433287>

212- سليمان الديراني: ما بعد الحادثة، مجتمع جديد أم خطاب مستجد www.althakafah.net 16 مارس 2008م.

213- طيب تيزيني: من الحادثة إلى ما بعد الحادثة، إشكالية ونقد، www.athakerah.net، 16 مارس 2008م.

214- عبد الله الغذامي: آفاق ما بعد الحادثة، www.athakerah.net، 16 مارس 2008م.

215- فريدة النقاش: قضايا ما بعد الحادثة في الأدب والنقد، www.althalerah.net، 16 مارس 2008م.

216- فريدة النقاش: قضايا ما بعد الحادثة في الأدب والنقد، www.athakerah.net، 16 مارس 2008م.

217- محمد جزائري: أزمة مثقفي البرجوازية السعوديين، تاريخ النشر: 20011/03/3،

تاريخ الزيارة: 2011-03-27 <http://www.alarabiya.net/writers/2011/03/23/142642.html>

218- مفيد نجم: الجسد في السرد النسوي: "استعادة القيمة الغائبة للذات" علوية صبح،

نموذجاً، مجلة نزوى، صدرت عن مؤسسة عمان للصحافة والنشر والإعلام، العدد

72، 2012م، نسخة إلكترونية <http://www.nizwa.com>.

219- نادية صادق العلي: مدخل لما بعد الحداثة، www.athakerah.net، 16 مارس

2008م.

220- ياسين الحاج صالح: ضمائر الحداثة المنفصلة والمتصلة والمعقاة،

www.dctcre.org 17 مارس 2007م.

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

المحتوى	الصفحة
شكر و عرفان	
مقدمة.....	أ-خ
الفصل الأول: إضاءات حول الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية	
المبحث الأول: الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية.....	09
1-النشأة والتطور.....	09
2-الأدب الكولونيالي.....	12
أ-الأدب الكولونيالي الاندماجي.....	12
ب-الأدب الكولونيالي الثوري.....	17
ج-رواية ما بعد الاستقلال (رواية ما بعد الكولونيالية).....	18
د-الأدب الاستعجالي: رواية الأزمة المكتوبة باللغة الفرنسية.....	21
المبحث الثاني: هوية الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية.....	25
1-القائلون بقومية الأدب.....	25
2-القائلون بأنه أدب فرنسي.....	27
3-القائلون بأنه أدب بلا هوية.....	29
المبحث الثالث: الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية وإشكالية اللغة.....	33
المبحث الرابع: الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية والثورة التحريرية.....	50
الفصل الثاني: الآخر في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية	
المبحث الأول: الآخر وعلاقته بالذات.....	59
1-تعريف الآخر والذات.....	61
2-العلاقة بين الذات والآخر.....	64
أ-الآخر الأجنبي الغربي.....	68
ب-الذات ورفض الآخر الأجنبي.....	74

ج-الآخر الأهلي	82
ج-1-الآخر الأهلي المتطرف	83
ج-2-الآخر الأهلي الانتهازي	92
المبحث الثاني: رحلة البحث عن الذات في الآخر	97
المبحث الثالث: الأنثى بين سيطرة الآخر وإثبات الذات	104

الفصل الثالث: محنة الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

المبحث الأول: المثقف (intellectuel) الذات الغائبة المغيبة	122
1- مفهوم المثقف	123
أ- المعنى اللغوي	123
ب- المعنى الاصطلاحي	123
2- أنواع المثقف	127
أ- المثقف التقليدي	127
ب- المثقف العضوي	128
3- المثقف في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية	129
4- تغيب المثقف	130
المبحث الثاني: الوطن القيمة المفقودة	140
المبحث الثالث: الهوية أزمة الذات	151
المبحث الرابع: الإرهاب قتل الذات	163
1- ماهية الإرهاب	163
أ- لغة	163
ب- اصطلاحا	164
2- رواية الأزمة الجزائرية والإرهاب	167
3- تصوير مشاهد الإرهاب	172
4- شخصية الإرهابي	179
المبحث الخامس: العولمة تهديد للذات	185
الفصل الرابع: غربة الذات واغترابها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية	
توطئة	200
المبحث الأول: مفهوم الاغتراب	200

203	1- الغربة والاغتراب (مفارقة اصطلاحية).....
207	المبحث الثاني: الاغتراب الزماني.....
210	1-الهروب من الحاضر.....
214	2-العودة إلى الماضي (زمن الذاكرة).....
215	أ-الماضي البعيد: (زمن الطفولة).....
219	ب-الماضي القريب.....
221	المبحث الثالث: الاغتراب المكاني.....
224	1-إحياءات المكان الاغترابية.....
224	أ-إحياءات المدينة.....
228	ب-إحياءات الشارع الاغترابية.....
231	ج-إحياءات القرية الاغترابية.....
235	د-إحياءات البيت الاغترابية.....
240	المبحث الرابع: اغتراب اللغة ولغة الاغتراب.....
250	المبحث الخامس: الاغتراب الاجتماعي.....
251	1-اغتراب الذات عن أسرتها.....
255	2-اغتراب الفرد عن المجتمع وقيمه.....
261	خاتمة.....
270	قائمة المصادر والمراجع.....
292	فهرس المحتويات.....
	ملخص الدراسة.....

ملخص الدراسة

الملخص:

قادني بحثي الموسوم بـ " البحث عن الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية من أواخر الثمانينات إلى غاية 2003م" إلى الحديث عن رواية المغربين في لغة الآخر المؤمنين بوطن لا يعترف بالحدود ولا الفوارق اللغوية ليحدد الانتماء والهوية، رواية أثبتت أصلها العربي الجزائري، مؤكدة على أن الكتابة هي الحل الأمثل لإدانة كل أشكال الإهمال والتهميش.

كما عالج بحثي ثيمة "الذات" من خلال رحلة بحث شاقة حاولت فيها محاورة العلاقة الجدلية بينها وبين الآخر، محاولة مد جسور التواصل بينهما وذلك بتجاوز علاقة الرفض والصراع مع الحفاظ على طابع الخصوصية.

لقد شكلت الذات المبدعة مركز الاهتمام، هذه الذات التي أعينتها أزمت الوجود فاضطرتها للغياب، متطلعة للخلاص من اضطهاد إرهاب قضى على وطنها فأفقدته قيمته ومعناه، فراحت تثيه باحثة عن هوية ضائعة ساعية لإيجادها والحفاظ عليها في ظل تهديد عولمة مفترسة تسعى لإحكام السيطرة بالقضاء على الهويات القومية بغية إحلال هوية غريبة.

كل هذا أسقط الذات في أحضان الغربة والاعتراب بكافة أنماطه (الزماني - المكاني - اللغوي - الاجتماعي)، اغتراب جسد إدانة الروائيين لذواتهم المنهارة، فلم تكن غربة كاتب فحسب وإنما كانت غربة جيل بأكمله.

وما يمكن قوله هو أن اللغة الفرنسية لم تكن عائقا بالقدر الذي كانت فيه عاملا من عوامل الثورة وتحرير الذات من أجل إثبات تواجدها وفعاليتها.

الكلمات المفتاحية:

الرواية الجزائرية - اللغة الفرنسية - البحث-الذات - الهوية - الاعتراب - الانتماء - الآخر.

Résumé :

Ma recherche, intitulée "L'auto-recherche dans le roman algérien de la fin des années 1980 à la fin 2003", m'a conduit à rechercher le roman des Occidentaux dans la langue de l'autre qui croit en une patrie qui ignore les frontières ou les différences linguistiques. La solution pour condamner toutes les formes de négligence et de marginalisation. La recherche a également abordé la valeur du «soi» à travers un parcours de recherche ardu dans lequel le dialogue de la relation dialectique entre eux tentait de combler le fossé entre eux, en surmontant la relation de rejet et de conflit tout en préservant le caractère privé.

Le moi créatif a défini les impératifs de l'existence et a cherché à le sauver, sous la menace d'une mondialisation prédatrice cherchant à contrôler l'élimination des identités nationales. Identité occidentale

Tout s'abandonnait dans l'étreinte de l'aliénation et de l'aliénation sous toutes ses formes (temporelle-spatiale-géosociale), l'aliénation du corps de la condamnation des romanciers de leur effondrement, non seulement l'étrangeté d'un écrivain mais l'aliénation de toute une génération.

Ce que l'on peut dire, c'est que la langue française n'était pas un obstacle au siècle, facteur de révolution et d'auto-libération pour sa présence et son efficacité.

Mots-clés : *Le roman algérien - la langue française - recherche - identité - aliénation - hétérogénéité - l'autre.*

Abstract:

My research, entitled "Self-searching in the Algerian novel written in French from the late 1980s to the end of 2003," led me to search for the novel of the Westerners in the language of the other who believe in a homeland That does not recognize boundaries or linguistic différences to déterminer identity and identity. The solution to condemn all forms of neglect and marginalization

The research also dealt with the value of "self" through an arduous research journey in which the dialogue of the dialectical relationship between them attempted to bridge the gaps between them, by overcoming the relationship of rejection and conflict while preserving the character of privacy. The creative self was the focus of attention, the self that defined the imperatives of existence and forced them to be absent, looking forward to salvation from the oppression of terrorism that destroyed their land, lost its value and meaning, and began to discredit it, searching for a lost identity seeking to find and preserve it under the threat of a predatory globalization seeking control over the elimination of national identities. Western identity.

All this dropped the self in the embrace of alienation and alienation in all its patterns (temporal-spatial-geo-social), the alienation of the body of the novelists' condemnation of their collapsed selves, not only the strangeness of a writer but the alienation of an entire generation. What can be said is that the French language was not an obstacle to the century, which was a factor of the revolution and self-liberation for its presence and effectiveness.

key words: *The Algerian novel - the French language - research - self - identity - alienation - heterogeneity - the other.*